موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

المحور الأول

التعريف العام بالإسلام

٤

العبادة في الإسلام

الإمـام يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالـــى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۞ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**كل سلامى عليه صدقة كل يوم، يعين الرجل في دابته يحامله عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ودل الطريق صدقة**». متفق عليه .

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ : «**مَن لم يدع قول الزور والعمل بـه، فليس لله حاجة فـي أن يدع طعامه وشرابه**». رواه البخاري.

عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسـر، ولن يشـاد الدين أحد إلا غلبه، فسـددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**». رواه البخاري.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ونصلِّي ونسلم على رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومَن اتبع هداه.

(وبعد)

فهذه هي الطبعة الثالثة من كتابي «العبادة في الإسلام»، بعد أن هذَّبته وعدَّلته ووسَّعته؛ حتى بدا في صورة أخرى غير الصورة التي ظهر بها منذ أحد عشر عامًا.

والكتاب ليس بحثًا في «الأحكام الفقهية» للعبادة، فلهذا موضع آخر، هو كتاب «تيسير الفقه»، الذي أسأل الله أن يعين على إخراجه وإتمامه. وإنما هو بحث في حقيقة العبادة ومنزلتها وأسرارها، وإن شئتَ فقل: هو بحث في «فلسفة العبادة» في الإسلام.

ولو شئنا كلمة إسلامية أصيلة نعبِّر بها عن هذا المعنى لكانت: «فقه العبادة». لا بالمدلول الاصطلاحي الذي شاع وأصبح عنوانًا على معرفة الأركان والشروط والأحكام الظاهرة والجزئية، بل بالمدلول الذي جاء به

QaradawiBooks.com

القرآن والسنة، في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقوله ﷺ: «**مَن يُرد الله به خيرًا يُفقّهُ في الدين**».

ولكني لم أستعمل هذه الكلمة خشية أن تفهم بالمدلول الاصطلاحي، وهو ما لم أقصده، ولم أحب استعمال كلمة «فلسفة» مضافة إلى العبادة، فآثرت جعل عنوانه: «العبادة في الإسلام»، وكفى.

والعبادة ليست أمرًا على هامش الحياة، إنها المبدأ الأول الذي أنزل الله كتبه به، وبعث رسله لدعوة الناس إليه، وتذكيرهم به إذا نسوه أو ضلُّوا عنه؛ ولهذا خاطب خاتم رسله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكانت الصيحة الأولى في كل رسالة: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

ولما ختم الله كتبه بالقرآن، وختم رسالاته بالإسلام، وختم النبيين بمحمد عليه السلام، أكّد هذه الحقيقة، وأعلن في كتاب الخلود: أن الغاية من خلق المكلفين أن يعرفوا الله ربَّهم ويعبدوه. فهذا سرُّ خَلْق هذا الجنس الناطق المفكّر المريد في هذا العالم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

بيد أن الناس ـ حتى المسلمين أنفسهم ـ ظلموا «العبادة» وحرَّفوها عن وجهها، وعن حقيقتها، وعن مكانها، فَهمًا وأسلوبًا، ونظرًا وتطبيقًا.

QaradawiBooks.com

فوجدنا من الناس مَن لم يعتبروا عبــادة الله غاية تُطلب لذاتها، إنما هي مجرَّد وسيلة لتهذيب النفس، وتربية الضمير. وهي ليست ـ عندهم ـ الوسـيلة الوحيدة، ولا الوسيلة المثلى، ففي الاسـتطاعة الاستغناء عنها بغيرها من الوسـائل «المدنية» التي تتَّخذها بعض الشـعوب أو الدول ـ حتى الملاحدة منها ـ لتكوين المواطن الصالح.

ووجدنا من الناس من آمنوا بقيمة العبادة ومنزلتها، ولكنهم وجَّهوها لغير مسـتحقِّها، لغير الرب الأعلـى، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، فاتخذوا مع الله ـ أو من دونه ـ آلهة أخرى، أو اتَّخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، حتى رأينا في المتأخرين من المسـلمين أيضًا لوثة من هـذا الضلال، فمنهم مَن يعظم غيـرَ الله، أو يقدِّس غيرَ الله، أو ينذر لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو يطيع ـ طاعة مطلقة ـ غيرَ الله!

ووجدنا من الناس من آمنوا بمنزلة العبادة، ووجَّهوها إلى مستحقها سبحانه، ولكنهم لم يعبدوا الله بما أمر به، ولم يتقيَّدوا بما شرع لهم من طرائق العبادة وصورها؛ فشرعوا منها ما لم يأذن به الله، وسنُّوا ما لم يَسنَّه رسـول الله ﷺ. فشـدَّدوا على أنفسهم، وشـردوا عن سـواء الصراط، وأحاطوا العبادات بالبدع والضلالات، التي ورثوها عمَّن ضلَّ قبلهم من أتباع الديانات، غافلين عـن الإصلاح العظيم الذي جـاء به دينهم في مجال العبادة، حيث قـوَّم عوجها، وأبطل زائفهـا، ووضع لها الأصول والمبادئ التي تحميها من الغلو والانحراف.

ووجدنا آخرين قد فهموا معنى العبادة ـ التي جعلها الله غاية الخلق ـ فَهمًا جزئيًّـا قاصرًا، فهي لا تعدو أداء الشـعائر المعروفـة؛ من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء.

QaradawiBooks.com

وبهـذا الفَهم المبتور لا يبالـون ما قصَّروا فيه بعـد ذلك من أوامر الإسلام ونواهيه، وأحكامه ووصاياه، التي تستوعب كلَّ مجالات الحياة. مع أن العبادة ـ كما جاء بها القرآن والسُّـنَّة، وكما فهمها خير قرون هذه الأمة ـ تشمل الدين كلَّه، وتشمل الحياة كلَّها.

من هنا رأينا واجبنا أن نصحِّح المفاهيم المغلوطة، التي سادت بين كثير من المسلمين المتأخرين في شأن العبادة، وأن نطارد الأفكار الضالَّة التي يريد بعض الناس أن يدخلوها في رؤوس المسلمين عن قيمة العبادة ومكانتها في الإسـلام، وأن نبين معنـى العبادة وحقيقتها، وشـمولها وغايتها، وسـر التكليف بها، وما جاء به الإسلام من هدى وإصلاح في مجالها. وبهذا نعرف: مَن نعبد؟ وهو الله تعالـى. ولماذا نعبده؟ وبماذا نعبده؟ وكيف نعبده؟

كما تمَّمنا ذلك ببحث عن أسرار العبادات الإسلامية الكبرى التي عُرفت بأنها: «شـعائر الإسـلام»، والتي خُصَّت في المصطلح الفقهي باسم: «العبادات».

ثم ختمنا الكتاب بفصل عن المنهج الأمثل في تعليم هذه العبادات والشعائر، التي عُدَّت من مباني الإسلام.

ولعلي أكون بهذا الكتاب قد جلَّيـتُ ما قصدتُ إليه، وأمطتُ اللثام عن وجه هذا الجانب الأساسـي الهام من جوانب هذا الإسلام العظيم، الذي أكمله الله لنا، وأتمَّ به علينا نعمته، ورضيه لنا دينًا.

وأسأل الله أن ينفعني به وقارئه وناشـره، وأن يغفر لي ما عسى أن يكون مـن زلات الفكر والقلـم، وأن يجعلنا من أهـل الإخلاص في

QaradawiBooks.com

عبادته، والمتابعة لشـــريعته، المترقِّين في مدارج الســالكين، ومنازل الســائرين إلى مقامــات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحــة: ٥]، إنه سميع مجيب.

الدوحة في غرَّة ربيع الثاني ١٣٩١هـ

٢٦ مايو ١٩٧١م

يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العبادة مهمَّة الإنسان الأولى في الوجود

- مهمة الإنسان في هذا الوجود.
- الأسئلة الخالدة.
- من أين؟
- إلى أين المسير؟
- لماذا خلق الله الإنسان؟
- النداء الأول في كل رسالة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.
- الجميع مأمورون بالعبادة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مهمة الإنسان في هذا الوجود

لماذا وُجدتُ؟ وما مهمَّتي في هذا الوجود؟ وما رسالتي في هذه الحياة؟

سؤال واجب على الإنسان، كل إنسـان، أن يسأله لنفسه، وأن يفكِّر مليًّا في جوابه.

فإن كلَّ جهل مهما عظمت نتائجه قد يُغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سرَّ وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه في هذه الأرض!

وأكبر العار على هذا الكائن الذي أوتي العقل والإرادة: الإنسان، أن يعيش غافلًا، يأكل ويتمتَّع كما تأكل الأنعـام، لا يفكِّر في مصيره، ولا يدري شـيئًا عن حقيقة نفسـه، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول، دون اسـتعداد له، ويجني ثمرة الغفلة والجهـل والانحراف في عمره الطويـل أو القصير. وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

نسخة مجانية

لهذا كان لزامًا على كلِّ بشـر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجدٍّ: لماذا خُلقتُ؟ وما غاية خلقي؟

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الأسئلة الخالدة

وقبل أن يجيب الإنسان عن هذا السؤال، أو يجاب عنه، بل قبل أن يسأله، يلزمه أن يسأل نفسه سؤالين آخرين، لكي يتَّضح له الجواب، وتتبيَّن له الحقيقة كاملة مشرقة، لا يحجبها سحاب ولا ضباب:

السؤال الأول هو: مَن أنا؟ ومن أين جئتُ؟ وبعبارة أخرى: مَن أوجدني؟

السؤال الثاني هو: ما مصيري بعد أن وُجدتُ؟ وإلى أين أذهب بعد الموت؟

ويعبِّر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟

هذه هي الأسئلة الثلاثة التي صاحبت الإنسان منذ فكَّر وتأمَّل، ولا زالت تصحبه وتلحُّ عليه، وتطلب الجواب الشافي لها. فبدون هذا الجواب لا تتحدَّد كينونة الإنسان، ولا موضعه في الفكر، ولا رسالته في الوجود. وكيف يتحدَّد شيء من ذلك إذا كان كائنًا لا يعرف: ما هو؟ ولا لِمَ هو؟ ولا من أين هو؟ ولا إلى أين هو؟!

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

إنها الأسئلة الخالدة التي حاولت كلُّ فلسفة في الشرق أو في الغرب أن تجيب عنها، بل لا تعدُّ فلسفة إذا أغفلت الجواب عنها.

من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ ومن أين جئت أنا الإنســان؟ ومَن جاء بي؟ وكذلك: من أين جاء هذا العالم الكبير من حولي؟

وإلى أين أســير وأرحل بعد أن أُوجِدتُ في هذا الكون؟ وإلى أين يسير هذا الكون أيضًا؟ وماذا بعد هذه الصفحات التي أطويها من كتابي الذي يسمى: «العمر»؟

ولماذا خُلقت في هذا العالم؟ وهل لي فيه من رسالة خاصة، ومهمة متميزة؟ وما هذه الرسالة، وتلك المهمة؟

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من أيــن؟

أما السؤال الأول، فهو عقدة العُقَد عند الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحــواس. إنهم يخنقــون صوت الفطرة فــي صدورهم، ويتحدُّون منطق العقل في رؤوسهم، ويصرون ـ في عمى عجيب ـ على أن هذا الكون بمــا فيه ومَن فيه وُجِـدَ وحده! وكلُّ ما فيــه من إحكام وترتيب إنما هو صنع المصادفة العمياء!

أما الذين يســتجيبون لنداء الفطــرة فيقرُّون بأن لهــم ولهذا الكون حولهم رَبًّا عظيمًا، تتجه قلوبهم إليه بالتعظيم والرجاء والخشية والتوكل والاستعانة. هذا شيء يشــعرون به في أعماقهم شعورًا أصيلًا، وهذا هو الدين الذي عبَّر عنه القــرآن بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد يخفت هذا الصوت الفطري في النفس أو يكبته صاحبه عمدًا في ســاعات الرخاء والدعة، فإذا نزلت بالإنسان أحداث مريرة، واهتزَّ عوده أمام الشدائد القاســية، وخاب أمله في الناس حوله، هُنالك ينطلق هذا الصوت متَّجهًا إلى ربِّه ضارعًا خاشعًا داعيًا راجيًا منيبًا إلى الله.

QaradawiBooks.com

سأل رجل الإمام جعفرًا الصادق رضي الله عنه عن «الله»، فقال: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أن هناك مَن يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو «الله»(١).

وعلى هذه الحقيقة تنبه آيات كثيرة في القرآن: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ويقول «ديكارت»: إني مع شعوري بنقص في ذاتي، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأراني مضطرًا إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع الصفات الكاملة وهي «الله»(٢).

ونظرًا لأن الشعور نابع من الفطرة الأصلية نجد الإيمان بقوّة عليا فوق الطبيعة وفوق الأسباب أمرًا مشتركًا بين بني الإنسان في جميع البقاع، وبين شتى الأجناس والأقوام، وفي مختلف مراحل التاريخ.

يقول الفيلسوف الفرنسي «برجسون»: «لقد وُجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة»(٣).

---

(١) الله في العقيدة الإسلامية للشهيد حسن البنا صـ ١٨، نشر دار العلوم للطباعة، وانظر: التفسير الكبير للرازي (٢١٣/١، ٢١٤)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠م.

(٢) الله في العقيدة الإسلامية صـ ٢٠، وانظر تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى لديكارت التأمل الثالث، ترجمة د. كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط ٤، ١٩٨٨م.

(٣) الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان صـ ٨٥، نشر دار القلم، الكويت.

QaradawiBooks.com

ويقول «أرنست رينان» في «تاريخ الأديان»: «إنه من الممكن أن يضمحل كلُّ شيء نحبُّه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حُجَّة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنسان في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية»[١].

وإذا كان منطق الفطرة يهدي إلى الله ـ والفطرة ليست وجدانًا خالصًا ولا عقلًا مَحْضًا، وإنما هي مزيج منهما ـ فإن العقل المحض يرى الإيمان بالله ضرورة لا محيص عنها، حتى يستطيع أن يفسر بها وجود الكون والحياة والإنسان، فإن العقل ـ بغير تعلُّم ولا اكتساب ـ يؤمن بقانون «السببية» إيمانه بكلِّ البدائه والأوليات، فلا يقبل فعلًا من غير فاعل، ولا صنعة من غير صانع.

وقانون السببية هو الذي عبَّر عنه الأعرابي بسذاجة وبساطة حين سألوه عن «الله»، فقال: البعرة تدلُّ على البعير، وخطُّ السير يدلُّ على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدلُّ ذلك على العلي الكبير؟!

يقول العالِم الطبيعي المعروف «إسحاق نيوتن»: «لا تشكُّوا في الخالق؛ فإنه مما لا يُعقَل أن تكون المصادفات وحدها هي قاعدة هذا الوجود!»[٢]، وكلما ازداد اطلاع الإنسان على عجائب الكون، ومعرفته بما فيه من جمال وإحكام ولم يقف عند القشور، ازداد إيمانًا بوجود الخالق وحكمته وعظمته وكمال صفاته. وفي هذا ينقل لنا «سبنسر» عن

(١) انظر: الدين للدكتور دراز صـ ٨٧.
(٢) المصدر السابق صـ ٨٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

«هرشــل» قوله: كلما اتســع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجــود خالق أزلــي لا حــدَّ لقدرتــه ولا نهايــة؛ فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده!

ويقول «سبنسر»: «إن العالِم الذي يرى قطرة الماء، فيعلم أنها تتركب من الأوكســجين والهيدروجين بنســبة خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النســبة لكانت شــيئًا آخر غير الماء؛ ليعتقــد عظمة الخالــق وقدرته، وحكمته، وعلمه الواسع، بأشــد وأعظم وأقوى من غير العالِم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها نقطة ماء فحســب! وكذلك العالم الذي يرى قطعة البَرد وما فيها من جمال الهندسة، ودقَّة التقسيم؛ لا شك أن يشعر بجمال الخالق، ودقيق حكمته، وأكبر من ذلــك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد»(١)!

ويقول «فرنسيس بيكون»: «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمُّق فيها ينتهــي بالعقول إلى الإيمان؛ ذلك لأن عقل الإنسان قد يقف عند ما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة، فلا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أمعن النظر، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتَّصل حلقاتها لا يجد بدًّا من التسليم بالله»(٢).

تلك هي شهادة رجال رسخوا في علوم الكون، وغاصوا في أعماقها. وهي شهادات في جانب الإيمان، ولكن الشكَّ والإلحاد يأتيان من جانب

(١) الله في العقيدة الإسلامية صـ ٢١، ٢٢.

(٢) قصة الفلسفة الحديثة لزكي نجيب محمود صـ ٥٩، نشـر لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.

QaradawiBooks.com

الذين عرفوا قشــورًا من العلم، أو درســوا قليلًا من الفلســفة، كما قال «بيكون» بحق.

إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فحســب، بل هــو ضرورة عقلية كذلك، وبدون هذا الإيمان ســيظلُّ هذا الســؤال الذي أثاره القرآن قلقًا حائرًا بغير جواب: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وهم بداهة لم يُخلقوا من غير شيء، وطبعًا لم يخلقوا أنفسهم، ولم يدَّعِ أحد منهم ولا ممَّن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السماوات والأرض! فمَن الخالق إذن؟!

وليس لهذا الســؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنســان ـ إذا تُرك ونفسه ـ إلا أن يجيب به، كما فعل المشركون أنفسهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

إلى أين المسير؟

أما السؤال الثاني: إلى أين؟ فإن الماديين يجيبون عنه جوابًا يهبط بالإنسان المكرَّم إلى دَرَك الحيوانية الدنيا؛ إنهم يقولون ببساطة عن مصير الإنسان بعد رحلة الحياة الحافلة: إنه الفناء والعدم المطلق؛ أن تطويه الأرض في بطنها كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى، وأن تعيد هذا الجسد ـ الذي هو الإنسان عندهم ـ إلى عناصره الأولى، فيعود ترابًا تذروه الرياح!

هذه هي قصة الحياة والإنسان عند هؤلاء: «أرحام تدفع، وأرض تبلع»! ولا خلود ولا جزاء. يستوي في ذلك مَن أحسن غاية الإحسان، ومَن أساء كلَّ الإساءة، يستوي في ذلك مَن عاش عمره للناس على حساب شهواته، ومَن عاش عمره لشهواته على حساب الناس، يستوي في ذلك مَن ضحَّى بحياته في سبيل الحقِّ، ومَن اعتدى على حيوات الآخرين في سبيل الباطل!

فعلام إذن تميَّز الإنسان على غيره من كائنات الأرض؟ ولماذا سُخِّر له كلُّ ما حوله؟ ولماذا مُنح من المواهب والقوى الروحية والعقلية ما لم يُمنح غَيرُه؟ وما سر هذا التطلع إلى الكمال والخلود يغمر جوانب نفسه، إذا كان مصيره التلاشي والعدم بعد أيام الحياة المعدودات؟!

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

أما المؤمنون فهم يعرفون إلى أين يسيرون؟ يعرفون أنهم لم يُخلقوا لهذه الدنيا؛ وإنما خُلقت هذه الدنيا لهم.

يعرفون أنهم خُلقوا لحياة الخلود ودار البقاء وهم في هذه الحياة إنما يُستصلحون ويُعَدون للدار الأخرى، ويتزوَّدون منها هنا ما ينفعهم هناك، ويترقَّون في مدارج الكمال الروحي والنفسي حتى يكونوا أهلًا لدخول تلك الدار الطيبة التي لا يدخلها إلا الطيبون، وهناك يقول لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وإنه لعسير على العقل أن يؤمن بخالق عليم حكيم أحسنَ هذا الكونَ صنعًا وقدَّر كلَّ شيء فيه تقديرًا، ووضع كلَّ شيء فيه بميزان وحساب، ثم يؤمن بعد ذلك أن سوق هذه الحياة ستنفضُّ، وقد نهب فيها الناهب، وسرق السارق، وقتل القاتل، ولا تقتصُّ يد العدل الإلهي من هؤلاء المجرمين، ولا تنتصر للضعيف المظلوم الذي لم يكن له نصير غير الله، ولا ملجأ غير السماء، ولا تكافئ المحسن الذي كافأه الناس بالتنكُّر والاضطهاد! إن هذا لهو العبث الذي يتنزَّه خالق هذا الكون البديع عنه، وإنه لَلباطل الذي قامت السماوات والأرض بضده. وما أروع القرآن وهو يوضِّح هذه الحقيقة الكبيرة: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢]، ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

QaradawiBooks.com

كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٠].

* * *

QaradawiBooks.com

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

لماذا خُلق الإنسان؟

وأما السؤال الثالث، وهو الذي يجب أن يسأله الإنسان ـ بعد أن يعرف أنه مخلوق لخالق ومربوب لربٍّ ـ وهو ببساطة: لماذا خُلقت في هذه الحياة؟ ولماذا مُيزت على سائر الكائنات الأخرى؟ وما مهمَّتي فوق الأرض؟

فالجواب عنه عند المؤمنين حاضر: إن كلَّ صانع يعرف سرَّ صنعته: لماذا صنعها؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره؟

والله تعالى هو صانع الإنسان وخالقه ومدبِّر أمره، فلنسأله: يا رب، لماذا خلقتَ هذا الإنسان؟ هل خلقتَه لمجرَّد الطعام والشراب؟ هل خلقتَه للهو واللعب؟ هل خلقتَه لمجرَّد أن يمشي على التراب، ويأكل مما خرج من التراب، ثم يعود كما كان إلى التراب، وقد خُتمت القصة؟ هل ليعيش تلك الفترة القصيرة المعذَّبة ما بين صرخة الوضع وأنَّة النزع؟ إذن فما سرُّ هذه القوى والمَلَكَات التي أودعتها الإنسان من عقل وإدارة وروح؟

وسيرد الله على تساؤلنا بما بيَّن لنا في كتابه ـ كتاب الخلود ـ أنه خلقه ليكون خليفة في الأرض. وهذا واضح في آدم وما كان من تمني الملائكة لمنزلته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً

QaradawiBooks.com

قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأول شيء في هذه الخلافة أن يعرف الإنسان ربَّه حقَّ معرفته، ويعبده حقَّ عبادته قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي هذه الآية جُعلت معرفة الله هي الغاية من خلق السماوات والأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وفي بعض الآثار القدسية يقول سبحانه: «**عبادي، إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلًا، وتذكروني كثيرًا، وتسبحوني بكرة وأصيلًا**»[١].

إن المتأمِّل في هذا الكون الذي نعيش فيه يرى كلَّ شيء فيه يحيا ويعمل لغيره، فنحن نرى أن الماء للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمَن؟ هذا هو السؤال.

والجواب الذي تنادي به الفطرة، وتنطق به مراتب الكائنات في هذا الكون: أن الإنسان لله، لمعرفته، لعبادته، للقيام بحقِّه وحده. ولا يجوز أن يكون الإنسان لشيء آخر في الأرض أو في الأفلاك؛ لأن كلَّ العوالم العلوية والسفلية مسخَّرة له، وتعمل في خدمته كما هو مشاهد، فكيف يكون هو لها أو يعمل في خدمتها؟

(١) لم أقف على تخريج له، ولكن معناه صحيح.

QaradawiBooks.com

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته، كالشــمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها، قلبًا للوضع الطبيعي، وانتكاسًا بالإنسان أي انتكاس!

والإنســان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون، إنما هو لله ســبحانه لا لغيره. لعبادته وحده، لا لعبادة بشــر ولا حجر، ولا بقر ولا شجر، ولا شــمس ولا قمر. وكل عبادة لغير الله إنما هي من تزيين الشيطان عدو الإنسان.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

النداء الأول في كل رسالة:
﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾

هذه العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان، وسجَّله بقلم القدرة في فطرهم البشرية، وغرسه في طبائعهم الأصيلة، منذ وضع في رؤوسهم عقولًا تعي، وفي صدورهم قلوبًا تخفق، وفي الكون حولهم آيات تهدي ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يسٓ: ٦٠، ٦١].

هذا العهد بين الله وعباده هو الذي صوَّره القرآن في روعة وبلاغة حين قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد. ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، بهذا دعا قومَه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط

QaradawiBooks.com

وشعيب وكل رسول بُعِث إلى قوم مكذبين. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الجميع مأمورون بالعبادة

وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، أي الموت. كما قال تعالى على لسان قوم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧]، وهو الموت. فالتكليف بالعبادة لازم له حتى يلحق بربه، لم تسقط عنه بسمو الروح، ولا بالاتصال القوي بالله. وهكذا ظلَّ حتى في مرض موته عابدًا لله.

وقال تعالى في شأن المسيح عيسى ابن مريم الذي رفعه قومه إلى مرتبة الألوهية: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

ويعرض لنا القرآن مشهدًا من مشاهد يوم الحشر، يسأل الله فيه المسيح عما نسبوه إليه وافتروه عليه، فيجيب في أدب العبودية متبرئًا مما صنعوا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا

QaradawiBooks.com

﴿قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

ويروي إنجيل متَّى عن المسيح أن إبليس اللعين أراد أن يختبره فأخذه إلى جبل عالٍ جدًّا، وأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها، ثم قال له: أعطيك هذه كلَّها إن خررت ساجدًا لي. حينئذ قال له المسيح عليه السلام: اذهب يا شيطان، فإنه قد كتب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد[(١)].

فالأديان كلُّها دعوة إلى عبادة الله وحده، والأنبياء جميعًا أول العابدين لله.

وعبادة الله وحده هي ـ إذن ـ مهمة الإنسان الأولى في الوجود، كما بيَّنت ذلك كلُّ الرسالات.

❋ ❋ ❋

(١) إنجيل متَّى (٤/١٠)، وإنجيل لوقا (٤/٨).

QaradawiBooks.com

حقيقة العبادة في الإسلام

- معنى العبادة في اللغة.
- العبادة في الشرع خضوع وحب.
- خطأ صنفين من الناس في فهم حقيقة العبادة.
- مزاعم المستشرقين.

غير مخصصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

معنى العبادة في اللغة

في «القاموس»: «العبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة»[1].

وفي «الصحاح»: «أصل العبودية: الخضوع والذلُّ. والتعبيد: التذليل. يُقال: طريق مُعبَّد. والبعير المُعبَّد: المهنوء ـ المطلي ـ بالقطران المذلَّل... والعبادة: الطاعة. والتعبد: التنسك. والتعبُّد: التنسُّك ـ فرَّق بين المعاني بحسب الاشتقاق ـ ... ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ [الفجر: ٢٩]. أي في حزبي. فأضاف معنًى جديدًا، وهو الولاء»[2].

وفي «المخصص»: أصل العبادة: التذليل. من قولهم: طريق معبد، أي بكثرة الوطء عليه. ومنه أُخذ «العبد» لذلِّه لمولاه.

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني. يُقال: تعبد فلان لفلان. إذا تذلَّل له. وكلُّ خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة، وكلُّ طاعة لله على جهة الخضوع

(١) القاموس المحيط مادة (ع. ب. د).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥٠٣/٢، ٥٠٤)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والتذلُّل فهي عبادة. والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقُّه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم. كالحياة والفَهم والسمع والبصر[١].

وفي «اللسان»: أصل العبودية: الخضوع والتذلل. وفي حديث أبي هريرة: «**لا يقل أحدكم لمملوكه: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي**»[٢]، هذا على نفي الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه، فإن المستحقَّ لذلك الله تعالى ربُّ العباد كلِّهم والعبيد.

وجعل بعضهم العبادة لله بخلاف العبدية وغيرها، فهي تُجعَل لله وللمخلوقين. قال الأزهري: «ولا يُقال: عبد يعبد عبادة. إلا لمن يعبد الله. ومَن عبد إلهًا دونه فهو من الخاسرين. قال: وأما عبد خدم مولاه. فلا يقال: عَبَدَه. قال الليث: ويقال للمشركين: هم عبدة الطاغوت. ويقال للمسلمين: عباد الله، يعبدون الله»[٣]. والعابد: الموحِّد.

قال في «اللسان»: والتعبد: التنسك. والعبادة: الطاعة. قال: والتعبد: التذلل. والتعبيد: التذليل. بعير معبد: مذلَّل، وطريق معبد: مسلوك مذلل[٤].

ويرى الأستاذ أبو الأعلى المودودي استنادًا إلى الاستعمال اللغوي لمادة (ع. ب. د): أن مفهوم العبادة الأساسي «أن يذعن المرء لعلو أحد وغلبته، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله، ويترك إزاءه كلَّ مقاومة وعصيان، وينقاد له انقيادًا، وهذه هي حقيقة «العبدية» و«العبودية». ومن

(١) المخصص لابن سيده (٤/٦٢)، تحقيق خليل إبراهيم جفال، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العتق (٢٥٥٢)، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٤٩).

(٣) تهذيب اللغة (٢/١٣٩)، تحقيق محمد عوض مرعب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

(٤) لسان العرب مادة (ع. ب. د).

QaradawiBooks.com

ذلــك أن أولَ ما يتمثَّل في ذهــن العربي بمجرَّد ســماعه كلمة «العبد» و«العبادة» هو تصور العبدية والعبودية، وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتمًا يتبعه تصور الإطاعة.

ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللًا، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه، ويعترف بعلو شــأنه، وكان قلبه مفعمًا بعواطف الشــكر والامتنان على نِعَمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه، ويتفنَّن في إبداء الشــكر على آلائه، وفي أداء شعائر «العبدية» له، كل ذلك اسمه: التألُّه والتنسك. وهذا التصور لا ينضم إلى معاني العبدية، إلا إذا كان العبد لا يُخضِع لســيده رأسَــه فحســب، بل يخضع معه قلبه أيضًا»[1].

فكأن الأســتاذ يرى أن أصــل معنى العبــادة هو الإذعــان الكلي، والخضــوع الكامل، والطاعــة المطلقة. ثم قد يضاف إلــى هذا المعنى عنصر عاطفي جديــد، تتمثَّل فيه عبودية القلب، بعــد عبودية الرأس أو الرقبة، ومظهر هذا العنصر هو التألُّه والتنسُّك وأداء الشعائر.

ويقول الشــيخ محمد عبده في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، من ســورة الفاتحة في «المنار»: «ما هي العبادة؟ يقولون: هي الطاعة، مع غاية الخضــوع. وما كل عبارة تمثِّل المعنــى تمام التمثيل، فتجليه للأفهام واضحًا لا يقبل التأويل، فكثيرًا ما يفسِّرون الشيء ببعض لوازمه، ويعرِّفون الحقيقة برسومها. بل يكتفون أحيانًا بالتعريف اللفظي، ويبيِّنون الكلمة بما يقرب من معناها، ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة؛ فإن فيها إجمالًا وتساهلًا.

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي صـ ٩٧، نشر الدار الكويتية.

QaradawiBooks.com

وإننا إذا تتبعنا آي القرآن، وأساليب اللغة، واستعمال العرب لـ «عَبَدَ» وما يماثلها ويقاربها في المعنى ـ كخضع، وخنع، وأطاع، وذلَّ ـ نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي «عَبَدَ» ويحلُّ محلَّها، ويقع موقعها؛ ولذلك قالوا: إن لفظ «العباد» مأخوذ من العبادة، فتكثر إضافته إلى الله تعالى، ولفظ «العبيد» تكثر إضافته إلى غير الله تعالى؛ لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى.

ومن هنا قال بعض العلماء: إن العبادة لا تكون في اللغة إلا لله تعالى. ولكن استعمال القرآن يخالفه».

ثم يسترسل الشيخ في النهاية فيقول: «يغلو العاشق في تعظيم معشوقه، والخضوع له، غلوًّا كبيرًا، حتى يفنى هواه في هواه، وتذوب إرادته في إرادته، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة، ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى في خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين ـ دع سائر العابدين ـ ولم يكن العرب يسمُّون شيئًا من هذا الخضوع عبادة. فما هي العبادة إذن؟

تدلُّ الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حدِّ النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود. لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك تفهمها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به، ولكنها فوق إدراكه، فمَن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال: «إنه عبده». وإن قبَّل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذل والخضوع معروفًا، وهو الخوف من ظلمه المعهود، أو الرجاء في كرمه المحدود. اللهم إلا بالنسبة إلى الذين

QaradawiBooks.com

يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا؛ لأنهم أطيب الناس عنصرًا، وأكرمهم جوهرًا، هؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابًا وعبدوهم عبادة حقيقية»[1].

فالشيخ محمد عبده يرى هنا: أن الذي يميز العبادة من غيرها من ألوان الخضوع والتذلل والانقياد، ليس هو درجة الخضوع والطاعة، كما يقول اللغويون الذين يرون العبادة هي أقصى الطاعة والخضوع. وإنما ينظر إلى منشأ هذا الخضوع والانقياد، فإن كان منشؤه وسببه أمرًا ظاهرًا كالْمُلك والقوة ونحوهما، فلا يسمى عبادة، وإن كان منشؤها الاعتقاد بأن للمعبود عظمة وقدرة فوق الإدراك والحس؛ فهذا هو العبادة[2].

* * *

(١) تفسير المنار (٤٧/١، ٤٨)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٢) لكن هذا التقييد ـ مع مخالفته لما اتفقت عليه كتب اللغة ـ يبدو مخالفًا لظاهر قوله تعالى على لسان فرعون وملئه في شأن موسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. قال الطبري: «يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون لأمرهم، ويدينون لهم. والعرب تسمي كل مَن دان لملك: عابدًا له» اهـ. تفسير الطبري (٣٥/١٩، ٣٦)، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

العبادة في الشرع خضوع وحب

أما شيخ الإسلام ابن تيمية، فهو ينظر إلى العبادة نظرة أعمق وأوسع، فهو يحلِّل معناها إلى عناصرها البسيطة، فيبرز إلى جوار المعنى الأصلي في اللغة ـ وهو غاية الطاعة والخضوع ـ عنصرًا جديدًا له أهمية كبرى في الإسلام، وفي كلِّ الأديان، عنصرًا لا تتحقَّق العبادة ـ كما أمر الله ـ إلا به، وذلك هو عنصر «الحب» فبغير هذا العنصر العاطفي الوجداني لا توجد العبادة التي خلق الله لها الخلق، وبعث بها الرسل، وأنزل الكتب.

وفي توضيح ذلك يقول شيخ الإسلام في رسالته عن «العبودية»: «الدين يتضمَّن معنى الخضوع والذل، يقال: دِنتُه فدان. أي أذللته فذل. ويقال: يدين الله، ويدين لله. أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.

والعبادة أصل معناها: الذل أيضًا. يقال: طريق معبد، إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمَّن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال: تَيْم الله. أي عَبْد الله، فالمتيم: المعبَّد لمحبوبه».

QaradawiBooks.com

قال: «ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحبَّ شيئًا ولم يخضع له، لم يكن عابدًا له. كما قد يحبُّ الرجل ولده وصديقه؛ ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى. بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كلِّ شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كلِّ شيء، بل لا يستحقُّ المحبة والخضوع التام إلا الله، وكلُّ ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]»(١).

وبهذا الشرح العميق لمعنى العبادة وحقيقتها، ندرك أن العبادة المشروعة لا بد لها من أمرين:

الأول: هو الالتزام بما شرعه الله ودعا إليه رسلُه، أمرًا ونهيًا، وتحليلًا وتحريمًا. وهذا هو الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله.

فليس عبدًا ولا عابدًا لله مَن رفض الاستسلام لأمره، واستكبر عن اتباع نهجه، والانقياد لشرعه وإن أقرَّ بأن الله خالقه ورازقه، فقد كان مشركو العرب يقرُّون بذلك، ولم يجعلهم القرآن بذلك مؤمنين ولا عبادًا لله طائعين، فخضوع الإقرار بالربوبية لا يكفي، وخضوع الاستعانة في الكربات والاستغاثة في الشدائد لا يكفي، ولا بدَّ من خضوع التعبُّد والانقياد والاتباع الذي هو حقُّ الألوهية؛ وبهذا يتحقَّق معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

(١) العبودية صـ ٤٨، تحقيق محمد زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

وأســاس الخضوع لله تعالى هو الشـعور الواعي بوحدانيته تعالى، وقهره لكل مَن في الوجود، وما في الوجود، فكلُّهم عبيده وخلقه، وفي قبضة قدرته وسـلطانه، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ❁ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٥، ١٦].

أساس الخضوع لله الواحد القهار هو الشعور الذاتي بالحاجة إلى مَن يملك الضر والنفع والموت والحيـاة، ومَن له الخلق والأمر، ومَن بيده ملكوت كلِّ شـيء، ومَن إذا أراد شـيئًا قال له «كن» فيكون. الشـعور بالضعف أمام مَـن يملك القوة كل القوة، والشـعور بالجهل(١) أمام مَن أحاط بكلِّ شـيء علمًا، والشـعور بالعجز أمام مَن يملـك القدرة كل القدرة، والشعور بالفقر أمام مَن يملك الغنى كل الغنى. وباختصار شعور العبودية المخلوقـة الفانية الفقيرة بالذات أمـام الربوبية الخالقة الأزلية الأبدية، المالكة لكلِّ شيء، والمدبرة لكلِّ أمر.

وكلما ازداد الإنسان معرفة بنفسه، ومعرفة بربِّه، ازدادت هذه المشاعر وضوحًا وقوة، فقـوي اعتماده علـى الله، واتجاهه إليـه، وتوكُّله عليه، واستعانته به، وتذلُّلـه له، ومد يد الضراعة إليه، ووقوفه ببابه سائلًا داعيًا منيبًا إليه.

(١) الإنسان يجهل أسـرار ما يحدث له في حاضره، ويجهل ماذا يكنه له ضمير المستقبل، فلا يدري ماذا يكسب غدًا؟ ولا متى يموت؟ وأين يموت؟ وكيف يموت؟ وماذا وراء الموت؟ إلى غير ذلك من الأمور.

QaradawiBooks.com

فإذا جهل الإنسان قدر نفسه، وجهل قدر ربه لم تمت هذه المشاعر، ولكنها تنحرف وتتحول فتبحث لها عن ربٍّ تتَّجه إليه، وتخضع له، وتنقاد إليه ولا بدَّ، وإن لم تشعر بذلك، أو لم تسمِّه خضوعًا، وانقيادًا، ولم تسمِّ مقصودها ربًّا وإلهًا.

والثاني: أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحبُّ الله تعالى، فليس في الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يُحَب؛ فهو صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئًا مذكورًا، وخلق له ما في الأرض جميعًا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وخلقه في أحسن تقويم وصوَّره فأحسن صورته، وكرَّمه وفضَّله على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات، وعلَّمه البيان، واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فمَن أولى من الله بأن يُحبَّ؟ ومَن يحب الإنسانُ ـ إذن ـ إن لم يحبَّ الله تعالى؟! إن أساس محبة الله تعالى هو الشعور بفضله ونعمته، وإحسانه ورحمته، والإحساس بجماله وكماله، فمن كان يحبُّ الإحسان فالله هو واهبه وصاحبه، ومَن كان يحب الجمال فالله هو مصدره، ومَن كان يحبُّ الكمال فلا كمال في الحقيقة إلا كماله، ومَن كان يحب ذاته، فالله هو خالقه.

فمَن عرف الله أحبه، وبقدر درجته في المعرفة تكون درجته في المحبة؛ ولهذا كان الرسول ﷺ، أشد الناس حبًّا لله؛ لأنه كان أعرفهم بالله، وكانت قرة عينه في الصلاة؛ لأنها الصلة المباشرة بين قلبه وبين الله، وكان في دعائه يسأل الله الشوق إلى لقائه، ولذة النظر إلى وجهه سبحانه، ولما خُيِّر بين البقاء في الدنيا وبين اللحوق بربه قال: أختار الرفيق الأعلى![1].

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٤٣٧)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

أما علماء الكلام أو بعضهم ممن زعموا أن الحب الحقيقي لا يتصور من جانب العبد لله، وقالوا: إن معنى حب الله هو المواظبة على طاعته تعالى، وأما حقيقة الحب فهو محال، إلا مع الجنس والمثال؛ فقد رد عليهم الغزالي في «الإحياء» ردًّا مفصلًا[1]، مبينًا أن الذي يستحق المحبة الكاملة بكلِّ وجوهها، وكافة أسبابها هو الله وحده.

فإن أسباب الحب ـ كما شرحها ـ ترجع إلى خمسة هي:

١ ـ حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه.

٢ ـ وحبه مَن أحسن إليه، فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه.

٣ ـ وحبه مَن كان محسنًا في نفسه إلى الناس، وإن لم يكن محسنًا إليه.

٤ ـ وحبه لكلِّ ما هو جميل في ذاته، سواء أكان من الصور الظاهرة أو الباطنة.

٥ ـ وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن.

فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة، حسن الخُلُق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى الخلق، ومحسن إلى الوالد نفسه، كان محبوبًا لا محالة غاية الحب. وتكون قوة الحبِّ ـ بعد اجتماع هذه الخصال ـ بحسب قوَّة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال، كان الحبُّ لا محالة في أعلى الدرجات.

(١) إحياء علوم الدين (٣٠٠/٤) وما بعدها، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

وقد بيَّن الغزالي بالتفصيل أن هذه الأسباب كلَّها لا يتصوَّر كمالها واجتماعها إلا في حقِّ الله تعالى، فلا يستحقُّ المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

غير مرخصة للطباعة

ولا مجال هنا لذكر هذا التفصيل، ونجتزئ بنبذة يسيرة من حديثه عن السبب الأول للمحبة قال: «فأما السبب الأول ـ وهو حبُّ الإنسان نفسه وبقاءه وكماله، ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه، ونقصانه وقواطع كماله ـ فهذه جبلة كلِّ حيٍّ، ولا يتصوَّر أن ينفكَّ عنها؛ وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى.

فإن مَن عرف نفسه، وعرف ربه، عرف قطعًا أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته، ودوام وجوده، وكمال وجوده، من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له، وهو المبقي له، وهو المكمل لوجوده، بخَلْق صفات الكمال، وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد ـ من حيث ذاته ـ لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض، وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته. وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي، الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به. فإن أحبَّ العارف ذاته ـ ووجوده ذاته مستفاد من غيره ـ فبالضرورة يحبُّ المفيد لوجوده، والمديم له، إن عرَفه خالقًا موجدًا ومخترعًا مبقيًا وقيومًا بنفسه ومقومًا لغيره.

فإن كان لا يحبُّه فهو لجهله بنفسه وبربِّه، والمحبَّة ثمرة المعرفة، فتنعدم بانعدامها، وتضعف بضعفها، وتقوى بقوتها. ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: مَن عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

نسخة تجريبية

QaradawiBooks.com

وكيف يتصور أن يحبَّ الإنسان نفسه ولا يحب ربَّه الذي به قوام نفسه، ومعلوم أن المبتلى بحرِّ الشمس لما كان يحبُّ الظلَّ، فيحب ـ بالضرورة ـ الأشجار التي بها قوام الظلِّ. وكل ما في الوجود ـ بالإضافة إلى قدرة الله تعالى ـ فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإن الكلَّ من آثار قدرته تعالى، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس، ووجود الظل تابع للشجر»[1] اهـ.

محبة الله إذن ضرورية لكلِّ مَن عرف نفسه وعرف ربَّه.

ولكن الخطر إنما يكمن في ادعاء المحبة لله دون تحقيق العنصر الأول وهو الاتباع والانقياد لما جاءت به رسل الله، كاليهود والنصارى الذين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. مع أنهم انحرفوا عما نزلت به كتب الله، ودعا إليه رسله، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه، فحادوا عن الصراط المستقيم.

لا بد إذن في العبادة من العنصرين معًا: غاية الخضوع لله، وغاية المحبة لله، كما بيَّن ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2].

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٣٠١/٤).

(٢) انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢٢٧/٥)، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

خطأ صنفين من الناس في فهم حقيقة العبادة

وهذا البيان لحقيقة العبادة يصحِّح خطأ صنفين من الناس:

الصنف الأول: أسرف في دعوى المحبة، حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوع الربوبية التي لا تصلح إلا لله، فيدَّعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ـ فضلًا عن عامة الناس ـ أو يطلب من الله ما لا يصلح بكلِّ وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء ولا للمرسلين. قال ابن تيمية: «وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ ـ يعني من المتصوفة ـ وسببه: ضعف تحقيق العبودية التي بيَّنها الرسل، وحرَّرها الأمر والنهي الذي جاؤوا به، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته. وإذا ضعف العقل، وقلص العلم بالدين، وفي النفس محبة طائشة جاهلة، انبسطت النفس بحمقها في ذلك، كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا محب، فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل. فهذا عين الضلال ... فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفًا بمحابه ولا مريدًا لها، بل يعمل بمقتضى الحب وإن كان جهلًا وظلمًا، كان ذلك سببًا لبغض المحبوب له ونفوره عنه بل سببًا لعقوبته.

نسخة مجانية

وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حبِّ الله أنواعًا من أمور الجهل بالدين؛ إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحدًا فأنا بريء منه! فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء! فالأول: جعل مريده يخرج كل مَن في النار. والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم، حتى لا يدخلها أحد! وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، هي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر وغلبة فناء يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتى لا يدري ما قال[1]. والسكر هو لذة مع عدم تمييز. ولهذا كان من هؤلاء مَن إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمِّنة للحبِّ والشوق واللوم والعذل والغرام، كان هذا أصل مقصدهم، فإن هذا الجنس يحرِّك ما في القلب من الحبِّ كائنًا ما كان؛ ولهذا أنزل الله محنة ـ اختبارًا ـ يمتحن بها المحب فقال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلا يكون محبًّا لله إلا مَن يتبع رسوله. وطاعة الرسول ﷺ، ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية. وكثير ممَّن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ﷺ، ويدعي من الحالات ما لا يتسع

---

(١) نلاحظ أنه لم يكفرهم مع خطورة ما قالوا، والتمس لهم العذر بغلبة الأحوال عليهم، لعظم شأن التكفير وخطره، كما بينا ذلك في كتابنا: قضية التكفير بين الغلو والضوابط الشرعية.

QaradawiBooks.com

هذا الموضوع لذكره، حتى قد يظنُّ أحدهم سقوط الأمر، وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول ﷺ، وسنته وطاعته.

بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله ﷺ، الجهاد في سبيله، والجهاد يتضمَّن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه؛ ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك هم أصحاب محمد ﷺ، ومَن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل»[١].

هذا صنف.

والصنف الثاني الذي غلط في فَهم حقيقة العبادة: هو الذي ظنَّ أن المحبة تنافي أدب العبودية ولا تصاحب خشية الله ومخافته التي يجب أن يتصف بها كلُّ عبد لله. كما ظن أن المحبة لا تتحقق من المخلوق للخالق، إنما المطلوب منه الطاعة والخضوع فقط.

والحقيقة أن المحبة لا تنافي الخشية والمخافة، بل الخوف لازم للمحبة كما قال ابن تيمية[٢]، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له وإخلاصه الدين له. وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ

(١) العبودية صـ ١١٣، ١١٤.

(٢) المرجع السابق صـ ١١٢.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه أو عدم حصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ويؤكد ابن تيمية في غير موضع من رسالة «العبودية» أن المحبة جزء لا يتجزأ من حقيقة العبودية، مستدلًّا على ذلك باللغة وبالشرع قال: «ولفظ العبودية يتضمَّن كمال الذل وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبدًا للمحبوب. والتتيم: التعبد، وتيم الله: أي عبد الله. وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم»[١].

وفي موضع آخر يقول: «إنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا. وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع.

وكلُّ عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكلُّ عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع وصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله، وهو الواجب والمستحب»[٢].

(١) العبودية صـ ١٠٧، ١٠٨.

(٢) المصدر السابق صـ ١١٩، ١٢٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن السلف مَن لم ينكر حقيقة المحبة، وإنما أنكر ادعاءها والانبساط في هذه الدعوى بما لا يليق بمقام العبودية، وجلال الربوبية، كما رأينا في أقوال مَن ذكرنا من الصنف الأول.

ومن علماء الكلام مَن ذهب إلى أن المحبَّة لا تجوز في حق الله، وتأول ما جاء في الكتاب والسنة من ذلك بأن المراد به: الطاعة؛ فالعبودية هي الذل والخضوع لله سبحانه لا غير.

وفي الرد على هؤلاء يقول ابن تيمية بعد أن ذكر أن الخلة والمحبة لله تحقيق عبوديته: «وإنما يغلط مَن يغلط في هذه من حيث يتوهَّمون أن العبودية مجرد ذلٍّ وخضوع فقط، لا محبَّة معه، وأن المحبَّة فيها انبساط في الأهواء، أو إذلال لا تحتمله الربوبية؛ ولهذا ذكر عن «ذي النون»[(١)]: أنهم تكلموا عنده في مسألة المحبة، فقال: أمسكوا عن هذه المسألة، لا تسمعها النفوس فتدعيها.

وكره مَن كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية، وقال مَن قال من السلف: مَن عَبَدَ اللهَ بالحب وحده فهو زنديق، ومَن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ[(٢)]، ومَن عبده بالخوف فهو حروري[(٣)]، ومَن عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن موحِّد»[(٤)].

---

(١) ذو النون المصري: أحد مشاهير العُبَّاد الزاهدين العارفين، له أقوال كثيرة في الزهد وأحوال القلوب، واسمه: ثوبان بن إبراهيم، من أهل مصر، وهو نوبي الأصل، توفي بمصر سنة ٢٤٥هـ. الأعلام للزركلي (١٠٢/٢)، نشر دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

(٢) المرجئة: فرقة تقول: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

(٣) الحرورية: نسبة إلى «حروراء» موضع بالعراق، وهو الذي قاتل فيه عليٌّ رضي الله عنه الخوارج. فالمراد بالحرورية هنا: الغلاة الذين يكفرون المسلم إذا ارتكب كبيرة.

(٤) العبودية صـ ١١١، ١١٢.

QaradawiBooks.com

والذي دعا هذا القائل من السلف إلى اتهام مَن عبد الله بالحب وحده بالزندقة والمروق، إنما هو غلو فريق من الناس انتهى به المطاف في دعوى الحب لله أن زعم لنفسه أنه وصل إلى حال مع الله لم تعد فيها لتكاليف الشرع فائدة عنده، فقد عبد ربَّه حتى أتاه اليقين! وليس بعد اليقين شيء، فسقط عنه الأمر والنهي، وأحلَّ له شرب الخمر والمعاصي!

وهذا الصنف هو الذي قال فيه الإمام الغزالي: «هذا ممن لا شك في وجوب قتله ... وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر؛ إذ ضرره في الدين أعظم، وينفتح به باب من الإباحة لا يَنْسَدُّ. وضرر هذا فوق ضرر مَن يقول بالإباحة مطلقًا، فإنه يمنع عن الإصغاء إليه ظهور كفره، وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع! ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم، إذ خصص عموم التكليفات بمَن ليس له مثل درجته في الدين، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي بظاهره وهو بباطنه بريء عنها»[١].

على أن الغزالي إن توقف هنا في تكفير هذا الصنف المدعى، فقد استدرك عليه ذلك مَن بعده، كابن حجر الهيتمي المكي الشافعي الذي جزم بكفره؛ لأنه منكر لقطعيات الدين وضرورياته[٢].

ومن هنا عُني «ابن تيمية» في بيانه حقيقة العبودية بذكر «الضوابط» التي تقف بالعبد عند حده ولا تشرد به عن سواء الصراط. تحت عنوان «محبة الله»، يقول ابن تيمية: «وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحبُّ ما أحبَّه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله تعالى ويعادي أعداء الله تعالى. هذا هو الذي

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة صـ ٦٥، تحقيق محمود بيجو، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) انظر: تحفة المحتاج بشرح المنهاج (١١٠/٤، ١١١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

استكمل الإيمان، كما في الحديث: «**مَن أحبَّ لله وأبغض لله؛ فقد استكمل الإيمان**»(١)، وقال: «**أوثق عرا الإيمان: الحبُّ في الله، والبغض في الله**»(٢).

وفي «الصحيح»: «**ثلاث مَن كن فيه، وجد حلاوة الإيمان: مَن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومَن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومَن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى في النار**»(٣).

فهذا وافق ربَّه فيما يحبُّه وما يكرهه، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب. فإذا أحبَّ أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحقِّ لا لشيء آخر، فقد أحبهم الله لا لغيره، وقد قال تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحبُّ الله، ولا يخبر إلا بما يحبُّ الله التصديق به.

فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل. ومَن فعل هذا فقد فعل ما يحبُّه الله، فيحبه الله.

---

(١) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨١)، والطبراني (١٣٤/٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٩): حسن صحيح. عن أبي أمامة.

(٢) رواه أحمد (١٨٥٢٤)، وقال مخرجوه: حسن بشواهده. والطيالسي (٧٨٣)، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٧٩)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣٠) حسن بمجموع طرقه. عن البراء بن عازب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول ﷺ، والجهاد في سبيله؛ وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد، بل قد ثبت عنده ﷺ في «الصحيح» أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(١).

وفي «الصحيح»، أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله، واللهِ، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «**لا، يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**». فقال: فوالله، لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال: «**الآن يا عمر**»(٢).

فحقيقة المحبة لا تتمُّ إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حبِّ ما يحبُّ، وبغض ما يبغض، والله يحبُّ الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان»(٣).

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.
(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢)، عن عبد الله بن هشام.
(٣) العبودية لابن تيمية صـ ٩٣ ـ ٩٥.

QaradawiBooks.com

مزاعم المستشرقين

للمستشرقين في كلِّ جانب من جوانب الإسلام، وفي كلِّ فرع من فروع المعرفة الإسلامية دعاوٍ عريضة دفع إليها أحد أمرين أو كلاهما:

الأول: سوء الفهم لدين الإسلام ولغته التي نزل بها كتابه، وجاءت بها أحاديث نبيه، وكتبت بها مؤلفات علمائه. وهم ـ لعجمتهم وغربتهم عنها ـ لا يتذوقونها، ولا يدركون أسرار تعبيرها، وتنوع دلالاتها.

والثاني: سوء النية، والقصد إلى البحث عن عورات يشنعون بها، ونقاط ضعف يسوغون بها ما يعتقدونه من دعوى بشرية القرآن، وعدم صدق نبوة محمد ﷺ، فهم يقرؤون تراثنا ويدرسونه بروح المتعصب الباحث عن المطاعن، لا بروح الباحث عن الحق.

فهم قد كوَّنوا فكرة سابقة عن الإسلام وكتابه ونبيه ورجاله وتاريخه، وهمُّهم في دراسة تراث الإسلام أن يعثروا على أدلة توافق فكرتهم. فإن لم يجدوا الأدلة ـ كما هو الواقع ـ تصيَّدوا الشبهات. فإن أعيتهم الشبهات، لفَّقوا من المصادر الضعيفة، والأقوال المردودة، والروايات المنكرة، ما يشوِّشون به ويبهرجون.

QaradawiBooks.com

ومن ذلـك ما ذكره بعضهم عن عبادة المسـلمين وأنهـا تقوم على الخوف والخضوع وحده، ولا مجال فيها لحـب الله تعالى. وأن الله في تصور المسلمين إله قهر وجبروت، لا إله رحمة وحب.

ويزعمون أن المسـلمين لـم يعرفوا عنصر الحب فـي صلتهم بالله تعالى، إلا بعد انتشـار التصوف الذي اقتبس هـذا العنصر من مصادر أجنبية عن الإسلام(١).

ولو أنصف هـؤلاء ورجعوا إلى نصوص القرآن والسـنة، وسـيرة الرسول ﷺ، وسـير أصحابه ومَن تبعهم بإحسـان، بل لو حلَّلوا معنى العبادة لغة ـ كما فعل ابن تيمية ـ لكفُّوا عن هذا اللغو، وعلموا أن العبادة في الإسلام تعني: غاية الخضوع لله مع غاية الحب له.

والمتصوفة لم يسـتمدوا حبَّ الله تعالى من خارج الإسـلام، وإنما التفتوا إليه ونموه وعمقوه في الوقت الذي كان بعض المنتسبين إلى علم الكلام لا يتصورون قيـام حب حقيقي من الإنسـان لربه؛ لأن الحادث كيف يحب القديم؟

وما حاجة الصادقين من أهل الـذوق والوجدان الروحي «الصوفي» إلى اقتباس الحب من مصدر أجنبي عن الإسـلام، ونصوصه المحكمة في هذا الأمر أمام أعينهم بيِّنة واضحة، وكافية شافية؟

يكفي أن نذكر هنا ما كتبه الإمام «الغزالي» في بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى في كتـاب: «المحبة» من «إحيائـه»؛ لنعلم من أي

(١) ينظر على سبيل المثال: العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسهير، والصوفية في الإسلام لرينولد نيكلسون.

QaradawiBooks.com

ينبوع اســتقى الصوفية المعتدلون فكرة «الحب الإلهي»، قال: «اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبعُ الحُبِّ وثمرته؟ فلا بد أن يتقدَّم الحب، ثم بعـد ذلك يطيع مَن أحب. ويدل على إثبات الحب لله تعالـى قولـه ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائـدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقـرة: ١٦٥]، وهـو دليل علـى إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه.

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة. إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما**»[1]، وفي حديث آخر: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسـوله أحب إليه مما سـواهما**»[2]، وفي حديث آخر: «**لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»[3]، وفي رواية: «**ومن نفســه**». كيف وقد قال تعالــى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤]. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار.

وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة، فقال: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي**»[4]، ويروى أن رجلًا قال: يا رسـول الله،

---

(١) رواه أحمد (١٦١٩٤)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والطبراني في مسند الشاميين (٦٠٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦): رواه أحمد، وفي إسناده سليمان بن موسى، وقد وثقه ابن معين وأبو حاتم، وضعفه آخرون.

(٢) رواه أحمد (١٣١٥١)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن أنس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٦٩) (٤٤)، كلاهما في الإيمان، واللفظ لمسلم دون قوله: «ومن نفسه». وقال البخاري: «من والده وولده». عن أنس.

(٤) رواه الترمذي فـي المناقب (٣٧٨٩)، وقال: حسـن غريب. والحاكم فـي معرفة الصحابة =

QaradawiBooks.com

إني أحبك. فقال ﷺ: «**استعد للفقر**». فقال: إني أحب الله تعالى. فقال: «**استعد للبلاء**»[(١)]. وعن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ، إلى مصعب بن عمير مقبلًا، وعليه إهاب كبش قد تَنَطَّقَ به، فقال النبي ﷺ: «**انظروا إلى هذا الرجل الذي نَوَّرَ الله قلبه. لقد رأيتُه بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبُّ الله إلى ما ترون**»[(٢)]. وقد قال نبينا ﷺ، في دعائه: «**اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من يحبُّك، وحبَّ ما يقربني إلى حبِّك، واجعل حبَّك أحب إليَّ من الماء البارد**»[(٣)]. وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أنني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**». قال أنس: فما رأيتُ المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[(٤)]»[(٥)].

فهذه هي حقيقة العبادة في الإسلام: إنها معنى مركب من عنصرين: غاية الخضوع لله تعالى، مع غاية المحبة له سبحانه.

= (١٦٢/٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٢١١/٣)، وضعفه الألباني في فقه السيرة (٢٠)، عن ابن عباس.

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٥٠)، وقال: حسن غريب. عن عبد الله بن مغفل، بلفظ: «فأعدَّ للفقر تِجْفافًا». دون آخر الحديث.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠٨/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٧٧٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٥١٩٥)، عن عمر.

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٠)، وقال: حسن غريب. والحاكم في التفسير (٤٣٣/٢)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: عبد الله بن يزيد الدمشقي هذا قال أحمد: أحاديثه موضوعة. وضعفه الألباني في الضعيفة (١١٢٥)، عن أبي الدرداء.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩)، عن أنس.

(٥) إحياء علوم الدين (٢٩٤/٤، ٢٩٥).

QaradawiBooks.com

بل قال ابن القيم: «أصل العبادة محبَّة الله، بل إفراده بالمحبَّة، وأن يكون الحبُّ كلُّه لله، فلا يحبُّ معه سواه، وإنما يحبُّ لأجله وفيه»(١).

* * *

(١) مدارج السالكين (١١٩/١)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

مجالات العبادة في الإسلام

- مجالات العبادة كما بيَّنها الإسلام.
- من اتبع غير منهج الله؛ فقد أشرك في عبادته.
- الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة.
- صحِّح وجهتَك؛ تكن كل حياتك عبادة.
- شمول العبادة لكيان الإنسان كله.
- مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن.
- أي العبادات أفضل؟

غير مخصصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

مجالات العبادة كما بيَّنها الإسلام

عرفنا أن رسالة الإنسان في هذه الأرض أن يعبد الله الذي خلقه فسوَّاه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وعرفنا معنى العبادة، وحقيقتها في اللغة والشرع.

وبقي أن نعرف صورَ العبادة وأنواعَها ومظاهرَها ومجالاتِها. وبعبارة أخرى: علينا أن نعرف جواب هذا السؤال: بماذا نعبد الله تعالى؟

إذا كان الله قد خلقنا لنعبده، أي لنطيعه طاعة مصحوبة بأقصى الخضوع، الممزوج بغاية الحب، ففي أي شيء تكون هذه الطاعة؟ ـ طاعة الخضوع والحب ـ وفي أي مجال يجب أن تكون؟ إن الجواب عن هذا التساؤل سيبيِّن لنا حقيقة هامة، هي: شمول معنى العبادة في الإسلام، وسَعَة آفاقها. وهذا الشمول له مظهران:

الأول: شمولها للدين كله وللحياة كلها.

الثاني: شمولها لكيان الإنسان كله ظاهره وباطنه. كما سنشرح ذلك فيما يلي:

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

شمول العبادة للدين كله:

لقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك إجابة مبسوطة مفصَّلة تضمَّنتها رسالته المعروفة باسم: «العبودية» وقد بدأها بقوله: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله»(١) اهـ.

وهكذا نجد أن للعبادة ـ كما شرحها ابن تيمية ـ أفقًا رحبًا ودائرة واسعة، فهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية، من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

وهي تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي، من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

---

(١) العبودية صـ ٤٤.

QaradawiBooks.com

وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، كَبِرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

كما تشمل ما نسميه بـ«الأخلاق الربانية»، من حبِّ الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه.

وأخيرًا تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله.

بل تشمل العبادة أمرًا له أهميته وخطره في الحياة المادية للناس، ذكره ابن تيمية في موضع آخر من رسالته، وهو الأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن التي أقام الله عليها الكون قال: «فكلُّ ما أمر الله به عباده من الأسباب؛ فهو عبادة»[1].

وأكثر من ذلك ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الدين كلَّه داخل في العبادة؛ إذ الدين يتضمَّن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته فدان. أي أذللته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله. أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له. والعبادة أصل معناها: الذل أيضًا»[2].

---

(١) العبودية صـ ٧٠.

(٢) انظر: العبودية صـ ٤٧، ٤٨.

QaradawiBooks.com

وبهذا يلتقي معنى الدين بأصل معنى العبادة لغةً وشرعًا.

العبادة تسع الحياةَ كلها:

وإذا عرفنا أن الدين كلَّه عبادة كما قال الإمام ابن تيمية، وعرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته الظاهرة والباطنة، ويحدد سلوكه وعلاقاته، وَفقًا لما يهدي إليه هذا المنهج الإلهي، عرفنا أن عبادة الله تسع الحياة كلَّها، وتنظِّم أمورها قاطبة: من أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفية وأحكام شرعية، تتناول جوانب شتى من الحياة. وفي سورة واحدة ـ هي سورة البقرة ـ نجد مجموعة من التكاليف، كلها جاءت بصيغة واحدة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهذه الأمور كلُّها من القصاص، والوصية، والصيام، والقتال، مكتوبة من الله على عباده؛ أي مفروضة عليهم، فعليهم أن يعبدوا الله بالتزامها والانقياد لها.

وبهذا البيان يتَّضح لنا حقيقة هامة لا زال يجهلها الكثيرون من المسلمين؛ فبعض الناس لا يفهم من كلمة «العبادة» إذا ذُكرت إلا

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب، أو النظم والقوانين، أو العادات والتقاليد.

إن عبادة الله ليست محصورة ـ إذن ـ في الصلاة والصيام والحج، وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار، كما يتبادر إلى فَهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفَّوا الإلهية حقَّها، وقاموا بواجب العبودية لله كاملًا.

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام ـ على منزلتها وأهميتها ـ إنما هي جزء من العبادة لله، وليست هي كل العبادة التي يريدها الله من عباده. والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة؛ إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعًا.

العبادة انقياد لمنهج الله وشرعه:

إن مقتضى عبادة الإنسان لله وحده: أن يخضع أموره كلها لما يحبه تعالى ويرضاه، من الاعتقادات والأقوال والأعمال، وأن يكيّف حياته وسلوكه وفقًا لهداية الله وشرعه. فإذا أمره الله تعالى أو نهاه، أو أحل له أو حرَّم عليه كان موقفه في ذلك كله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ففرق ما بين المؤمن وغيره: أن المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربِّه، خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله.

QaradawiBooks.com

ليس المؤمن «سائبًا» يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق؛ إنما هو «ملتزم» بعهد يجب أن يفي به، وميثاق يجب أن يحترمه، منهج يجب أن يتبعه. وهذا التزام منطقي ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه.

مقتضى عقد الإيمان: أن يسلم زمام حياته إلى الله، ليقودها رسوله الصادق، ويهديه الوحي المعصوم.

مقتضى عقد الإيمان: أن يقول الرب: أمرتُ ونهيتُ. ويقول العبد: سمعتُ وأطعتُ.

مقتضى عقد الإيمان: أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ويقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

ليس بعابد لله إذن مَن قال: أصلي وأصوم وأحج، ولكني حرٌّ في أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر، أو أكل الربا، أو رفض ما لا يروقني من أحكام الشريعة، فأحكم فيه بغير ما أنزل الله!

ليس بعابد لله من أدَّى الشعائر، ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده في نفسه أو أهله، كالرجل الذي يلبس الحرير الخالص ويتحلَّى بالذهب، ويتشبَّه بالنساء، والمرأة التي تلبس ما يبرز مفاتنها، ولا يغطي جسدها، ولا تضرب بخمارها على جيبها.

QaradawiBooks.com

ليس بعابد لله مَن ظنَّ أن عبوديته لله لا تعدو جدران المســجد، فإنِ انطلقَ في ميادين الحياة المتشــعبة، فهو عبد نفسه فقط، وبعبارة أخرى: هو حر في اتباع هواها، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين!

❋ ❋ ❋

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

مَن اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته

إن من العبادة التي يغفلها كثير من الناس: الخضوع لشرع الله، والانقياد لأحكامه التي أحلَّ بها الحلال، وحرَّم بها الحرام، وفرض الفرائض، وحدَّ الحدود.

فمَن أدَّى الشعائر وصلَّى وصام وحجَّ واعتمر، ولكنه رضي أن يحتكم في شؤون حياته الخاصة والعامة، أو في شؤون المجتمع والدولة، إلى غير شرع الله وحكمه؛ فقد عبد غير الله، وأعطى غيره ما هو من خالص حقِّه سبحانه.

إن الله وحده هو المشرع الحاكم لخلقه؛ لأن الكون كلَّه مملكته، والناس جميعًا عباده، وهو وحده الذي له أن يأمر وأن ينهى، وأن يقول: هذا حلال، وهذا حرام. بمقتضى ربوبيته وملكه وألوهيته للناس، فهو ربُّ الناس، ملك الناس، إله الناس.

فمَن ادَّعى من الخلق أن له أن يُشَرِّع ما شاء، أمرًا ونهيًا وتحليلًا وتحريمًا، بدون إذن من الله، فقد تجاوز حدَّه، وعدا طوره، وجعل نفسه ربًّا أو إلهًا من حيث يدري أو لا يدري!

QaradawiBooks.com

ومن أقرَّ له بهذا الحقِّ، وانقاد لتشريعه ونظامه، وخضع لمذهبه وقانونه، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه؛ فقد اتخذه ربًّا، وعبده مع الله، أو من دون الله، ودخل في زمرة المشركين من حيث يشعر أو لا يشعر!

إن القرآن الكريم دمغ أهل الكتاب بالشرك، ورماهم بأنهم عبدوا أحبارهم ورهبانهم، واتخذوهم أربابًا من دون الله، وذلك حين أطاعوهم واتبعوهم فيما شرعوا لهم مما لم يأذن به الله.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد فسَّر هذه الآية أعلم الناس بمراد ربِّه ﷻ من كلامه، وهو الرسول ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أوحى الله إليه هذا القرآن ليبينه للناس ولعلهم يتفكرون، فلنصغِ إلى التفسير النبوي الكريم لهذه الآية الكريمة: روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير ـ من طرق ـ عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ، فَرَّ إلى الشام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ، على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة ـ وكان رئيسًا في قومه، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ـ فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. قال: فقلتُ: إنهم

QaradawiBooks.com

لم يعبدوهم! فقال: «**بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم؛ فذلك عبادتهم إياهم**»(١).

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حلَّلوا وحرَّموا. وقال السُّدِّي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

قال: ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾، أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلَّله فهو الحلال، وما شرعه اتُّبع، وما حكم به نفذ ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١](٢) اهـ.

* * *

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب. والطبري في تفسيره (٢١٠/١٤)، والطبراني (٩٢/١٧)، والبيهقي في آداب القاضي (١١٦/١٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣٥/٤)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة

وأكثر من ذلك: أن الإسلام قد فسح مجال العبادة ووسَّع دائرتها، بحيث شملت أعمالًا كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة وقُربة إلى الله.

إن كلَّ عمل اجتماعي نافع يعدّه الإسلام عبادة من أفضل العبادات ما دام قصد فاعله الخير، لا تصيُّد الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس. كلُّ عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفِّف به كربة مكروب، أو يضمِّد به جراح منكوب، أو يسدُّ به رمق محروم، أو يشدُّ به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفِّف ذي عيال، أو يهدي حائرًا، أو يعلِّم جاهلًا، أو يؤوي غريبًا، أو يدفع شرًّا عن مخلوق أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعًا إلى ذي كبد رطبة: فهو عبادة وقربة إلى الله؛ إذا صحَّت فيه النية.

أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمن، وشُعَب الإيمان، وموجبات المثوبة عند الله. فليست الصلاة أو الصيام أو الذكر والدعاء هي التي تكتب لك عبادة في يومك وتستوجب بها الأجر عند ربك. كلا، إنك تستطيع في اليوم الواحد أن تضيف إلى ميزان عبادتك

QaradawiBooks.com

وحسناتك أشياء كثيرة، لها ثقلها وقيمتها في تقدير الحقِّ تبارك وتعالى، وإن بدت عندك هينة خفيفة في الميزان.

من ذلك ما قاله رسول الإسلام ﷺ عن الإصلاح بين المتخاصمين؛ قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**». قالوا: بلى. قال: «**إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»(١)، وفي رواية: «**لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(٢).

ويقول عليه السلام، في عيادة المريض، وما لها من مكانة عند الله لما فيها من تخفيف ومواساة: «**مَن عاد مريضًا ناداه مناد من السماء: طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا**»(٣)، «**مَن عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس، فإذا جلس اغتمس فيها**»(٤).

ويروي لنا النبي ﷺ مشهدًا من المشاهد البديعة العميقة يوم القيامة في صورة حوار بين الله وعباده: «**إن الله عز وجل يقول يوم القيامة:**

---

(١) رواه أحمد (٢٧٥٠٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٩١٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨١٤)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣) حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

(٣) رواه أحمد (٨٥٣٦)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٤٥)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٦١)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٨٤)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (١٤٢٦٠)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٥٢٢)، وابن حبان (٢٩٥٦)، والحاكم (٣٥٠/١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجنائز، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٦٧): رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح. عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني! قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[١].

ويروي الشيخان، عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخَّره فشكر الله له، فغفر له**»[٢]، وفي رواية مسلم: «**مرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق، فقال: والله، لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم. فأُدخِلَ الجنة**»[٣].

وعن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «**عرضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها: الأذى يُماط عن الطريق**»[٤].

والإسلام لا يستحبُّ هذه الأعمال ويحمدها فحسب، بل هو يدعو إليها، ويحث عليها، ويأمر بها، ويجعلها من الواجبات اليومية على المسلم، التي تُقربه إلى الجنة، وتُبعده عن النار، وهو تارة يسميها: «صدقة»، وطورًا يسمِّيها: «صلاة»، وهي على كلِّ حال عبادة وقُربة إلى الله الكريم.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩)، عن أبي هريرة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٥٢)، ومسلم في الإمارة (١٩١٤)، عن أبي هريرة.
(٣) رواه مسلم في البر والصلة (١٩١٤)، عن أبي هريرة.
(٤) رواه مسلم في المساجد (٥٥٣)، وأحمد (٢١٥٤٩)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «**الإيمان بالله**». قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل؟ قال: «**أن ترضخ مما خَوَّلك الله**». أي تعطي مما ملكَك الله. قلت: يا نبي الله، فإن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ؟ قال: «**يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر**». قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: «**فليعن الأخرق**» هو الجاهل الذي لا يعرف صنعة، يعينه على تعلم صنعة. قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: «**فليعن مظلومًا**». قلت: يا نبي الله، أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مظلومًا؟! قال: «**ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟! ليمسك أذاه عن الناس**». قلت: يا رسول الله، أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة؟ قال: «**ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذتْ بيده حتى تدخله الجنة**»[1].

بمثل هذه الروح يستحث نبي الإسلام كلَّ مسلم ـ وإن يكن محدود الاستطاعة ـ أن يؤدِّي هذه العبادة أو «الضريبة» الاجتماعية. ولم يجعل الإسلام هذه العبادة موقوتة بزمان أو مرهونة بمكان، كما لم يجعل هذه العبادة أو الضريبة مالية فينفرد بها الأغنياء، ولا بدنية فيختص بها الأقوياء، ولا ثقافية فيتميز بها المتعلمون، ولكنه جعلها ضريبة إنسانية عامة، يؤديها كل إنسان على قدر طاقته، يشترك فيها الفقير والغني، والضعيف والقوي، والأمي والمتعلم.

(١) رواه الطبراني (٢/١٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٧٤٤): رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات. عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

وإننا لنقرأ أحاديث النبي الكريم في هذا الباب، فنرى أنه لم يكتفِ بفرض هذه العبادة العامة على الإنسان من حيث هو إنسان فحسب، بل يشتدُّ في طلبها، فيفرضها على كل ميسم من مياسمه[1]، أو كل مفصل من مفاصله. فيروي أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ: «**كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكلُّ خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»[2].

ويروي ابن عباس نحو هذا، عن الرسول ﷺ إذ يقول: «**على كلِّ ميسم من الإنسان صلاة كل يوم**»! فقال رجل من القوم: هذا من أشدِّ ما أنبأتنا به! قال: «**أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك القَذَر من الطريق صلاة، وكلُّ خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة**»[3].

ونحو ذلك ما رواه بريدة، عنه ﷺ قال: «**في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصلٍ، فعليه أن يتصدَّق عن كلِّ مفصل منها صدقة**». قالوا: فمَن يطيق ذلك، يا رسول الله؟ ـ ظنوها صدقة مالية ـ قال: «**النخامة في المسجد تدفنها، والشيء تنحِّيه عن الطريق ...**»[4].

---

(١) أي كل عضو من أعضائه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (و. س. م).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن خزيمة في الإمامة (١٤٩٧)، عن ابن عباس.

(٤) رواه أحمد (٢٢٩٩٨)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٥٢٤٢)، وابن خزيمة (١٢٢٦)، وابن حبان (١٦٤٢)، كلاهما في الصلاة.

QaradawiBooks.com

وقد وردت أحاديث عديدة تجعل تبسُّم المرء في وجه أخيه صدقة، وإسماع الأصم، وهداية الأعمى، وإرشاد الحيران، ودلالة المستدلِّ على حاجته، والسعي بشدَّة الساقين مع اللهفان المستغيث، والحمل بشدَّة الذراعين مع الضعيف. وما يدور في هذا الفلك من الأعمال، عدَّه رسول الإسلام عبادة كريمة، وصدقة طيبة.

وبهذا يعيش المسلم في مجتمعه ينبوعًا يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يفعل الخير ويدعو إليه، ويبذل المعروف ويدل عليه، فهو مفتاح للخير، مغلاق للشر، كما حثه النبي الكريم(١).

وأفق الخير والنفع الذي يعيش المسلم في دائرته ليس خاصًّا بالإنسان وحده، وإنما يتَّسع فيشمل كلَّ كائن حيٍّ في الوجود، حتى الطير والحيوان، فكلُّ إحسان يسديه إليه، أو أذى يدفعه عنه عبادة تقرِّبه إلى الله، وتوجب له رضاه.

وقد حدث النبي ﷺ، أصحابه عن رجل وجد كلبًا يلهث، يأكل الثرى من شدة العطش، فنبضت عروق الرحمة في قلبه، وعَزَّ عليه أن يَدَع هذا الكلب في حرقه وشدة ظمئه، فذهب به إلى بئر، فنزع خفَّه، وملأه منها، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له(٢). سمع الصحابة هذه القصة، فقالوا

---

(١) كما في حديث: «طوبى لعبد جعله الله مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر». رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٣٨)، وأبو يعلى (٧٥٢٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤١٠٨)، عن سهل بن سعد.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

في عجب: أَئنَّ لنا في البهائم لأجرًا يا رسول الله؟ قال: «**في كلِّ كبد رطبة** ـ أي فيها حياة ـ **أجر**»(١).

وفي هذه الدائرة الرحبة من أعمال البرِّ التي شملت الإنسان وغير الإنسان يجد المهتمون بالعبادة، الراغبون في الإكثار منها، والمهتمون بخدمة المجتمع والإحسان إلى الخلق أيضًا ما يشبع نهمهم، ويتجاوب مع أشواقهم، بدل أن يحصروا في عبادات «الصوامع» وحدها وينقطعوا عن ركب الحياة.

عمل الإنسان في معاشه عبادة بشروط:

وأعجب من هذا أن النبي ﷺ يجعل الأعمال الدنيوية التي يقوم بها الإنسان لمعيشته، والسعي على نفسه وأهله، من أبواب العبادة والقربات إلى الله، وإن لم يتعدَّ نفعها دائرته الشخصية والأسرية؛ فالزارع في حقله، والعامل في مصنعه، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، وكلُّ ذي حرفة في حرفته، يستطيع أن يجعل من عمله المعاشي صلاةً وجهادًا في سبيل الله، إذا التزم فيه الشروط الآتية:

١ ـ أن يكون العمل مشروعًا في نظر الإسلام. أما الأعمال التي ينكرها الدين، كالعمل في الربا والحانات، والمراقص ونحوها، فلا تكون ولن تكون عبادة أبدًا، «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢١٩٠)، ومسلم في السلام (٤١٦٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

٢ ـ أن تصحبه النية الصالحة: نية المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض، كما أمر الله.

٣ ـ أن يؤدِّي العمل بإتقان وإحسان؛ ففي الحديث: «**إن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء**»(١)، «**إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»(٢).

٤ ـ أن يلتزم فيه حدود الله، فلا يظلم ولا يخون، ولا يغش ولا يجور على حقِّ غيره.

٥ ـ ألا يشغله عمله الدنيوي عن واجباته الدينية، كما قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩]، ﴿**رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ**﴾ [النور: ٣٧].

إذا راعى المسلم هذه الأمور كان في سعيه عابدًا وإن لم يكن في محراب، مبتهلًا إلى الله وإن لم يكن في صومعة.

عن كعب بن عجرة قال: مَرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ، من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟! ـ أي في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وكان أفضل العبادات عندهم ـ فقال: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن**

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان»(١).

ويخلع القرآن على السعي في مناكب الأرض، لطلب الرزق تسمية جميلة موحية برضا الله، فيسمي ذلك: «الابتغاء من فضل الله»، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ويقرن المسافرين للرزق بالمجاهدين لله في سياق واحد إذ يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

والنبي ﷺ يقول في فضل الزرع والغرس وما يجلب لصاحبه من مثوبة عند الله: «**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»(٢)، ويعلن أن: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء**»(٣).

وفي ظلِّ هذه التعاليم لا يجوز للمسلم ـ ولا يتصوَّر منه ـ أن يكون عالة على غيره، أو عبئًا على المجتمع: يأخذ من الحياة ولا يعطيها، ويعتزل الناس والحياة باسم التفرغ للعبادة أو التبتل. بل يندفع بغير وازع

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩/١٩)، وفي الأوسط (٦٨٣٥)، وفي الصغير (٩٤٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٥/٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧٠٩): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال: حديث حسن. والدارمي (٢٥٨١)، والحاكم (٦/٢)، شاهدا وحكم عليه بالإرسال، والدارقطني (٢٨١٣)، أربعتهم في البيوع، وحسنه ابن القطان في الوهم والإيهام (٤٧٨/٤ ـ ٤٧٩)، وقال الذهبي في الميزان (٤١٣/٣): جيد الإسناد صحيح المعنى، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٧٨٢): صحيح لغيره. عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

خارجي إلى كل ميادين الحياة منتجًا متقنًا متفوقًا، وهو يوقن أنه في صلاة وجهاد!

حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة:

على أن الأروع مما تقدَّم كله أن تشمل العبادة الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية؛ فالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته، وما كان من هذا القبيل يُدخله الإسلام في دائرة العبادة الفسيحة، بشرط واحد هو «النية». فالنية هي المادة السحرية العجيبة التي تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها طاعات وقربات.

وأوضح شاهد على ذلك ما قاله النبي ﷺ لأصحابه: «**وفي بُضْعِ**[1] **أحدكم صدقة**». قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتُم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟**». قالوا: نعم. قال: «**كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[2]! قال العلماء: وهذا من تمام رحمة الله على عباده، يثيبهم على ما فيه قضاء شهواتهم إذا نووا أداء حق الزوجة وإحصان الفرج، ولله الحمد.

* * *

(١) البضع: الجماع، أو الفرج نفسه. انظر: لسان العرب مادة (ب. ض. ع).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

صحِّح وجهتَك؛ تكن كل حياتك عبادة

بحسب المسلم أن ينظر إلى نفسه على أنه خليفة لله في الأرض، مهمته أن ينفذ أمره، ويقيم حدوده ويعلي كلمته، ويقوم بواجب العبودية له تعالى، بحسبه ذلك لتصطبغ أعماله كلها بصبغة ربانية، وليكون ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وحركات وسكنات عبادة لله رب العالمين.

وهذا هو الموافق لما تعطيه الآية الكريمة من معنى كبير: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فأين هي العبادة التي جعلها الله غاية لخلقهم إذا حصرنا معنى العبادة في تلك الشعائر التي لا تستغرق إلا دقائق معدودات من يوم الإنسان وليلته. أما جُلُّ الوقت ففي معترك الحياة، ويعجبني ما قال هنا الأستاذ «محمد الغزالي»: «إن الإسلام ليس أفعالًا تعد على الأصابع دون زيادة أو نقص. كلا، إنه صلاحية الإنسان للمسير في الحياة وهو يؤدِّي رسالة محددة.

فالمهندس الذي يصنع آلة ما، لا يعنيه كم تنتج من السلع والأدوات، وإنما يعنيه أن تكون أجهزتها مستعدة على الدوام لإنجاز ما تُكلَّف به.

فصلاحية الطيارة للانطلاق، وصلاحية المدفع للقذف، وصلاحية القلم للكتابة؛ هذه الصلاحيات هي مناط الحكم على قيمة الشيء، فإذا اطمأننا إلى وجودها قبلناها ورجونا ثمرتها.

QaradawiBooks.com

كذلك الإنسان، إن الإسلام يريد أن تستقيم أجهزته النفسية أولًا، فإذا توفرت لها صلاحيتها المنشودة، بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فكلُّ عمل تتعرض له في الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة لله. إن آلة سكِّ النقود يدخلها المعدن الغفل ـ الخام ـ فيخرج منها عملة مالية غالية الثمن، تحمل من الألوان والأختام والشارات ما يجعلها شيئًا آخر. كذلك المسلم يعالج ما يعالج من شؤون الدنيا، فيضفي عليه من طبيعة إيمانه وسناء وجهته ما يجعل أي عمل يقبل عليه يتحوَّل في يده إلى عبادة غالية القدر.

وبهذه الصلاحية النفسية رفض الله دعوى أصحاب الدعاوى الذين اغتروا، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

في شؤون الحياة ليس للأعمال الصالحة حصر تنتهي عنده ولا رسم تخرج فيه. إنما هو إسلام الوجه لله، وإصلاح العمل، والبلوغ به حدَّ الكمال المطلوب»[(١)].

آثار هذا الشمول في النفس والحياة:

إن شمول معنى العبادة في الإسلام ـ كما شرحناه ـ له آثار مباركة في النفس والحياة يحسُّها الإنسان في ذاته، ويلمسها في غيره، ويرى ظلالها في الحياة من حوله. وأبرز هذه الآثار وأعمقها أمران:

الأول: أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية، ويجعله مشدودًا إلى الله في كلِّ ما يؤدِّيه للحياة، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع،

(١) هذا ديننا للشيخ محمد الغزالي صـ ١٠٦، ١٠٧، نشر إدارة إحياء التراث، قطر.

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة

وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كلِّ عمل نافع، وكلِّ إنتاج صالح، وكلِّ ما ييسِّر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها. فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله ﷻ. كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه، ما دام يقدمه هدية إلى ربِّه سبحانه، ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

والثاني: أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلِّها، فهو يُرضي ربًّا واحدًا، في كلِّ ما يأتي ويَدَع، ويتَّجه إلى هذا الربِّ بسعيه كلِّه: الديني والدنيوي، ولا انقسام ولا صراع ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته.

إنه ليس ممن يعبدون الله في الليل، ويعبدون «المجتمع» في النهار.

وليس ممن يعبدون الله في المسجد، ويعبدون «الدنيا» أو «المال» في ساحة الحياة.

وليس ممن يعبدون الله في يوم من أيام الأسبوع ثم يعبدون ما سواه ومَن سواه سائر أيام الأسبوع.

كلا، إنه يعبد الله وحده حيثما كان، وكيفما كان، وفي أي عمل كان. فوجه الله لا يفارقه في عمل ولا حال ولا زمان، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وبهذا ينصرف همُّه كلُّه إلى الله، ويجتمع قلبه كلُّه على الله، ولا يتوزَّع شمل حياته وفكره وإرادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات، والتيارات والانقسامات.

إن حياته كلَّها وحدة لا تتجزَّأ؛ منهجه فيها عبادة الله، وغايته رضوان الله، ودليله وحي الله.

QaradawiBooks.com

يقول المسلم النمساوي الأستاذ محمد أسد في بيان مزية العبادة في الإسلام: «يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في كلِّ دين آخر. إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص، كالصلاة والصيام مثلًا، ولكنها تتناول «كلَّ» حياة الإنسان العملية أيضًا؛ ولذا كانت الغاية من حياتنا على العموم «عبادة الله»، فيلزمنا حينئذ ـ ضرورة ـ أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلِّها على أنها تبعة أدبية، متعددة النواحي.

وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلَّها ـ حتى تلك التي تظهر تافهة ـ على أنها عبادات، وأن نأتيها بوعي، وعلى أنها تؤلف جزءًا من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله. تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع؟

إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل. إنه يعلمنا أولًا: أن عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى الحياة نفسها. ويعلمنا ثانيًا: أن بلوغ هذا المقصد يظلُّ مستحيلًا ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحية، وحياتنا المادية. يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكوِّنا «كلًّا» واحدًا متسقًا. إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلَّى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه، هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة، ذلك أن الإسلام ـ على أنه تعليم ـ لا يكفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين

QaradawiBooks.com

المرء وخالقه فقط، ولكن يعرض أيضًا ـ بمثل هذا التوكيد على الأقل ـ للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية.

إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنهـا صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة، التي هي آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معنى مـا، ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسـها. والله تعالى «وحدة» لا في جوهره فحسب، بل في الغاية إليه أيضًا؛ من أجل ذلك كان خلقه وحدة، ربما في جوهره، إلا أنه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد.

وعبادة الله في أوسع معانيها ـ كما شرحنا آنفًا ـ تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسـانية. هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال ـ فـي إطار حياته الدنيويـة الفردية ـ ومن بين سـائر النظم الدينية نرى الإسـلام ـ وحده ـ يعلن أن الكمـال الفردي ممكن في الحياة الدنيا. إن الإسـلام لا يؤجِّـل هذا الكمال إلـى ما بعد إماتة الشهوات «الجسدية»، ولا هو يعدنا بسلسـلة متلاحقة الحلقات من «تناسـخ الأرواح» علـى مراتـب متدرجـة ـ كما هـي الحال في الهندوكية ـ ولا هو يوافـق البوذية التي تقول بـأن الكمال والنجاة لا يتمَّان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانقسام علاقاتها الشعورية من العالم. كلا، إن الإسـلام يؤكد في إعلانه أن الإنسـان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأن يسـتفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو»[1].

---

(١) الإسـلام على مفترق الطرق صـ ٢٣ ـ ٢٥، ترجمة د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ١٩٦٥م.

QaradawiBooks.com

سؤالان وجوابهما:

يعنُّ لبعض الناس هنا سؤال يحتاج إلى جواب، وهو: إذا كانت العبادة تشمل الدين كله ـ كما قال ابن تيمية ـ فلماذا عطف القرآن عليها غيرها من أوامر الدين ونواهيه، في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

فهذه الأشياء المعطوفة على العبادة تدلُّ على أنها غيرها، فإن العطف يقتضي المغايرة، كما هو معلوم. فما تفسير ذلك؟

وسؤال آخر يرد هنا أيضًا، وهو: إذا كان الدين كله عبادة، فلماذا قسّمَ الفقهاء أحكام الشرع إلى «عبادات» و«معاملات»؟

أما السؤال الأول: فجوابه يسير، وهو: أن عطف الخاص على العام مألوف في العربية، ومأنوس لدى البُلغاء، وذلك للتنبيه على مزيَّة في الخاص اقتضت إفراده بالذكر، كأنه جنس مستقل، مع دخوله في أفراد العام. كما أن عكسه أيضًا معروف، وهو عطف العام على الخاص.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، فنصَّ على إيتاء ذي القربى، مع أنه يدخل في الإحسان. وكذلك خصَّ الفحشاء بالذكر مع دخولها في عموم المنكر، وكذلك البغي. وأمثلة هذا في القرآن كثيرة.

QaradawiBooks.com

وأما السؤال الثاني: فجوابه: أن تقسيم الفقهاء الأحكام الشرعية العملية إلى عبادات ومعاملات، إنما هو اصطلاح منهم، أرادوا به التفريق بين نوعين من الأحكام:

النوع الأول: يضمُّ الصور والكيفيات المحددة التي شرعها الله تعالى، ليتقرَّب عباده إليه بأدائها؛ فالشارع هو المنشئ لها والآمر بها، وليس للعباد فيها إلا التلقي والتنفيذ، وتلك هي الشعائر التعبدية التي لا يخلو دين منها، وبها يمتحن الله عباده، وبها تظهر حقيقة العبودية، حيث لا يبدو للعباد فيها حظٌّ شخصي لأول وهلة.

أما النوع الثاني: فهو يشمل الأحكام التي تنظِّم علاقات الناس بعضهم ببعض في حياتهم ومعايشهم ومبادلاتهم؛ فهذه العلاقات والنشاطات لم ينشئها الشرع، بل هي موجودة قبله. ومهمة الشارع هنا: أن يُعَدِّلها، ويهذِّبها ويقرُّ الصالح منها والنافع، ويمنع الفاسد والضار.

وبهذا يتبيَّن لنا أن موقف الشرع من النوع الأول الذي سمَّاه الفقهاء: «العبادات»، غير موقفه من النوع الثاني الذي سمَّوه: «المعاملات». فهو في الأولى منشئ مخترع، وليس من حقِّ غيره أن ينشئ أو يبتدع صورًا للعبادة من عند نفسه لم يأذن بها الله. وفيه جاءت بذلك الأحاديث: «**مَن أحدث في ديننا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ**»[1]، «**وكلُّ بدعة ضلالة**»[2].

وهو في الثانية مصلح لما أنشأه الناس وأوجدوه فعلًا.

وبناءً على هذا قرروا: أن الأصل في العبادات الحظر والمنع؛ حتى

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.
(٢) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد (١٤٣٣٤)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

لا يشرع الناس في الدين ما لم يأذن به الله. أما في العادات والمعاملات فالأصل فيها الإباحة[1].

وهناك فائدة أخرى لهذا التقسيم، نبَّه عليها الإمام الشاطبي وغيره، وهي: أن الأصل في جانب العبادات هو التعبد، دون الالتفات إلى المعاني والمقاصد، أما العادات أو المعاملات فالأصل فيها الالتفات إلى ما وراءها من المعاني والحكم والمقاصد.

فإذا أمر الشارع مثلًا بذبح الهدي في الحجِّ؛ فهذا أمر تعبُّدي لا يجوز تركه والتصدق بثمن الهدي؛ لما في ذلك من تعطيل هذه العبادة الشعائرية.

ولكن إذا حثَّ الشارع على رباط الخيل واقتنائها والاهتمام بها لقتال الأعداء، ثم تغير الزمن وأصبح الناس يركبون للحرب الدبابات والمدرعات بدل الخيل، أصبح الاهتمام بهذه الأسلحة الجديدة هو التنفيذ العملي لما جاء من حثٍّ على رباط الخيل؛ بناءً على رعاية المعاني والمقاصد التي تُفهم من وراء ما جاءت به نصوص الشرع هنا.

فهذا هو سرُّ تقسيم الفقهاء أحكام الفقه إلى عبادات ومعاملات، وهذا هو أثره، وإن كان التزام أحكام الشرع في كلِّ المجالات هو عبادة بالمعنى الشامل الذي بيَّناه من قبل.

غير أن هذا التقسيم الاصطلاحي الفني الذي هو طابع التأليف العلمي أَنشَأَ فيما بعد ـ كما ذكر الشهيد سيد قطب ـ آثارًا سيئة في التصور، تبعته ـ بعد فترة ـ آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلِّها. إذ جعل

(١) انظر كتابنا: الحلال والحرام صـ ٢٣، قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

QaradawiBooks.com

يترسَّب في تصورات الناس: أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات»، بينما أخذت الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله «فقه المعاملات».

إن ذلك التقسيم ـ مع مرور الزمن ـ جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدَّوا نشاط «العبادات» وفق أحكام الإسلام، بينما هم يزاولون كلَّ نشاط «المعاملات» وَفق منهج آخر، لا يتلقَّونه من الله، ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله!

وهذا وهم كبير؛ فالإسلام وحدة لا تنفصم، وكلُّ مَن يفصمه إلى شطرين ـ على هذا النحو ـ فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر: يخرج من هذا الدين[1].

ولا ريب أن هذا الانحراف الذي وقع في تصور كثير من المسلمين لحقيقة الإسلام، وحقيقة العبادة فيه، لم يكن مقصودًا للفقهاء، ولا هم مسؤولون عنه، فإن ما صنعوه من التقسيم هو مقتضى التصنيف والتأليف العلمي كما ذكر المرحوم سيد قطب نفسه، ولم يستطع مَن ألَّف في الفقه في عصرنا أن يستغني عن هذا التقسيم أيضًا.

على أن هذا التقسيم إنما يأتي إذا كتبوا في الفقه، فإذا كتبوا في غيره وجدنا مثل ابن تيمية يصرح بأن العبادة تشمل الدين كلَّه، كما ذكرنا. ووجدنا مثل ابن القيم يدخل الدين كلَّه أيضًا في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كما سيأتي قريبًا في بيانه لمراتب العبودية الخمسين.

* * *

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته صـ ١٢٩، ١٣٠، ط٢، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

شمول العبادة لكيان الإنسان كله

هذا هو المظهر الثاني لشمول العبادة في الإسلام. فكما شملت العبادة في الإسلام الحياة كلَّها، استوعبت كذلك كيان الإنسان كله.

فالمسلم يعبد الله بالفكر، ويعبد الله بالقلب، ويعبد الله باللسان، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس، ويعبد الله ببدنه كلِّه، ويعبد الله ببذل المال، ويعبده ببذل النفس، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن.

المسلم يتعبَّد لله بالفكر، عن طريق التأمل في النفس والآفاق، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، والتدبر لآيات الله المنزلة وما فيها من هدى وحكمة، والنظر في مصاير الأمم وأحداث التاريخ وما فيها من عظة وعبرة. فهذا كلُّه مما يتقرَّب به المسلم إلى الله الذي أنزل كتابه إلى الناس، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ودعاهم في محكم كتابه إلى إعمال العقل نظرًا وتفكرًا وتعلمًا: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا

QaradawiBooks.com

﴿خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]. وقد ورد عن ابن عباس: **تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة**[١].

وقال الرسول ﷺ: «**مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**»[٢].

وقال الشافعي رضي الله عنه: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»[٣]، ونصَّ على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه. وقال وهب: كنتُ بين يدي مالك رضي الله عنه، فوضعت ألواحي، وقمتُ أصلي، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضل من الذي قمتَ عنه[٤].

ويتعبَّد المسلم لله بالقلب عن طريق العواطف الربانية والمشاعر الروحية، مثل: حب الله، وخشيته، والرجاء في رحمته، والخوف من عقابه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والشكر لنعمائه، والحياء منه، والتوكُّل عليه، والإخلاص له، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ويتعبَّد المسلم لله باللسان عن طريق الذكر والتلاوة والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير؛ جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ

---

(١) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٤٢).

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) مسند الشافعي (١٨/١)، ترتيب السندي.

(٤) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١١٦). وانظر: مدارج السالكين (٤٤٠/٢).

QaradawiBooks.com

﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**اقـرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»(١)، وقال رجل للنبي ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فمرني بأمر أتشبث به. فقال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(٢).

والذكر نوعان: ذكر ثناء مثل: «سـبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وذكر دعاء مثـل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣](٣).

وقد جاء من النوعين عن النبي ﷺ أدعية وأذكار كثيرة، في مختلف المناسبات والأوقات، تجعل المسلم موصول القلب بربِّه، ورطب اللسان بذكره تعالى: عند النوم واليقظة، وعند الإصباح والإمسـاء، وعند الأكل والشرب، وعند السـفر والأوبة، عند لبس الثوب، وركوب الدابة، وهبة الريح، ونزول المطـر. وفي كلِّ حال وكلِّ حين. وقـد ألَّف العلماء في ذلك كتبًا شتى(٤).

والذكر المحمود هو ما اجتمع فيه القلب واللسان، ولا خير في ذكر اللسان إذا كان القلب ناسيًا غافلًا.

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٩٣)، عن أبي أمامة.

(٢) رواه أحمد (١٧٦٨٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، والحاكم في الدعاء (٤٩٥/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن بسر.

(٣) ورد على لسان آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة.

(٤) من أفضلها: الأذكار للإمام النووي، والكلم الطيب لشيخ الإسلام ابن تيمية، والوابل الصيب للإمام ابن القيم.

QaradawiBooks.com

ويتعبد المسلم لله ببدنه كلِّه: إما كفًّا وامتناعًا عن ملذات البدن وشهواته، كما في الصيام. وإما حركة وعملًا ونشاطًا، كما في الصلاة التي يتحرَّك فيها البدن كلُّه: اللسان والأعضاء، مع العقل والقلب.

ويتعبد المسلم لله ببذل المال الذي هو شقيق الروح، كما في الزكاة والصدقات، وهذا ما يسميه الفقهاء: «العبادة المالية»، كما سمَّوا الصلاة والصوم: «العبادة البدنية». ويعنون بكلمة «البدن» هنا: كيان الإنسان كله، لا الجسم المادي وحده؛ فإن النية شرط لكل عبادة، ومحلها القلب بالإجماع، وعبادة المجنون والسكران ونحوها لا تصح ولا تقبل، ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ويتعبَّد المسلم لله ببذل مهجته والتضحية بنفسه وبمصالحه المادية العاجلة، ابتغاء مرضاة الله، كما في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ويتعبد المسلم لله بمفارقة الأهل والوطن والضرب في الأرض: إما للحج والعمرة، وإما للهجرة إلى أرضٍ يستطيع فيها المسلم إقامة دينه، وإما للجهاد في سبيل الله، وإما لطلب علم نافع، أو نحو ذلك، مما يبذل فيه المسلم ـ عادة ـ راحة بدنه وحُرَّ ماله؛ ولهذا نعتبر هذا النوع من العبادات «بدنيًّا وماليًّا» معًا حسب التقسيم الفقهي المتعارف.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن

وقد قرأتُ لابن القيم رضي الله عنه تفصيلًا حسنًا في مراتب العبودية لله، وحظ القلب واللسان والجوارح والحواس كلِّها من هذه العبودية الشاملة، رأيتُ أن أنقله هنا ـ ببعض تصرُّف ـ من كتابه القيم النافع: «مدارج السالكين، شرح منازل السائرين، إلى مقامات ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾» [الفاتحة: ٥]. قال: «ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، مَن كمَّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروم، ومباح. وهي لكل واحد من: القلب، واللسان، والجوارح.

حظ القلب من العبودية لله:

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وهذه قدر زائد على الإخلاص؛ فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

QaradawiBooks.com

ونية العبادة لها مرتبتان: إحداهما: تمييز العبادة عن العادة. والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين. وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه، فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية.

ومن هذا أيضًا اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على مَن غلب عليه الوسواس في صلاته؛ فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في «إحيائه»، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء ـ وهو القلب ـ قائمًا بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهي نوعان: كفر، ومعصية. فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية: نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور

QaradawiBooks.com

بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدُّ تحريمًا من الزنى، وشرب الخمر، وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها؛ وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها، فوظيفة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقِّه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرمات وتمنيها. وتتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى؛ فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزًا بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: هذا القاتل، يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1]. فَنَزَّله منزلة القاتل ـ لحرصه على قتل صاحبه ـ في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨)، كلاهما في الفتن، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

حظ اللسان من العبودية لله:

وأما عبوديات اللســان الخمس فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقَّف صحــة صلاته عليه، وتلفُّظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والســجود، وأمر بقول: «**ربنا ولك الحمد**». بعد الاعتدال(١)، وأمر بالتشهُّد(٢)، وأمر بالتكبير(٣).

ومن واجبه: ردُّ السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مســتحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكــر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكلِّ ما يبغضه الله ورســوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رســوله، والدعاء إليها، وتحســينها وتقويتها، وكالقذف، وســبِّ المســلم، وأذاه بكلِّ قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بغير علم؛ وهو أشدُّها تحريمًا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٨٩)، ومسلم في الصلاة (٤١١)، عن أنس.

(٢) كما في حديث ابن مســعود: «... فإذا جلــس أحدكم في الصلاة فليقــل: التحيات». رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٠).

(٣) كما في حديث عائشــة: كان رســول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير. رواه مسلم في الصلاة (٤٩٨)، وأحمد (٢٤٠٣٠).

QaradawiBooks.com

ومكروهه: التكلُّم بما تركُه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

حظ الجوارح والحواس من العبودية لله:

وأما العبوديات الخمس على الجوارح، فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا، إذ الحواس خمسة، وعلى كلِّ حاسة خمس عبوديات.

حظ السمع:

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة، من ردِّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدِّهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار مَن يهرب عنك بسرِّه، ولا يحبُّ أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمِّنًا لحقٍّ لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعيَّن نصحه وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخشى الفتنة بأصواتهنَّ إذا لم تدعُ إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبُّه الله، وليس بفرض.

QaradawiBooks.com

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

غير مرخصة للطباعة

حظ النظر:

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعيُّن تعلُّم الواجب منها، والنظر إذا تعيَّن لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميِّز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدلَّ بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولًا كما للسان فضولًا، وكم قاد فضولهما إلى فضول عزَّ التخلص منها، وأعيا دواؤها، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولو نظر في العورة التـي وراء الأبواب فرماه صاحـب العورة ففقأ عينه، لم يكن عليه شـيء، وذهبت هَـدَرًا، بنصِّ رسـول الله ﷺ، في الحديث المتفق على صحته[١]، وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

وهذا إذا لم يكن للناظر سـبب يباح النظر لأجلـه، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور ـ أو مأذون له ـ في الاطلاع عليها.

حاسة الذَّوق وحظها من العبودية لله:

وأمّا الذوق الواجب: فتناول الطعام والشـراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت. فإن تركـه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسـه؛ قال الإمام أحمد وطاووس: مَن اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار[٢].

ومن هذا: تناول الـدواء إذا تيقَّن النجاة به مـن الهلاك، على أصح القولين. وإن ظنَّ الشفاء به، فهل هو مستحب مباح أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذَوْق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تَفْجَأُ آكلَه، ولـم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمـة المرائين فـي الولائـم والدعوات ونحوهـا. وفي السُّـنن: أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الديات (٦٩٠٢)، ومسلم في الآداب (٢١٥٨)، عن أبي هريرة.
(٢) مدارج السالكين (١٣٨/١).

QaradawiBooks.com

رسول الله ﷺ «**نهى عن طعام المتباريَيْن**»[1] وذوق طعام مَن يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب. وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به من الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

حاسة الشم:

وأما تعلُّق العبوديات الخمس بحاسة الشم؛ فالشمُّ الواجب: كلُّ شمٍّ تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشمِّ الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرَّة فيه؟ أو يميِّز به بين ما يملك الانتفاع به وما لا يملك؟ ومن هذا شمُّ المقوِّم وربِّ الخبرة، عند الحكم بالتقويم، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات، خشية الافتتان بما وراءه.

(١) رواه أبو داود (٣٧٥٤)، والحاكم (١٢٨/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، كلاهما في الأطعمة، وقال الذهبي في الميزان (٣٣٤/١): صوابه مرسل. وصححه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٢٦٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٦٥)، عن ابن عباس.
وقال الخطابي: المتباريان: المتعارضان بفعلهما. يقال: تبارى الرجلانِ إذا فعل كُلُّ واحد منهما مثل فعلِ صاحبه؛ ليرى أيهما يغلب صاحبه. وإنما كره ذلك لما فيه من الرياء والمباهاة، ولأنه داخل في جملة ما نهي عنه من أكل المال بالباطل. معالم السنن (٢٤٠/٤)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

QaradawiBooks.com

وأما الشم المستحب: فشمُّ ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي «صحيح مسلم»، عن النبي ﷺ: «**مَن عُرِض عليه ريحان فلا يردُّه؛ فإنه طيب الريح، خفيف المحمل**»(١).

والمكروه: كشمّ طِيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلُّق له بالشرع.

حاسة اللمس:

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجبُ جماعها، والأَمَة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحلُّ من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غضُّ بصره، وكفُّ نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذَّة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذا لم يأمن على نفسه. ومن هذا لمس بدن الميت ـ لغير غاسله ـ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريمًا له؛ ولهذا يستحبُّ ستره عن العيون، وتغسيله في قميصه في أحد القولين، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هي عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

---

(١) رواه مسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٥٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

البطش باليد والرجل:

وهذه المراتب أيضًا مرتَّبة على البطش باليد والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسُّب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة. وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكُّنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب مَن لا يحل ضربه ونحو ذلك. وكأنواع اللعب المحرَّم بالنصِّ: كالنرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم[1]. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردِّها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبتَ عليه مالًا، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

(١) انظر رأينا في لعب الشطرنج في كتابنا: الحلال والحرام صـ ٣٠٩.

QaradawiBooks.com

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كلِّ ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم. والإحسان بيده بأن يعين صانعًا أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو فيما يحتاج إليه ونحو ذلك. ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرَّة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلُّمه، والمشي إلى الحجِّ إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رجِل الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فقال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

حتى الركوب على الدابة:

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

QaradawiBooks.com

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبرِّ الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمَّن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للَّهو واللعب، وكلِّ ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمَّن فوات أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدّابة»[1] انتهى تفصيل ابن القيم.

وبهذا البيان المستوعب يتَّضح لنا شمول العبادة في الإسلام للإنسان كلِّه، من قرنه إلى قدمه، ظاهره وباطنه، وأن حياة المسلم ليست حياة سائبة، إنما هي في جوهرها تعبُّد والتزام.

* * *

(١) مدارج السالكين (١٢٩/١ ـ ١٤١) بتصرف يسير.

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

أيُّ العبادات أفضل؟

وإذا كانت العبادة في الإسلام لها ذلك الشمول الذي شرحناه، فأيُّ أنواع العبادات وصورها أفضل، وأحبُّ إلى الله، وأعظم منزلة لديه، وزلفى إليه؟

لقد فصَّل المحقق ابن القيم الجواب عن هذا السؤال تفصيلًا يشفي الصدور، ذاكرًا اختلاف طرق السالكين في ذلك، ووجهة كلٍّ منهم ودليله، مرجِّحًا ما رآه أقرب إلى الحقِّ، وأولى بالصواب.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «أهل مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، لهم في أفضل العبادة وأنفعها، وأحقِّها بالإيثار والتخصيص، أربع طرق؛ فهُم في ذلك أربعة أصناف:

نسخة غير قابلة للطباعة

القائلون بأن أفضل العبادات أشقُّها على النفس:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل

QaradawiBooks.com

الأعمال أحمزها»[(١)]. أي أصعبها وأشـقها. وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: إنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمُّل المشاق.

القائلون بأنه الزهد والتجرُّد:

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرُّد، والزهد في الدنيا، والتقلُّل منها غاية الإمكان، واطِّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكلِّ ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم: ظنُّوا أن هذا غاية، فشمَّروا إليه، وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة. فرأوا الزهد في الدنيا غاية كلِّ عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمَّة عليه، وتفريغ القلب لمحبَّته، والإنابة إليه، والتوكُّل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كلِّ ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

---

(١) قال العجلوني: قال في الدرر تبعًا للزركشي: لا يعرف، وقال ابن القيم في شرح المنازل: لا أصل له، وقال المزي: هو من غرائب الأحاديث، ولم يرو في شيء من الكتب الستة، وقال القاري في الموضوعات الكبرى: معناه صحيح لما في الصحيحين عن عائشة: «الأجر على قدر التعب». انتهى. وذكر في اللآلئ عقبه أن مسلمًا روى في صحيحه قول عائشة: «إنما أجرك على قدر نصبك». كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (٤٥٩)، نشر مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ.

QaradawiBooks.com

ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرَّقهم وأذهب جمعيَّتَهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله؛ فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلًا فكيف بقلب كلُّ أوقاته ورد؟!

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم مَن يترك الواجبات والفرائض لجمعيته. ومنهم مَن يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلُّم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذَّن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمتُ وخرجتُ تفرَّقتُ، وإن بقيت على حالي بقيتُ على جمعيتي، فما الأفضل في حقِّي؟

فقال: إذا أذَّن المؤذن وأنت تحت العرش فقُم، وأجب داعي الله، ثم عُد إلى موضعك! وهذا لأن الجمعية على الله حظُّ الروح والقلب، وإجابة الداعي حقُّ الرب. ومن آثر حظَّ روحه على حقِّ ربه، فليس من أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

• **القائلون بأن أفضل العبادات ما كان منه نفع الغير:**

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعدٍّ - أي تتعدَّى منفعته إلى الغير - فرأوه أفضل من النفع القاصر - فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدَّوا له وعملوا عليه. واحتجُّوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله**»(١).

(١) رواه البزار (٦٩٤٧)، وأبو يعلى (٣٣١٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٠٦): رواه أبو يعلى والبزار، وفي إسنادهما زياد بن أبي حسان وهو متروك. عن أنس.

QaradawiBooks.com

واحتجُّوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفَّاع متعدٍّ إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟ قالوا: ولهذا كان فضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النَّعَم**»[1]. وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدِّي. واحتجُّوا بقوله ﷺ: «**مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن اتَّبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[2].

واحتجوا بقوله ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلُّون على معلمي الناس الخير**»[3]، وبقوله ﷺ: «**إن العالِم ليستغفر له مَن في السماوات ومَن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها**»[4].

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، ولم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٢١٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد.

(٢) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأحمد (٩١٦٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حسن صحيح غريب. والطبراني (٢٣٤/٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨)، عن أبي أمامة.

(٤) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وقال مخرجوه: حسن لغيره. وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وابن حبان في العلم (٨٨)، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٠٣): صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. عن أبي الدرداء.

QaradawiBooks.com

والترهُّب؛ ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين همُّوا بالانقطاع للتعبُّد، وترك مخالطة الناس[1]. ورأى هـؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

القائلون بأن لكلِّ وقت عبادته الفضلى:

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الربِّ في كلِّ وقت بما هو مقتضـى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضـل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلـى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقِّه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حقِّ الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت السـحر: الاشـتغال بالصلاة والقـرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشـاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقـات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشـتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجـدُّ والنصح في إيقاعها على أكمل الوجـوه، والمبادرة إليها فـي أول الوقـت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُدَ كان أفضل.

(١) إشارة إلى حديث أنس المتفق عليه: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبـي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوهـا ... رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسـلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح.

QaradawiBooks.com

والأفضل فـي أوقات ضرورة المحتـاج إلى المسـاعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشـتغال بمسـاعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقـت قراءة القرآن: جمعية القلـب والهمَّة على تدبُّره وتفهُّمه، حتـى كأن الله تعالى يخاطبـك به، فتجمع قلبـك على فَهمه وتدبُّره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقـوف بعرفة: الاجتهاد في التضـرُّع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشـر ذي الحجَّة: الإكثار من التعبُّد، ولا سـيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشـر الأواخر مـن رمضان: لزوم المسـجد فيه، والخلوة والاعتكاف، دون التصدِّي لمخالطة الناس والاشـتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسـلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهـم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الـذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

QaradawiBooks.com

والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم، واعتزالهم في الشرِّ، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كلِّ وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبُّد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبُّد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته؛ فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبُّد المطلق ليس له غرض في تعبُّد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبُّع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبُّده عليها، فهو لا يزال متنقِّلًا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلةٌ عَمِل على سيره إليها. واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى؛ فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيتَ العلماء رأيتَه معهم، وإن رأيتَ العبَّاد رأيتَه معهم، وإن رأيتَ المجاهدين رأيتَه معهم، وإن رأيتَ الذاكرين رأيتَه معهم، وإن رأيتَ المتصدِّقين المحسنين رأيتَه معهم، وإن رأيتَ أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتَه معهم، فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيِّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها من العبادات، بل هو على مراد ربِّه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه؛ فهذا هو المتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، حقًّا، القائم بهما صدقًا: ملبسه ما تهيَّأ، ومأكله ما تيسَّر، واشتغاله بما أمر الله به في كلِّ وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا.

QaradawiBooks.com

لا تملكه إشارة، ولا يتعبَّده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حرٌّ مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنَّـى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلَّت مضاربه، يأنس به كلُّ محقٍّ، ويستوحش منه كلُّ مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلُّها منفعة، حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله»[1] اهـ.

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٠٦/١ ـ ١١١)، بتصرف يسير.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

غاية العبادة في الإسلام
أو لماذا نعبد الله؟

- لماذا نعبد الله؟
- العبادة غذاء للروح.
- العبودية لله سبيل الحرية.
- العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان.
- العبادة حق الله على عباده.
- العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب.
- هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس؟
- صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق.
- عبادة المؤمن لون من الأخلاق، وأخلاقه لون من العبادة.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

لماذا نعبد الله؟

عرفنا أن رسالة الإنسان في الوجود هي عبادة الله وحده، وعرفنا أن العبادة هي غاية الخضوع الممزوج بغاية الحب لله، وعرفنا أن العبادة في الإسلام، تشمل الدين كلَّه، وتسع الحياة بمختلف جوانبها.

وبقي هنا سؤال قد يسأله بعض الناس. وهو: لماذا نعبد الله تعالى؟ وبعبارة أخرى: لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته وهو الغني عنا؟ وما الغاية من تكليفنا هذه العبادة؟ هل يعود عليه سبحانه نفع من عبادتنا له، وخشوعنا لوجهه، ووقوفنا ببابه، وانقيادنا لأمره ونهيه جلَّ شأنه؟ أم النفع يعود علينا نحن المخلوقين، وما حقيقة هذا النفع إن كان؟ أم الهدف هو مجرد الأمر من الله والطاعة منا؟

والجواب: أنه تبارك اسمه لا تنفعه عبادة من عبده، ولا يضرُّه إعراض مَن صدَّ عنه، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين؛ فهو الغني ونحن الفقراء إليه، وهو الودود الكريم، والبر الرحيم، الذي لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين. فضلًا عن حقِّه ـ تعالى ـ في أن يفرض علينا ما يشاء، يكلِّفنا ما يريد، بحكم خلقه لنا، وإنعامه علينا، وبحكم عبودتنا الطبيعية القسرية له سبحانه، فهو لا يكلِّفنا إلا بما ينفعنا نحن، ويصلحنا نحن المحتاجين

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إليه في كلِّ نَفَس من أنفاس حياتنا، وهو الغني غنى ذاتيًّا، إذ كيف يحتاج الخالق إلى مَن خلق؟

وقد أخبرنا على لسان سليمان في القرآن: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لم تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

وإذا كان الله سبحانه له هذا الغنى المطلق، فلماذا إذن كلَّف عباده أن يعبدوه ويطيعوه؟

وأظن بعد أن يعرف الإنسان جواب الأسئلة الخالدة: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟ فمن السهل يعرف جواب هذا السؤال. إنه كامن في طبيعة الإنسان نفسه، وطبيعة مهمته في الأرض، والغاية التي أُعد لها من وراء هذه الحياة.

* * *

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٣٦٧)، عن أبي ذر.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العبادة غذاء للروح

فالإنسان ليس هو هذا الغلاف المادي الذي نحسُّه ونراه، والذي يطلب حظَّه من طعام الأرض وشرابها. ولكن حقيقة الإنسان في ذلك الجوهر النفيس الذي به صار إنسانًا مكرمًا سيدًا على ما فوق الأرض من كائنات، ذلك الجوهر هو الروح، الذي يجد حياته وزكاته في مناجاة الله عز وجل، وعبادة الله هي التي توفِّر لهذا الروح غذاءه ونماءه، وتمدُّه بمدد يومي لا ينفد ولا يغيض.

ولئن تراكم على هذا الجوهر المعنوي الغفلة والغرور، وران عليه صدأ الجحود أو الشك، فقد تهب عواصف المحن فتزيح الغبار، أو تندلع نار الشدائد فتجلو الصدأ. وسرعان ما يعود الإنسان إلى ربِّه فيدعوه ويتضرَّع إليه. وهذه حقيقة ذكرها القرآن، وأيَّدتها وقائع الحياة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

إن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة بربِّ الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أُديت على وجهها.

QaradawiBooks.com

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب فقير بالـذات إلى الله من جهتين: من جهة العبادة ... ومن جهة الاستعانة والتوكل ... فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يُسَر، ولا يلتذُّ ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن، إلا بعبادة ربِّه وحده وحبِّـه والإنابة إليه. ولو حصل لـه كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربِّه ـ بالفطرة ـ من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فإنه لو أعين على حصول كلِّ ما يحبُّه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادة لله، فلم يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحبِّ لله بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبُّه لأجله، لا يحبُّ شيئًا لذاته إلا الله»(١).

وهكذا كلما أخلص المرء العبودية لله وجد نفسه، واهتدى إلى سرِّ وجوده، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها سعادة، تتمثَّل فيما سمَّاه الرسول: «**حلاوة الإيمان**».

وإن لهذه الحلاوة لطعمًا لا يتذوَّقه إلا مَن عرف الله، وآثره على كلِّ ما سواه. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه لا شيء أحبُّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربُّها

(١) العبودية صـ ٩٧ بتصرف يسير.

QaradawiBooks.com

ومدبِّرها ورازقها ومميتها ومحييها، فمحبَّته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس؛ وقوت القلوب، ونور العقول، وقرَّة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه. والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كلِّ نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كلِّ لذة.

كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمرُّ بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له. وقال آخر: مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، فقيل له: وما هو؟ قال: محبُّة الله والأنس به. ومثل هذا ما قاله الآخر: أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وأطيب ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة. وقال آخر من أهل معرفة الله وطاعته: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوَّة المحبَّة وضعفها، بحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبَّة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمَن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن

QaradawiBooks.com

يقدم عليه حبًّا لغيره، ولا أنسًا به، وكلَّما ازداد له حبًّا ازداد له عبودية وذلًّا، وخضوعًا ورقًّا له، وحرية عن رِق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا ينعم ولا يبتهج ولا يلتذُّ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربِّه وحبِّه، والإنابة إليه، وكلما تمكَّنت محبَّة الله من القلب، وقويت فيه أخرجت منه تأله لما سواه وعبوديته له:

فأصبح حرًّا عزة وصيانة على وجهه أنواره وضياؤه»(١)

وقال الإمام فخر الدين الرازي: «اعلم أن مَن عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها، وثقل عليه الاشتغال بغيرها. وبيانه من وجوه:

الأول: أن الكمال محبوب بالذات، وأكمل أحوال الإنسان اشتغاله بعبادة الله، فإنه يستنير قلبه بنور الإلهية، ويتشرَّف لسانه بشرف الذكر والقراءة، وتتجمَّل أعضاؤه بجمال خدمة الله، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية، والدرجات البشرية. فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية في الحال، وهي موجبة أيضًا لأكمل السعادات في الزمان المستقبل، فمَن وقف على هذه الأحوال، زال عنه ثقل الطاعات، وعظمت حلاوتها في قلبه.

الثاني: أن العبادة أمانة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات، ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني؛ قال

(١) إغاثة اللهفان (١٩٧/٢، ١٩٨)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.

QaradawiBooks.com

بعض الصحابة: رأيتُ أعرابيًّا أتى باب المسجد، فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد، وصلَّى بالسكينة والوقار ودعا بما شاء، فتعجبنا، فلما خرج لم يجد ناقته، فقال: أديتُ أمانتك فأين أمانتي؟! قال الراوي: فزدنا تعجبًا! فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته ... وسلم الناقة إليه».

قال الرازي: «والنكتة أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته، وهو المراد من قوله عليه السلام لابن عباس: «**احفظِ الله يحفظك**»[(١)].

الثالث: أن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الغرور إلى عالم السرور، ومن الاشتغال بالخلق إلى حضرة الحقِّ، وذلك يوجب كمال اللذَّة والبهجة. يحكى عن أبي حنيفة: أن حية سقطت من السقف وتفرَّق الناس، وكان أبو حنيفة في الصلاة ولم يشعر بها ... ومَن استبعد هذا فليقرأ قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، فإن النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام؛ وصلت تلك الغلبة إلى حيث قطعن أيديهن وما شعرن بذلك. فإذا جاز هذا في حقِّ البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى. ولأن مَن دخل على ملك مهيب فربَّما مرَّ به أبوه وبنوه وهو ينظر إليهم ولا يعرفهم؛ لأن استيلاء هيبة ذلك تمنع القلب عن الشعور بهم، فإذا جاز هذا في حقِّ ملك مخلوق، فلأن يجوز في حق خالق العالم أولى»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجوه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وقال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (٤٦٠/١ ـ ٤٦١): وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة ... وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي.

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢١٣/١، ٢١٤)، بتصرف يسير.

QaradawiBooks.com

وبهذا نتبين أن الـذي يذوق طعم الإيمان الحـقّ، وتزهر في قلبه مصابيح اليقين، لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرَّد خضوع أو «تنفيذ أوامر» فحسـب، إنه يجد فيها تلذُّذًا بمناجاة الله وطاعته، والسعي في مرضاته، ويجـد فيها سـعادة لا تدانيها سـعادة أصحـاب القصور، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. وقد كان النبي ﷺ ينتظر فريضة الصلاة انتظار الظمآن اللهف إلى شـربة المـاء العذب الزلال، ويهرع إليها كما يهرع السـائر في الصحراء إلى الواحة الخضراء. وكان يقول لبلال ـ في شوق ولهفة ـ إذا حان وقتها: «**أرحنا بها يا بلال**»(١). وقالت زوجه عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفـه(٢). فلا عجب أن يقـول ﷺ: «**جُعلت قرَّة عيني في الصلاة**»(٣).

إن المؤمن ليجد في عبادة ربِّه في ساعة الشدَّة، سكينة لنفسه، وأنسًا لوحشـته، وانشـراحًا لصدره، وتخفيفًا عن كاهله، كما قـال الله تعالى لرسـوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]، فدلَّـه علـى العبادة إذا ضاق صدره بأقاويل المتقوِّلين، وأكاذيب المفترين.

---

(١) رواه أحمد (٢٣١٥٤)، وقال مخرجوه: رجاله ثقات، لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد في إسناده. وأبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وصححه الألباني المشكاة (١٢٥٣)، عن رجل من الأنصار.

(٢) قال العراقي في تخريج إحياء علوم الدين صـ ١٧٨: أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلا: كان النبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدا من الناس.

(٣) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، وقال مخرِّجوه: إسـناده حسن. والنسائي في عشـرة النساء (٣٩٣٩)، وصحَّح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١)، والبيهقي في النكاح (١٣٢٣٢)، وحسَّنه ابن حجر في التلخيص (١١٦/٣)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وفي ســاعة المنحة والنعمة يتذوَّق المؤمن حلاوة الشــكر للمنعم، والحمد لذي الجلال والإكرام، وما أروع خطــاب الله لنبيه في مثل هذا الموقــف: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

العبودية لله سبيل الحرية

ثم إن العبودية الخالصة لله هي - في واقع الأمر - عين الحرية، وسبيل السيادة الحقيقية؛ فهي - وحدها - التي تعتق القلب من رِق المخلوقين، وتحرِّره من الذلِّ والخضوع لكلِّ ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التي تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد، وإن ظهروا - صورةً وشكلًا - بمظهر السادة الأحرار!

ذلك أن في قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى ربٍّ، إلى إله، إلى معبود يتعلَّق به، ويسعى إليه، ويعمل على رضاه، فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد، تخبَّط في عبادة آلهة شتى وأرباب أخر. مما يرى وما لا يرى، وممن يعقل، وما لا يعقل، ومما هو موجود وما ليس بموجود، إلا في الوهم والخيال.

وليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد مَن خلقه فسواه فعدَّله، ويطرح عبادة كلِّ ما سواه ومَن سواه. وليس أجلب لسعادته وسلام ضميره من توجيه همِّه إلى إله واحد يخصُّه بالخضوع والحبِّ، فلا تتوزَّع قلبه الآلهة والأرباب المزيفون، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

QaradawiBooks.com

فالعبد السالم لسيد واحد قد استراح: إذ عرف ما يرضي سيده فأدَّاه بارتياح وانشراح. أما العبد الذي يملكه شركاء متشاكسون يأمره أحدهم بعكس ما يأمره غيره، فما أتعسه وما أشقاه!

يقول ابن تيمية: «وكلُّ مَن استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حسَّاس يتحرَّك بالإرادة. وقد ثبت في «الصحيح»، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»[1]. فالحارث: الكاسب الفاعل. والهمَّام: فعَّال من الهم. والهم أول الإرادة؛ فالإنسان له إرادة دائمًا، وكلُّ إرادة فلا بدَّ لها من مراد تنتهي إليه، فلا بدَّ لكلِّ عبد من مراد محبوب هو منتهى حبِّه وإرادته، فمَن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبِّه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بدَّ أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتَّخذه إلهًا من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتَّخذهم أربابًا، أو غير ذلك مما عُبد من دون الله.

وإذا كان عبدًا لغير الله يكون مشركًا، وكلُّ مستكبر فهو مشرك؛ ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارًا عن عبادة الله، وكان مشركًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]. يعني فرعون. إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

(١) رواه أحمد (١٩٠٣٢)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٠)، عن أبي وهب الجشمي.

QaradawiBooks.com

وقد وصف فرعون بالشـرك في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله؛ كان أعظم إشـراكًا بالله؛ لأنه كلما اسـتكبر عن عبادة الله ازداد فقرًا وحاجة إلى المـراد المحبوب الذي هو مقصود القلـب بالقصد الأول، فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك.

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكَّل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبُّه ويرضاه، ولا يكـره إلا ما يبغضه الربُّ ويكرهه، ولا يوالي إلا مَن والاه الله، ولا يعادي إلا مَن عاداه الله، ولا يحبُّ إلا لله ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلَّمـا قوي إخـلاص دينـه لله، كملـت عبوديته واسـتغناؤه عن المخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك»[١].

* * *

(١) العبودية صـ ١٠٠ ـ ١٠٢.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان

والحياة التي نحياها هذه ـ طالت أو قصرت ـ ليست هي الغاية ولا إليها المنتهى، وما هي إلا محطة انتقال إلى حياة أخرى ودار أخرى؛ حياة البقاء، ودار الخلود. وفي بعض الآثار: «إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار»[1]. وقال الشاعر:

وما الموت إلا رحلة غير أنها   من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي[2]

فالمعول عليه إذن إنما هو الدار الأخرى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. والإنسان في هذه الدار الفانية إنما يستصلح لتلك الدار الباقية، يستخلفه الله هنا ليعدَّ ويصقل للخلود هناك، ولا شيء يصقله ويهذِّبه ويعدُّه مثل الابتلاء، فهو البوتقة التي تصهر فيها النفس ويصفو الروح.

فقد شاء الله أن يخلق الإنسان نوعًا متميِّزًا على غيره، بما ركَّب فيه من عناصر مزدوجة، يمكن أن تصعد به إلى السماء، وأن يهبط بها إلى

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٨/٥)، من قول عمر بن عبد العزيز.

(٢) من شعر أبي العتاهية، كما في الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ ١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

نسخة مجانية

الأرض، ففيه الغريزة والشهوة، وفيه العقل والإرادة؛ فيه المادة وفيه الروح، وقد دلَّ هذا الخلق على أن الإنسان مسؤول ومبتلى؛ وهذا هو السرُّ في استعداده لحمل المسؤولية، وأمانة التكاليف الإلهية التي عبَّر عنها القرآن تعبيرًا بديعًا فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لقد كان ما أوتي الإنسان من عقل وإرادة وضمير واستطاعة، وما يُسِّرَ له من أسباب، نعمة عليه أي نعمة، وتكريمًا له أي تكريم، ولكنها كانت تحمل في طيها ابتلاءً له أي ابتلاء: أيشكر أم يكفر؟ أيطيع ربَّه أم يتمرد عليه؟

وهكذا ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه إنما خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها؛ ليبتلي عباده ويمتحنهم ـ وهو بهم أعلم ـ ليظهر مَن يريده ويريد ما عنده، ممَّن يريد الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

إن هذه الحياة الدنيا لا تعطي حصادها إلا لمَن يزرعون، ولا جَناها إلا لمَن يغرسون، ولا ينال المرء فيها ما يحبُّ إلا بصبره على ما يكره، ولا يتحقَّق له أمل يصبو إليه إلا بعد أن يجتاز امتحانات عسيرة، ويتحمَّل مشقَّات شديدة؛ ولذلك لا يطمع في إدراك المعالي وتحقيق الآمال الكبيرة إلا أولو العزم وأصحاب النفوس الكبيرة. وفي هذا يقول المتنبي:

QaradawiBooks.com

ذريني أنل ما لا يُنال من العلا فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بدَّ دون الشهد من إبر النحل[١]!

هذا شأن حياتنا القصيرة هذه، فكيف بحياة الخلود؟ أيريد الإنسان أن يحظى بنعيمها ورضوان الله فيها، ويسعد بالنظر إلى وجهه الكريم، دون جهد ولا ابتلاء، ودون أن يسعى لها سعيها؟ إذن يستوي القاعدون والمجاهدون، يستوي الكسالى والعاملون، يستوي الطالحون والصالحون. وهم في عدالة الله لا يستوون!

لقد عرفنا من عدالة السنن الإلهية في الكون أن الشيء النفيس لا يُدرك إلا بجهد كبير، وكلَّما كانت نفاسته أظهر؛ احتاج إلى جهد أكبر، فهل هناك شيء أنفس وأعظم من الآخرة الباقية، من الحياة الأبدية، من رضوان الله تعالى؟ لا والله. ولهذا حُفَّت الجنة بالمكاره، ومُلئ طريقها بأشواك الابتلاء.

ومن هنا قال الإنجيل: ما أضيق الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية[٢]! وما ضيَّقه إلا تكاليف العبودية والتزامات الإيمان.

وقال القرآن العظيم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

* * *

(١) ديوان المتنبي صـ ٥١٨، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.
(٢) إنجيل متَّى (١٤/٧).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

العبادة حق الله على عباده

والعبادة ـ فوق ذلك كلِّه ـ هي حقُّ الخالق ـ جلَّ شأنه ـ على خلقه.

وفي ذلك روى البخاري ومسلم، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنتُ رَديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «**يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟**». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»(١).

وليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عبادته وحده سبحانه، بل المستنكر أن يكون غير هذا ... المستنكر أن نعبد ما دون الله أو مَن دون الله، فنؤدي الحقَّ لغير أهله. أو نزعم لأنفسنا الاستقلال عن الله فنجحد عبوديتنا له بغير حقٍّ.

إننا لم نكن شيئًا مذكورًا ثم كنا، خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود. ثم كنا نوعًا مكرمًا من الخليقة، خُلِقْنا في أحسن تقويم، وصُوِّرْنا في أحسن صورة، وعُلمنا البيان، وأوتينا العقل والإرادة، وسُخِّرت الكائنات حولنا لخدمتنا: الأرض لنا مهاد وفراش، والسماء لنا سقف وبناء، والشمس تمدُّنا بالضوء والحرارة، والكواكب تهدينا وتزين سقفنا،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٤٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والبحار تجري فيها سفائننا بأرزاقنا، والماء ينزل من السماء ليكون لنا شرابًا طهورًا، ونسقي منه أنعامًا وأناسي كثيرًا.

ترى مَن الذي فعل ذلك كلَّه؟ أما نحن فلم نخلق أنفسنا ولم نصنع ذرة مما حولنا، ولم يَدَّعِ بشر ولا جنٌّ ولا ملاك: أنه صانع ذلك ومدبره. فمَن هو صاحب العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة القاهرة والإرادة الفعالة، الذي صنع هذا الكون الدقيق فأحكمه، ورتَّبه فأحسنه؟ والذي خلق الإنسان فأحسن خلقه، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة؟

إنه الله الذي شهدتْ بربوبيته الفِطَر السليمة، وأقرَّت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

فلا عجب أن يكون لهذا الخالق المنعم حق العبادة، والاستعانة به، والابتهال إليه، والوقوف ببابه الكريم موقف الضراعة والتسليم والانقياد، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۞ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥].

QaradawiBooks.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

هذه العبادة إذن هي حقُّ الربوبية على العبودية، حقُّ الخالق على الخلق، حقُّ الكريم الذي أحسن وأنعم على مَن أحسن إليه وأنعم عليه.

ألا إن من كنود الإنسان لربِّه، وظلمه لنفسه، أن يشكر للخلق ولا يشكر للخالق، وأن يأسره إحسان من أحسن إليه من الناس ولا يأسره إحسان الله إليه، وهو يغمره من قرنه إلى قدمه، من يوم أن كان نطفة فعلقة فمضغة، إلى ما شاء الله من أطوار الحياة! واقرأ إن شئتَ قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

فالله الخالق المنعم هو المستحقُّ للعبادة وحده، أما ما دون الله فلا يستحقُّون عبادة الإنسان وهم مثله مخلوقون مرزوقون مربوبون! ولهذا قال ابن سيده فيما نقلناه في أول الكتاب: «العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر ... لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا مَن كان له أعلى جنس من النعمة ـ وهو الله ـ فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله»[1].

(١) المخصص (٦٢/٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وبهــذا كله نعلــم أن العبــادة مطلوبة فــي الدين طلــب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل. أعني أنها في الدرجة الأولى: امتثال لأمر الله ووفاء بحقِّه سبحانه؛ فهي مطلوبة لذاتها، قبل أي شيء آخر في هذه الحياة.

❋ ❋ ❋

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب

هل يجوز أن يُعبد الله طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه؟ بعبارة أخرى: طلبًا لجنَّته، وهربًا من ناره؟

لقد شنَّع الصوفية على مَن عبد الله بهذا القصد، وقالوا: لا ينبغي للعابد أن يعبد الله ويقوم بأمره ونهيه خوفًا من عقابه أو طمعًا في ثوابه، فإن مثل هذا العابد واقف مع غرضه وحظِّ نفسه، ومحبَّة الله حقًّا تأبى ذلك وتنافيه؛ فإن المحب لا حظَّ له من محبوبه، فوقوفه مع حظِّه علَّة في محبته، كما أن طمعه في الثواب تطلُّع إلى أنه يستحقُّ بعمله على الله تعالى أجرة. وفي هذا آفتان: تطلعه إلى الأجرة، وإحسان ظنه بعمله. ولا يخلصه من ذلك إلا تجريد العبادة والقيام بالأمر والنهي من كلِّ علة، بل يقوم به تعظيمًا للآمر الناهي، وأنه أهل أن يُعبد وتُعظَّم حرماته. فهو يستحقُّ العبادة والتعظيم والإجلال لذاته. كما في الأثر الإلهي: «لو لم أخلق جنة ولا نارًا، أما كنت أهلًا أن أُعبد»[1]؟ ومنه قول القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ثناء العباد على المنعم[2]؟

(١) قال الغزالي في الإحياء (٣٠٦/٤): هذا الأثر في الزبور.

(٢) ذكر البيتين ابن الجوزي في المدهش صـ ٤٩٤، تحقيق مروان القياني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

فالنفوس الزكيـة العلية تعبده؛ لأنـه أهل أن يُعبـد، ويُجلَّ ويُحبَّ ويُعظم، فهو لذاته مستحقٌّ للعبادة. قالوا: ولا يكون العبد مع ربِّه كأجير السـوء: إن أُعطي أجره عمل، وإن لم يُعطَ لم يعمل. فهذا عبد الأجرة، لا عبد المحبة والإرادة. ولهذه يروون عن رابعة الأبيات المشهورة:

كلُّهـم يعبـدون من خـوف نار ويـرون النجـاة حظًّـا جزيـلا
أو بأن يدخلـوا الجنـان فيحظوا بنعيـم ويشـربوا سلسـبيلا
ليس لي فـي الجنان والنـار حظٌّ أنـا لا أبتغـي بحبِّي بديـلا[1]

ومن علماء المسـلمين من ردَّ هذا الكلام، واعتبره من شطحات القوم ورعوناتهم، ولم يـرَ أيَّ حرج أو نقص في عبادة الله خوفًـا وطمعًا، ورغبًا ورهبًا. واحتجَّ هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل الصديقين والصالحين، ودعائهم والثناء عليهم - في كتاب الله - بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة، كما قال تعالى في خواص عباده الذين عبدهم المشركون ودعوهم من دون الله أو مع الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وذكر سـبحانه عباده الذين شـرفهم بالإضافة إلى اسمه «الرحمن»، فسمَّاهم: «عباد الرحمن»، وأثنى عليهم بأحسـن أعمالهم، فجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم أنهم توسَّلوا إليه بإيمانهم أن ينجِّيهم من النار، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، فجعلوا أعظم وسائلهم إليه وسيلة الإيمان، أن ينجيهم من النار.

(١) عزاها ابن الجوزي في صفة الصفوة إلى شـاب في مجلس ذي النـون المصري (٢/٤٥٠)، تحقيق أحمد بن علي، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنَّته، ويتعوَّذون به من ناره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ الآية [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٥]. ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله هو الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٨٧]. فسأل الله الجنَّة واستعاذ به من النار وهو الخزي يوم البعث.

وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعدًا عليه مسؤولًا، أي يسأله إياها عباده وأولياؤه. وأمر النبي ﷺ أُمته أن يسألوا له في وقت الإجابة ـ عقيب الأذان ـ أعلى منزلة في الجنة، وأخبر أن مَن سألها له حلَّت عليه شفاعته[1].

(١) رواه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

وقال له سُليم الأنصاري: أما إني أسأل الله الجنة، وأستعيذ به من النار، لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ! فقال ﷺ: «**حولها ندندن**»[١]!

وفي «الصحيح»، في حديث الملائكة السيَّارة: أن الله تعالى يسألهم عن عباده ـ وهو أعلم بهم ـ «**فيقولون: أتيناك من عند عبادك يهلِّلونك ويكبِّرونك ويحمدونك، ويمجِّدونك. فيقول** ﷻ: **وهل رأوني؟ فيقولون: لا يا رب، ما رأوك. فيقول** ﷻ: **كيف لو رأوني؟! فيقولون: لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيدًا. قالوا: يا رب، ويسألونك جنَّتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا، وعزَّتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟! فيقولون: لو رأوها لكانوا لها أشد طلبًا. قالوا: ويستغيثون بك من النار. فيقول** ﷻ: **وهل رأوها؟! فيقولون: لا، وعزَّتك ما رأوها! فيقول: فكيف لو رأوها؟! فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هربًا. فيقول: إني أشهدكم أني قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوا، وأعذتُهم مما استعاذوا**»[٢].

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده تعالى، وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها، والاستعاذة من النار والخوف منها. وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «**استعيذوا بالله من النار**»[٣]، وقال لمَن سأله مرافقته في الجنة: «**أعنِّي على نفسك بكثرة السجود**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (١٥٨٩٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (٧٩٢)، عن بعض أصحاب النبي، ورواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩١٠)، وابن حبان في الرقائق (٨٦٩)، وصححه النووي في خلاصة الأحكام (٤٤٣/١)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه فضيل بن غزوان في فضائل الدعاء (١٥٨)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٧٠)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبو داود في قيام الليل (١٣٢٠)، عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

QaradawiBooks.com

قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمَّته، ليكونوا دائمًا على ذكر منهما، فلا ينسونهما، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة، والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار هو محض الإيمان.

وقد حضَّ النبي ﷺ أصحابه وأمته على طلب الجنة، فوصفها وجلَّاها لهم ليخطبوها، وقال: «**ألا مشمِّر للجنة؟ فإنها ـ وربِّ الكعبة ـ نور يتلألأ، وريحانة تهتزُّ، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر مطرد**» الحديث. فقال الصحابة: يا رسول الله، نحن المشمِّرون لها، فقال: «**قولوا: إن شاء الله**»(١).

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله ﷺ: مَن عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة، تحريضًا على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل: لطال ذلك جدًّا. وذلك في جميع الأعمال.

فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولًا، والرسول ﷺ يحرِّض عليه؟! قالوا: وأيضًا، فالله سبحانه يحبُّ من عباده أن يسألوه جنَّته، ويستعيذوا به من ناره، فإنه يحبُّ أن يُسأل، ومَن لم يسأله يغضب عليه. وأعظم ما سُئل «الجنة»، وأعظم ما استُعيذ منه «النار».

قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه، والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همَّته، ووهَى باعثه، وكلَّما كان أشد طلبًا للجنة وعملًا لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٢)، والبزار (٢٥٩١)، وابن حبان في الإسراء (٧٣٨١)، والطبراني (١/١٦٢)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٣٣٥٨)، عن أسامة بن زيد.

QaradawiBooks.com

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوبًا للشارع، لما وصف الجنة للعباد، وزيَّنها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملًا، تشويقًا لهم إليها، وحثًّا لهم على أن يسعوا بها سعيها[١].

على أن الإمام ابن القيم وقف موقفًا وسطًا بين الصوفية وبين مَن ردَّ عليهم وخطَّأهم من علماء الأمة، فقال بعد أن حكى قول أولئك وردَّ هؤلاء: «والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمَّى الجنة، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، ومن أعظم نعيم الجنة: التمتُّع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه. وقرة العين بالقرب منه، وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا. فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأتى به منكَّرًا في سياق الإثبات، أي: أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يكفيني، ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح، حديث الرؤية: «**فوالله، ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه**»[٢]. وفي حديث آخر: «**إنه سبحانه إذا تجلَّى لهم، ورأوا وجهه عيانًا، نسوا ما هم فيه من النعيم، وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه**»[٣].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٧٩/٢).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨١)، وأحمد (٢٣٩٢٥)، عن صهيب الرومي.

(٣) جزء من حديث رواه عبد بن حميد في مسنده (٨٥١)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

قال ابن القيم: «ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجَلُّ مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعيَّة المحبة، فإن المرء مع مَن أحب. فأيُّ نعيم، وأيُّ لذة، وأيُّ قرَّة عين، وأيُّ فوز، يداني نعيم تلك المعية ولذَّتها وقرَّة العين بها؟

وهذا والله، هو العَلَم الذي شمَّر إليه المحبون، واللواء الذي أمَّه العارفون، وهو روح مسمَّى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يُعبد الله، طلبًا لجنته، ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار أعاذنا الله منها، فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، والبعد عنه، أعظم من التهاب النار في أجسامهم.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين هو: الجنَّة. ومهربهم: من النار»[1] اهـ.

* * *

(١) مدارج السالكين (٨٠/٢) بتصرف يسير.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس؟

وهناك دعوة خبيثة شريرة يروِّجها بعض الملحدين المستكبرين عن عبادة الله، فتجد هؤلاء يستغلُّون ما جاء به الدين نفسه من ردِّ العبادة السطحية المرائية التي لا تنفذ إلى القلب، ولا تزكِّي النفس، ولا تنهي عن فحشاء أو منكر. يستغلُّون هذا ليقولوا: إن الغرض من الأديان وعقائدها وعباداتها، إنما هو إصلاح النفس، وتربية الضمير، واستقامة الخُلُق. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة بأيِّ وسيلة أخرى كالتهذيب النفسي المجرَّد، والتربية الأخلاقية المدنية، فلسنا بحاجة إلى العبادة والشعائر والصلوات والمناسك، فإنما هذه وسائل لا غايات. وقد انتهينا إلى الغاية التي يريدها الله منا، فما تشبُّثنا بالوسيلة وما حاجتنا إليها؟

هذه هي الدعوة الجاحدة الماكرة التي ذهب إليها بعض المتفلسفين قديمًا وبعض المنحرفين حديثًا. وهي دعوة باطلة يُراد بها باطل.

صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقَّة وليس علة لها:

أما أنها دعوة باطلة؛ فلأن العبادة مطلوبة لذاتها، وغاية في نفسها، بل هي ـ كما أوضح القرآن ـ مراد الله من خلق المكلَّفين إنسًا وجنًّا، بل هي الغاية وراء خلق السماوات والأرض: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ

QaradawiBooks.com

مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والمقصود الأول من العبادة ـ كما ذكرنا ـ هو أداء حقِّ الله عز وجل.

والمقصود بالعبادة أن يعرف الإنسان نفسه فقيرًا لا حول ولا قوة له إلا بربِّه، ولا اعتماد له إلا عليه، ولا قيام له بذاته، ويعرف ربَّه عليًّا كبيرًا، غنيًّا عن العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

إظهار العبودية لربِّ العالمين، وامتثال أمره سبحانه فيما تَعبَّد به خلقه، هو علَّة العبادات كلِّها من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وتلاوة وذكر ودعاء واستغفار، واتباع للشريعة، والتزام بأحكام الحلال والحرام. أما صلاح النفس وزكاة الضمير واستقامة الأخلاق، فهي ثمرة لازمة للعبادة الحقَّة؛ وليست علة غائية لها؛ لهذا قال تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالتعبير بـ«لعل» هنا التي تفيد الترجي ـ دون التعبير بلام التعليل أو «كي» ـ يفيد أن العبادة أو الصيام تجعلهم على رجاء التقوى وتعدُّهم لها.

وحتى لو ذكر التعليل صريحًا، ما أفاد ذلك ترك العبادة إذا لم تؤدِّ إلى التقوى، وإنما تفيد إعادة النظر في العبادة وإحسانها حتى تؤتي أُكُلها من تقوى الله وخشيته. ولو فرضنا أن قلنا لفلاح: ازرع لتحصد. فزرع ولم يحصد الحصاد المرجوَّ لتقصيره في بعض ما كان واجبًا عليه أن يرعاه، لم يكن معنى ذلك أن نقول له: اترك الزرع والغرس. مع أنه مهنته التي

QaradawiBooks.com

لا وظيفة له غيرها. وكلُّ ما يقال له: ابذل جهدًا أكثر، ووفِّ عملك حقَّه من الإتقان؛ لتحصل على ثمرة أفضل.

وهذا ما أجاب به الرسول الكريم ﷺ، حين ذكروا له قومًا يصلُّون ولكنهم يقومون بأمور لا تليق بمَن يقيم الصلاة، فقال لهم: «**إن صلاتهم ستنهاهم**»(١)!

ولو أن إنسانًا صلَّى الصلوات الخمس، أو صام رمضان مثلًا، ولم يقصد في ذلك إلا تزكية نفسه، وتربية خُلُقه دون الالتفات إلى حقِّ الله عليه، والقيام بواجب العبودية له جلَّ شأنه، ما كانت هذه الصلاة وذاك الصيام إلا عادة من العادات لا يؤبه لها في ميزان الحقِّ، ولا تحظى بذرَّة من القبول عند الله.

مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة:

ذلك أن للعبادة ـ كما قال الإمام الشاطبي ـ مقصدًا أصليًّا ومقاصد تابعة، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجُّه إلى الواحد المعبود، وإفراده بالقصد إليه في كلِّ حال: ويتبع ذلك قصد التعبُّد لنيل الدرجات في الآخرة أو ليكون من أولياء الله تعالى، وما أشبه ذلك. ومن المقاصد التابعة للعبادة: صلاح النفس، واكتساب الفضيلة.

قال الشاطبي: «فالصلاة مثلًا، أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه، بإخلاص التوجُّه إليه، والانتصاب على قدم الذلَّة والصَّغَار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]،

(١) رواه أحمد (٩٧٧٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والبزار (٩٢١٧)، وابن حبان في الصلاة (٢٥٦٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٨٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله أكبر وأعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر؛ لأن ذكر الله هو المقصود الأصلي. وفي الحديث: «**إن المصلي يناجي ربه**»(١).

ثم إن لها مقاصد تابعة؛ كالنهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا، كما في الخبر: «**أرحنا بها يا بلال**»(٢)، وفي «الصحيح»: «**وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة**»(٣). وإنجاح الحاجات، كصلاة الاستخارة، وصلاة الحاجة، وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي الفائدة العامة الخالصة، وكون المصلي في خفارة الله. وفي الحديث: «**مَن صلَّى الصبح لم يزل في ذمة الله**»(٤). ونيل أشرف المنازل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فأعطي بقيام الليل المقام المحمود.

وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية، وهي كلُّها تابعة للفائدة الأصلية، وهي الانقياد والخضوع لله»(٥).

ولا حرج على المؤمن أن يطلب بعبادته الفوائد الأخروية، من الفوز بالجنة والنجاة من النار؛ فإن هذا داخل تحت معنى الرجاء في مثوبة الله،

---

(١) رواه أحمد (٥٣٤٩)، وقال مخرجوه: حديث صحيح. والبزار (٦١٤٨)، وابن خزيمة في الصيام (٢٢٣٧)، عن ابن عمر.

(٢) سبق تخريجه صـ١٣٦.

(٣) سبق تخريجه صـ١٣٦.

(٤) رواه مسلم في المساجد (٦٥٧)، والترمذي في الفتن (٢١٦٤)، عن جندب بن عبد الله.

(٥) الموافقات (٣٩٩/٢، ٤٠٠)، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م..

QaradawiBooks.com

والخشـــية من عذابه، وهو ضرب من العبودية لربِّ العالمين، والخوف والرجاء بهذا المعنى لا يقدح في الإخلاص لله، كما بيناه من قبل.

أما الفوائد الدنيوية، فلا يجوز أن تكون الباعث الوحيد للعبادة، سواء أكانت مادية أم معنوية.

وقد أنكر الراســخون من العلماء ما كان يشيع في رحاب التصوف، وبَيْن بعض أتباعه ومريديه من التعبُّد بقصد تجريد النفس، وتصفيتها من الشــواغل والعلائق، لتكون أهلًا للاطـلاع على عالــم الأرواح ورؤية الملائكة، وخــوارق العادات، ونيل الكرامــات، والحصول على «العلم اللدني» الموهوب من لدن الله، وما أشبه ذلك.

أنكروا هذا وقالوا: إنه خروج عن طريق العبادة، وتخرص على علم الغيب، ويزيد بــأن جعل عبادة الله وســيلة إلى ذلك، وهــو أقرب إلى الانقطاع عن العبادة؛ لأن صاحب هذا القصــد داخل ـ بوجه ما ـ تحت قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. كذلك هذا؛ إن وصل إلى ما طلــب فرح به، وصار قصده من التعبُّد؛ فقوي في نفســه مقصوده وضعفت العبــادة. وإن لم يصل رمى بالعبادة، وربما كذَّب بنتائج الأعمال التي يهبها الله لعباده المخلصين.

وقد روي أن بعض الناس ســمع بحديث: «**مَــن أخلص لله أربعين صباحًا، ظهــرت ينابيع الحكمة من قلبه على لســانه**»[1]. فتعرَّض لذلك لينال الحكمة، فلم يفتح له بابها. فبلغــت القصة بعض الفضلاء، فقال: هذا أخلص للحكمة ولم يخلص لله!

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٨٥)، وابن المبارك في الزهد (١٠١٤)، عن مكحول مرسلًا.

QaradawiBooks.com

والخلاصة أن كلَّ دعوة تغفل المقصد الأصلي في العبادات، وتهيل تراب النسيان عليه، وتشـيد بالمقاصد الفرعية التابعة، وتسلِّط الأضواء عليها وحدها، هي دعوة باطلة؛ لأنها تضادُّ القصد الأول من العبادة، بل القصد الأول من الدين، بـل القصد الأول من خلق الناس، بل من خلق السماوات والأرض.

استكبار عن عبادة الله:

وأما مـا وراء هذه الدعوة من أغـراض خبيثة؛ فـإن أربابها يبطنون إلحادًا وكفرًا واستكبارًا على الله، واسـتنكافًا عن عبادته، ويخفون ذلك تحت سـتار التحمُّس للأخلاق المجرَّدة، والفضيلة الذاتية، كما يخفى السم الزعاف في الحلو والدسم. فما أجدر هؤلاء بوعيد الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

وما أجدر هؤلاء المتكبِّرين علـى الله أن يُحرموا من نور الهداية إلى الحقِّ، واسـتبانة طريق الرشـد، فإن الكبر يعمي ويصـم، وصدق الله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إن الله تعالى ليس في حاجة إلى عبادة أحد من خلقه؛ فهو سـبحانه غني عن العالمين. وعبَّاد الله ليسـوا قليلين، فالكـون كلُّه يعبد الله بلغة

QaradawiBooks.com

نجهلها نحن البشر، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وحسبنا من العقلاء العابدين الملائكة في السماوات السبع وفي كلِّ مكان: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، فأين موضع هؤلاء الذين حسبوا أنفسهم كبراء على عبادة الله؟ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق

إننا لا ننكر أن للخُلُق والضمير مكانة أي مكانة في الإسلام، وأن الخلق مقوم أصيل من مقومات الشخصية الإسلامية، وأن أبرز ما أثنى به الله على محمد رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأن الرسول ﷺ قال في بعض أحاديثه: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١).

لا ننكر شيئًا من هذا؛ وإنما الذي ننكره أن يقال: إن عبادة الله ما هي إلا أداة - مجرَّد أداة - لتربية ما أسموه الضمير. وليست هي الأداة الوحيدة؛ بل ليست الأداة المفضَّلة في نظر هؤلاء!

إننا ننكر أن يقوَّم فضل إنسان فلا يجعل لعبادة الله وزن في تقويمه وتقديره. وهذا ما حذَّر منه الرسول ﷺ وتنبأ به حين قال: «**يأتي على الناس زمان يُقال للرجل فيه: ما أظرفه! ما أعقله! ما أجلده! وما في قلبه مثقال حبَّة من إيمان**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/٦١٣)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤٣)، عن حذيفة بن اليمان.

QaradawiBooks.com

إننا نقرأ القرآن وهو يرسم صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فنجد العبادة أول مَعْلم واضح فيها، ففي سورة المؤمنون يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٩]. فانظر كيف جعل أول أوصافهم الخشوع في الصلاة، وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي عبادة، مع الفضائل الخلقية الأخرى.

وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٣٤]. فهنا أيضًا بدأ بالصلاة وختم بها، وأضاف إليها التصديق بيوم الدين، والإشفاق من عذاب الله، بجوار الصفات الخُلُقية الأخرى.

وقد يبرز القرآن أحيانًا جانب العبادة، وأحيانًا جانب الأخلاق؛ لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز. ففي سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٦ ـ ١٩].

QaradawiBooks.com

وفي سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية ـ لمناسبة أولي الألباب ـ مثل: الوفاء، والصلة، والصبر، والإنفاق. لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرَّد أخلاق «مدنية»، وإنما هي أخلاق «ربانية» أو «دينية». أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى، فهم إنما يوفُّون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، وإنما يصلون ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، وإنما يصبرون ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر.

ومَن أراد الإنصاف والإصلاح فلينهج نهج القرآن الحكيم؛ حيث ينظم العقائد والعبادات والأخلاق والأعمال الطيبة كلَّها في سلك واحد ينتظم منه عقد جميل، هو صفات المؤمن البار التقي.

نجد ذلك فيما ذكرناه من آيات في سور شتَّى، وفي غيرها من السور «لوحات» كثيرة تصور لنا المؤمنين الصادقين، نكتفي منها باثنتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

QaradawiBooks.com

جمعت الآية لهم بين العقيدة التي تتجلَّى في الإيمان بالله وما بعده، وبين العمل الذي يتجلَّى في إيتاء المال على حبِّه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبين الأخلاق التي تتجلَّى في الوفاء والصبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٥]، وهي باقة جمعت كلَّ الأوصاف الطيبة، وأغنت عن كلِّ تعليق.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

عبادة المؤمن لون من الأخلاق وأخلاقه لون من العبادة

وخلاصة ما نقوله هنا: إن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم. وكلُّها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس.

ومن أجل ذلك نجد القرآن يعقِّب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الجمل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، والصدق فضيلة خلقية خالصة، وإنما استحقُّوها ـ بل جعلت مقصورة عليهم ـ لأن أعلى مراتب الصدق، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله ربِّ العالمين.

وإذا كانت العبادة عند المؤمن لونًا من الأخلاق المحمودة، فالأخلاق عنده لون من العبادة المفروضة. فهي ـ كما ذكرنا ـ أخلاق ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثوبته، فهو يصدق الحديث، ويؤدِّي الأمانة، ويفي بالعهد، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس، ويغيث اللهيف، ويعين الضعيف، ويرحم الصغير، ويوقِّر الكبير، ويرعى الفضيلة في سلوكه: كلُّ ذلك ابتغاء وجه ربِّه، وطلبًا لما عنده تعالى. وقد تلونا في ذلك آيات من القرآن، ونكتفي هنا

QaradawiBooks.com

بما وصف الله به الأبرار من عباده، من البذل والرحمة والإيثار، إذ قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، ثم يكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم، وطوايا نفوسهم، فيقول معبِّرًا عن لسانهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠].

ثم إن أخلاق المؤمن عبادة من ناحية أخرى، هي أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع هو أمر الله ونهيه. فالضمير وحده ليس بمعصوم، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال[1].

والعقل وحده ليس بمأمون؛ لأنه محدود بالبيئة والظروف، ومتأثِّر بالأهواء والنزعات، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخُلُقي دليل واضح على ما نقول.

والعرف لا ثبات له ولا عموم؛ لأنه يتغيَّر من جيل إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم.

لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضلُّ ولا ينسى، ولا يتأثَّر ولا يجور. وذلك هو حكم الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وخلاصة الخلاصة: أن المؤمن لا يعبد الله ليكون بذلك فاضلًا، ولكنه يكون فاضلًا ليعبد بذلك الله، وبينهما فارق لو يعلمون عظيم!

* * *

(١) انظر: الإيمان والحياة صـ ٢٣١، مبحث: خرافة الضمير بلا إيمان، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٨، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

الإصلاح الإسلامي في مجال العبادة

- تمهيد.
- لا يُعبد إلا الله.
- تحرير العبادة من رق الكهنوت.
- إخلاص القلوب أساس القبول.
- لا يُعبد الله إلا بما شرع.
- التوازن بين الروحية والمادية.
- اليسر ورفع الحرج.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

تمهيـد

إن لعنة الجاهلية لم تَدَع شـيئًا دون أن تصيبه بالعقم والفسـاد. أفسـدت العقائد والأفكار، وأفسدت العبادات والشـعائر، وأفسدت الأخلاق والآداب، وأفسـدت النظم والتقاليد، وأفسدت الحياة كلَّها، ولم يبقَ شـيء من دين الله المنزَّل على أنبيائـه إلا ناله رذاذ من هذا الشرِّ المستطير.

وحينما أراد الله أن يبعث خاتم رسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كلِّه، كان في العالم ألوان من الشـعائر والعبـادات، بعضها بقايا أديان سـماوية قديمة، وبعضها إضافـات، وابتداعـات أرضية جديدة، بعضها مسخت صورته ومعناه، وبعضها بقيت صورته وإن مسخ معناه، فلم يعد يوجَّه إلى مستحقِّه وهو الله، وإنما يتوجَّه به العابدون إلى إله أو آلهة أو سماسرة آلهة في الأرض أو في السماء!

أديان بالغت في الرسـوم والشـكليات ففقدت الروح والإخلاص، وأديان تحرَّرت من كلِّ رسم وشكل، ففقدت معنى التعبُّد والابتلاء.

أديان تشـدَّدت وتعنَّتت وتزمَّتت حتى لكأنها إصر وأغلال، وأخرى ترخصت وغلت في الترخُّص، حتى لكأنها لهو ولعب.

QaradawiBooks.com

وجاء الإسلام، فلم يمِل مع الغالين، ولم ينحرف إلى المقصرين، بل شرعه الله، ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، لا عوج فيه، ولا غلو ولا تقصير، بل كان كما خاطب الله رسوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

أجل، جاء الإسلام بعدَّة توجيهات ومبادئ إصلاحية كانت هي حجارة الأساس، التي يقوم عليها صرح العبادة الشعائرية في الإسلام، ونحن نذكرها فيما يلي من الصفحات.

* * *

نسخة مجانية للطباعة

QaradawiBooks.com

لا يُعبد إلا الله

منذ أكثر من ألفي سـنة قال المؤرخ اليوناني المشهور بلو تارك بعد فحص واسـتقراء: «من الممكن أن نجد مدنًا بلا أسوار، ولا ملوك ولا ثروة، ولا آداب ولا مسارح. لكن لم يرَ إنسـان قط مدينة بلا معبد، أو لا يمارس أهلها العبادة».

وما سـجَّل التاريخ هذه الحقيقة إلا لأن الاتجاه إلى الخالق الأعلى مركوز في الفطرة البشـرية، نابع من أعماق النفس. غير أن هذا الشعور الأصيل كثيـرًا ما أخطأ الطريق إلـى معبوده الحـقِّ «الله جل جلاله»، وجرفته تيارات الجهل أو الغفلـة أو التضليل، فعبد غيـر الله، أو عبد معه آلهة شتَّى، أو عبده بغير ما شرعه ورضيه من صور التعبُّد.

ولذا كانت مهمة الرسـل أن يوجهوا الفطرة وجهتها السليمة إلى الله، وأن يحفظوا ذلك الشـعور الأصيل من الانحراف، حتى لا يعبد الإنسان إلا الله، ولا يشرك به شيئًا، ولا يتَّخذ بعض المخلوقات أربابًا من دونه.

وفي الفتـرات التي طال فيها الأمد على دعوة الرسـل فنُسـيت أو حرِّفت، ضلَّ الناس وعبدوا أنواعًا من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها.

QaradawiBooks.com

فهناك قوم عبدوا الشمس، كما حكى القرآن عن ملكة سبأ وقومها على لسان هدهد سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

ومنهم مَن عَبَدَ القمر والكواكب، كقوم إبراهيم، ومَن بعدهم من الصابئة.

ومنهم مَن عبد النار، كالمجوس الذين بنوا لها البيوت الكثيرة، ووقفوا لها الأوقاف، واتَّخذوا لها السدنة والحجَّاب، فلا يَدَعونها تخمد لحظة واحدة. ومن عبادتهم لها: أن يحفروا لها أخدودًا مربعًا في الأرض ويطوفون به. وهم أصناف مختلفة: فمنهم مَن يحرم إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها، وهم أكثر المجوس. وطائفة أخرى منهم تبلغ بهم عبادتهم لها أن يقرِّبوا أنفسهم وأولادهم لها!

وهناك طائفة عكس هؤلاء عبدوا الماء من دون الله، وتسمى «الحلبانية» وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وطهارة وعمارة، كان حقه أن يُعبد!

وهناك طوائف كثيرة عبدوا الحيوانات: فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، كقدماء المصريين قديمًا الذين عبدوا عجل أبيس، وكالهندوس حتى اليوم.

وهناك طائفة عبدت البشر الأحياء والأموات.

وطائفة عبدت الشجر، وطائفة عبدت الجن، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وهناك مَن عبد الأصنام والأوثان. وهذا داء قديم منذ عهد قوم نوح، الذين اتخذوا من دون الله ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا. وقد روى

QaradawiBooks.com

ابن عباس أنها كانت في الأصل صورًا لبعض موتاهم الصالحين، اتَّخذوها لتذكُّرهم بهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوها(١).

وفي بلاد كالهند، قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس الميلادي، وأصبح عدد الآلهة في هذا القرن (٣٣٠) مليون. وقد أصبح كل شيء رائع، وكل شيء جذاب، وكل مرفق من مرافق الحياة، إلهًا يعبده الناس! وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر، وأربت على العد(٢).

وكانت عبادة الأصنام قد انتشرت في ديار العرب قبل الإسلام انتشارًا ذريعًا. قال ابن إسحاق: واتَّخذ أهل كلِّ دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد رجل منهم سفرًا تمسَّح به، وإذا قدم من سفر تمسَّح به، فيكون آخر عهده به وأول عهده به(٣).

وقال أبو رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجرًا هو أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به(٤).

وكذلك قال عمرو بن عبسة: كنت امرأً ممن يعبد الحجارة؛ فينزل الحي ليس معهم إله، فيخرج الرجل منهم، فيأتي بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره، ويجعل أحسنها إلهًا يعبده، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل، فيعتزله ويأخذ غيره(٥)!

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٨٣/١).

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبي الحسن الندوي صـ ٤٩، نشر مكتبة الإيمان، المنصورة.

(٣) رواه البخاري في التفسير (٤٩٢٠).

(٤) رواه البخاري في المغازي (٤٣٧٦).

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات (٢١٧/٤)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

ترى أي هوان أصاب الإنســـان وأي ضـــلال لَحِقَه حتى ركـب هـذه الأضاليل؟

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعن بســيفه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وهي تتســاقط على رؤوسها، ثم أمر بها فأُخرِجَت وحُرِقَت.

حتى القوم الذين كانوا قريبــي العهد بالكتب الســماوية والنبوات الهادية ـ وهم اليهود والنصارى ـ ضلُّوا طريق التوحيد، وزحفت عليهم الوثنيات، فأفسدت عليهم دينهم.

فاليهود فسد تصورهم للألوهية، ونسبوا إلى الله ما لا يجوز أن يُنسب إليه من صفات النقص، فهو تعالى عما يقولــون ـ يجهل ويندم ويتعب ويُصارع ويُصرعَ إلى آخر ما في أسفار العهد القديم.

والنصارى غزتهم الوثنية، فتســرَّب دين المسيح من بين أيديهم، كما يتســرَّب الماء من بين الأصابع! والمؤسف حقًّا أن ديانة المسيح الحقَّة لم تكد تعيش على سلامتها وتوحيدها إلا فترة قصيرة جدًّا، ثم رزئ تاريخها برجلين حرَّفاها شرَّ تحريف: أحدهما: رجل دين. والثاني رجل مُلك.

فالأول: هو سانت «بولس» الذي طمس معالمها وأطفأ نور التوحيد فيها، وطعَّمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها، والوثنية التي تأثَّر بها.

والثاني: هو الملك قســطنطين الذي قضى على البقيــة الباقية، فقد جمع الأســاقفة والبطارقة ليتناظروا ويخلصوا إلى عقيدة يتَّفقون عليها.

QaradawiBooks.com

وقد انتهوا إلى تلك العقيدة العجيبة[١]: الإيمان بالله الواحد الأب، وبالربِّ يسوع المسيح ابن الله! إله حق من إله حق! تجسد من رُوح القدس وصار إنسانًا وحُمل به ثم وُلِد من مريم البتول، وأَلِمَ وشُج وقُتل وصُلب ودُفن، إلخ.

وهكذا أصبحت النصرانية مزيجًا من الخرافات اليونانية، والوثنية الرومية، والأفلاطونية المصرية.

والمهم أن القوم عبدوا المسيح الذي كان من أشد الناس عبادة لله واعترافًا بعبوديته لربِّه! واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية، كما يقول «سيل» ـ مترجم القرآن إلى الإنجليزية ـ عن نصارى القرن السادس[٢].

دعوة الإسلام إلى عبادة الله وحده:

ذلك هو الشرك الذي طمَّ سيله في الآفاق قبل الإسلام. وتلك هي الوثنية الجاهلية التي سادت العالم القديم، فماذا كان موقف الإسلام من الشرك بكلِّ مظاهره وأنواعه؟

لقد جاء الإسلام يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة كلِّ ما سواه ومَن سواه من الآلهة المزعومين، والأرباب المزيفين، سواء أكانوا من البشر أم من الجنِّ أم أي عالم من عوالم المخلوقات العلوية والسفلية. إن رُوح الإسلام هو التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة، وإن عنوان الإسلام هو تلك الكلمة العظيمة التي

(١) التي اتخذها مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

(٢) Sale's Translation. (١٨٩٦)، نقلًا عن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـ ٣٢.

QaradawiBooks.com

هي أفضل ما قاله محمد ﷺ، والنبيون من قبله: «لا إله إلا الله». إحدى كلمتي الشهادة في الإسلام.

إن سرَّ الإسلام ـ على سعة تعاليمه ـ يتجلَّى في دستوره الخالد: القرآن الكريم، وسرُّ هذا الدستور يتركَّز في فاتحته: أم القرآن والسبع المثاني. وسرُّ هذه الفاتحة يتلخَّص في هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: أي لا نعبد شيئًا ولا أحدًا غيرك، ولا نستعين بكائن سواك.

إن أول وصية في القرآن، وأول مبدأ يبايع عليه الرسول كل مَن اعتنق دينه أن: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وأول ما دعا إليه رسول الإسلام ملوك الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى: أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وأن تُطرح الآلهة والأرباب التي اتَّخذها الناس من دون الله، فأذلُّوا أنفسهم لمَن لا يستحقُّ الذل والخضوع.

ومن هنا كان الرسول ﷺ يختم رسائله إلى قيصر والنجاشي، وغيرهما من أصحاب الملك والإمارة بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

بل أكَّد القرآن أن هذه الدعوة هي دعوة الرسل جميعًا، فكلُّهم دعا قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت. وكلُّ ما عُبدَ من دون الله فهو طاغوت. فهما معبودان لا ثالث لهما: إما الله وإما الطاغوت.

QaradawiBooks.com

ومَن استكبر عن عبادة الله سقط ـ حتمًا ـ في عبادة الطاغوت. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه مخاطبًا خاتم رسله محمدًا ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

شدَّد الإسلام حملته على الشرك، وقعد له كل مرصد، وحاربه بكل سلاح، وقرر أنه الإثم العظيم، والضلال البعيد، والجرم الأكبر، والذنب الذي لا يغفر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وفي «الصحيح»: «**مَن مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**»(١)، «**ومَن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومَن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**»(٢). كلُّ ذنب يمكن أن يغفره الله بفضله وكرمه، ويمكن أن يقبل فيه شفاعة الشافعين، إلا الإشراك بالله تعالى.

في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة**»(٣)!

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٤٩٧)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٩٣)، وأحمد (١٤٤٨٨)، عن جابر.

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب. عن أنس. وهو الحديث الأخير من أحاديث الأربعين النووية، وقال ابن رجب: إسناده لا بأس به. انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٤٠٠)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م. و«قراب الأرض»، أي ما يقارب ملأها.

QaradawiBooks.com

ففي هـــذه الآيـــات والأحاديث أن أهـــل التوحيد الخالـــص، الذي لا يشرك صاحبه بالله شيئًا ـ أي شـــيء ـ يُعفى لهم ما لا يُعفى لغيرهم؛ لأن التوحيد المحض يحرق الذنوب والخطايا وإن كانت مثل زبد البحر، كما أن الشرك يمحق الحسنات وإن كانت عدد الرمل.

لقد كان الإســـلام على الحقِّ ـ كل الحق ـ حين وقف موقفه الصارم من الشرك بكلِّ أنواعه. وحرَّم ـ أشد التحريم ـ أن تُوجَّه العبادة إلى غير الله جلَّ ثناؤه.

فالعبادة ـ كما قال ابن سيده ـ نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر ... لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة، ألا وهو الله سبحانه. فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله(1).

وقال الإمام الـــرازي: «إن العبادة عبـــارة عن نهايـــة التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام. وأعظم وجوه الإنعام: الحياة التي تفيد المُكنة من الانتفاع، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريـم: ٩]، وقولـــه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وخلق ما ينتفع به من الأشـــياء، وإليها الإشـــارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقـرة: ٢٩](2). ومثله قوله ســـبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمـان: ٢٠]. والحقيقة التـــي لا ريب فيها أن النعـــم التي تحيط

(١) المخصص (٦٢/٤).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٠٨/١) بتصرف.

غير مخصص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بالإنسان في كلِّ أطوار حياته، وتغمره من قرنه إلى قدمه، إنما هي من عند الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

يقول ابن القيم في «شفاء العليل»: «الربُّ تبارك اسمه، وتعالى جده ولا إله غيره، هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم، التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه.

فإيجادهم نعمة منه، وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه، وإدرار الأرزاق عليهم ـ على اختلاف أنواعها وأصنافها ـ نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم، ومحبته ومعرفته على قلوبهم، نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامه بمصالحهم دقيقِها وجليلِها نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم نعمة منه، وذكر نعمه تعالى على سبيل التفصيل لا سبيل إليه ولا قدرة للبشر عليه»(١).

فلهذا كان هو وحده الجدير بأن يُعبد، ولا يُشرك معه أحد ولا شيء في الأرض أو في السماء.

لم يكن الإسلام متعنتًا ولا متزمتًا إذن، حين قاوم الشرك إلى هذه الدرجة، فالشرك ـ في الحقيقة ـ هوان لا يليق بكرامة الإنسان. وأي هوان يصيب الإنسان أشد من هذا الشرك الذي يُسَخِّر الإنسان الْمُكَرَّم للحيوان والجماد، ويُخِيفه مما لا يُخاف، ويُرجِّيه فيما لا يرجى؟!

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل صـ ١١٤، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

ثم إن الشرك ـ فضلًا عما فيه من انحطاط وقذارة وهوان بالإنسان ـ هو كذب على الحقيقة، وتزوير على الواقع، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

أعلن الإسلام الحرب على هذا الشرك الضالّ المضلّ بكلّ ألوانه وأصنافه، ورفع من قيمة الإنسان، وأعلن أنه المخلوق المكرَّم المفضل المستخلف لله في الأرض، المصوَّر في أحسن صورة وأحسن تقويم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣]، ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

فكيف يسجد الإنسان لهذه المخلوقات وهي له مسخَّرة، وفي مصلحته وخدمته مذلَّلة؟ وكيف يسجد لها وقد سجدت الملائكة بأمر الله تحية له واحتفاء به، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٤].

أعلن الإسلام أنه ليس في العالم المخلوق شيء يستحقُّ أن يسجد له الإنسان أو يتضرَّع إليه أو يرجوه أو يخشاه!

QaradawiBooks.com

فالملائكة عباد لله خاشعون خاضعون: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨].

والبشر ـ وإن علا سلطانهم، أو عظم قدرهم، أنبياء كانوا أم سلاطين ـ هم أيضًا عباد لله، لا يملكون لأنفسهم، فضلًا عن غيرهم، ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

والعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

والشمس والقمر والنجوم إن هي إلا كواكب مسخرات بأمره تعالى، لا يجوز أن ينحني صُلبٌ من أجلها راكعًا، أو يخرَّ وجه من أجلها ساجدًا، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وكلُّ ما يُدْعَى من دون الله في الأرض أو السماء، هو مخلوق عاجز لا قدرة له، محتاج لا قيام له بذاته، ضعيف لا يقوى على حماية نفسه ولا غيره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ

QaradawiBooks.com

ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

سد الذرائع المفضية إلى الشرك:

وقد احتاط الإسلام كلَّ الاحتياط، فسدَّ كلَّ ذريعة تُفضي إلى الشرك أو مشابهة المشركين.

فنجد نبي الإسلام ﷺ يرفض في شدة وصراحة كلَّ مبالغة في تعظيمه تظهره في غير مظهر العبودية لله، التي لا يفخر بغيرها. فيقول لأصحابه: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

وروى النسائي، عن ابن عباس: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ. فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده**»(٢).

وروى الطبراني، أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «**إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله**»(٣).

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، عن عمر.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٩)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٧٥٩)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، عن ابن عباس.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٢٧٦): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث. عن عبادة بن الصامت.

QaradawiBooks.com

وهكذا علَّمهم النبي ﷺ، أن يعطوا كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فالعبد عبد والربُّ ربٌّ.

وروى النسائي، عن أنس ـ بسند جيد ـ أن أناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. فقال: «**يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عَزَّ وَجَلَّ**»(١)، وفي رواية أنه قال لهم: «**السيد الله تبارك وتعالى**»(٢).

إن الجماهير دائمًا تميل إلى الغلو في تعظيم القادة، بعضهم عن إخلاص، وبعضهم عن ملق. فكيف إذا كان القائد نبيًّا؟ وكيف إذا كان سيد النبيين؟! ولكن النبي ﷺ لقّنهم درسًا ألا يتجاوزوا به حدَّ العبودية: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**»(٣)، كما علَّمهم أن يعلنوا كلَّ يوم تسع مرات، في الصلوات المفروضة، فضلًا عن السنن والنوافل كلما جلسوا للتشهد: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**»(٤).

لا تتخذوا القبور مساجد:

إن الغلو في تعظيم الصالحين والقديسين في حياتهم، والتبرك بآثارهم وقبورهم بعد مماتهم، هما أوسع أبواب الشرك بالله، وقد سدَّهما

(١) رواه أحمد (١٣٥٢٩)، وقال مخرجوه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٧٨)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٦٣١٦)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٠٦)، عن عبد الله بن الشخير.

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٠)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

النبي ﷺ سدًّا منيعًا. فلم يقرَّ أحدًا على الغلو في تعظيمه حيًّا أو تعظيم قبره ميِّتًا، بل دعا ربَّه فقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

وعن عليِّ بن الحسين ـ زين العابدين ـ رضي الله عنهما، أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم ليبلغني أينما كنتم**»(٢).

وفي «الصحيح» عن عائشة، أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ـ أو العبد الصالح ـ بنَوا على قبره مسجدًا وصوَّروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله**»(٣).

فهؤلاء ـ كما قال العلماء ـ جمعوا بين فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

وروى الشيخان عنها، أن النبي ﷺ ـ وهو في اللحظات الأخيرة له يودع الدنيا ويستقبل الآخرة ـ كان يقول: «**لعنة الله على اليهود والنصارى؛**

(١) رواه مالك (٥٩٣) تحقيق الأعظمي، عن عطاء بن يسار مرسلًا، ورواه أحمد (٧٣٥٨)، وقال مخرجوه: إسناده قوي بنحوه. عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٦٩)، والضياء في المختارة (٤٢٨)، وقال: في إسناده لين. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨٤٧): فيه حفص بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحا، وبقية رجاله ثقات. وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢١/٤)، وقال الألباني في تخريج فضائل الشام صـ ٥٢: صحيح بطرقه وشواهده.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٤)، ومسلم في المساجد (٥٢٨).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١]. يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرِز قبره، غير أنه خُشِي أن يُتَّخذ مسجدًا.

وكلُّ هــذا احتياط مــن النبي ﷺ لأمتــه، فالقليل يجرُّ إلــى الكثير، والصغير يدفع إلى الكبير، فربما تدرَّج بهم الأمر إلى تلك القبور فعظَّموها مع الله. وأصبحت شــبيهة بالأصنام تبركًا وتمســحًا بها، وطوافًا حولها، وتقبيلًا لجوانبها، والتماسًا للبركات عندها أو منها، كما يفعل ذلك اليوم بعض الضالين من المسلمين، ويعتذر لهم بعض الخادعين أو المخدوعين.

وقد روى أهل العلم فــي أصنام قوم نوح: «ود، وســواع، ويغوث، ويعوق، ونسر» أنها أسماء قوم صالحين، لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم!

وقد أنكر أصحاب الرسول ﷺ كل ما يُشْتَمُّ منه رائحة التقديس لمكان أو شيء من مخلوقات الله، فعن المعرور بن سويد قال: صليتُ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في طريــق مكة صلاة الصبح ... ثــم رأى الناس يذهبون مذهبًا، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فهم يصلُّــون فيه. فقال: إنما هلك مــن كان قبلكم بمثل هذا؛ يتَّبعون آثار أنبيائهم ويتَّخذونها كنائس وبِيَعًا، فمَن أدركته الصلاة منكم في هذه المســاجد فليصلِّ، ومن لا، فليمضِ ولا يتعمَّدها[٢]. وكذلك أرســل عمر رضي الله عنه، أيضًا فقطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله ﷺ[٣].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٣١)، عن عائشة وابن عباس.

(٢) رواه ابن وضاح في البدع (١٠٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (٥٧٠٨)، وصححه الألباني في فضائل الشام (١٨/١).

(٣) رواه ابن وضاح في البدع (١٠٢)، وصححه الألباني في فضائل الشام صـ ١٨.

QaradawiBooks.com

كما نهى الرسول الكريم ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس أو عند زوالها أو عند غروبها[١]؛ بعدًا بالمسلم عن مظنَّة المشابهة لعبَّاد الشمس الذين يسجدون لها في هذه الأوقات.

لا حلف إلا بالله:

ومما منعه النبي ﷺ: أن يحلف المسلم بغير الله تعالى، فالحلف تعظيم وتقديس للمحلوف به، ولا ينبغي أن يكون التعظيم والتقديس إلا للخالق جلَّ وعلا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**مَن كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله**»[٢]، «**مَن حلف بغير الله فقد أشرك**»[٣]، «**لا تحلفوا بآبائكم**»[٤]. وكانوا يحلفون فيقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ، إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبة[٥].

لا ذبح ولا نذر إلا لله:

وحرَّم الإسلام على المسلم أن يذبح لغير الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لعن الله مَن ذبح لغير الله**»[٦].

---

(١) كما جاء في الحديث المتفق عليه: نهى رسول الله ﷺ عن صلاتين: بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس. رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٨٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٢٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٣٦)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦)، عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد (٥٥٩٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وقال: حديث حسن. والحاكم (٢٩٧/٤)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الأيمان والنذور، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٢)، عن ابن عمر.

(٤) الحديث قبل السابق.

(٥) رواه أحمد (٢٧٠٩٣)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وصحح إسناد النسائي ابن حجر في الإصابة (٢٨٤/٨)، عن عبد الله بن يسار.

(٦) رواه مسلم في الأضاحي (١٩٧٨)، وأحمد (٨٥٥)، عن علي.

QaradawiBooks.com

وقد جعل من الأطعمة المحرمة ما أُهِلَّ لغير الله به ـ أي رفع الصوت عند ذبحه باسم غير الله ـ وكذلك ما ذُبح على النُّصب[1].

وهكذا حمى الإسلام جناب التوحيد، وسدَّ منافذ الشرك.

أوثان جديدة يجب الحذر منها:

ومن واجبنا ونحن نُبيِّن تحذير الإسلام من الشرك بكلِّ صوره: أن ننبِّه على أوثان جديدة غزت عقيدة التوحيد الخالصة في هذا العصر. إن بعض السطحيين من المتدينين أنفسهم يحصرون الشرك وعبادة غير الله في صورة واحدة، هي الوثنية التقليدية التي تتمثَّل في عبادة إله أو آلهة مجسمة أو منظورة، تُقدَّم الصلوات والقرابين إليها، وتُلتمس المنافع والبركات من بين يديها.

ونسي هؤلاء أن الشرك مراتب وأنواع، وأن الأصنام منها ما يُرى ومنها ما لا يُرى، وأن العبادة منها التقليدي وغير التقليدي.

من الشرك أكبر وأصغر، ومنه جليٌّ وخفيٌّ. بل منه ما هو أخفى من دبيب النمل على الصفا.

ومن الأوثان ما يعبده الناس ويقدمون له الولاء، وإن لم يسموه وثنًا أو إلهًا أو ربًّا. ولم يسموا ما يقدمونه إليه عبادة. ولكن العبرة بالمقاصد لا بالألفاظ، وبالمسميات لا بالأسماء.

لهذا حذَّر الإسلام من الشرك كلِّه: أكبره وأصغره، جليِّه وخفيِّه، وأغلق كلَّ المنافذ التي تهبُّ منها ريحه السموم، حمايةً لحِمَى التوحيد.

(١) انظر كتابنا: الحلال والحرام صـ ٥٦.

QaradawiBooks.com

حتى رأينا النبي ﷺ يعد الرياء شركًا[١]، ويعتبر القسم بغير الله شركًا[٢]، وينكر على مَن قال له: ما شاء الله وشئتَ، يا رسول الله. فيقول له: «**أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده**»[٣]، وينهى أن يقول المسلم: هذه لله وللرحم، أو لوجه الله وفلان[٤]. فإن الله لا يقبل الشركة، وإنه لأغنى الأغنياء عن الشرك، كما رأيناه ﷺ يعدُّ تقديس المقابر والأضرحة ضربًا من الوثنية؛ وهذا ما جعله يدعو ربَّه فيقول: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»[٥].

بل رأينا القرآن الكريم يلفتنا إلى «وثن» أو «إله» خطير، يتعبَّد له الملايين وهم لا يشعرون، وذلك هو «الهوى»: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وفي عصرنا هذا ظهرت أوثان ومعبودات شتى، أصبحت تمتلك قلوب الناس ومشاعرهم وولاءهم، بذكرها يهتفون، وباسمها يُقسمون، وفي سبيلها يجاهدون ويستشهدون. تلك هي أوثان الوطنية والقومية وما شاكلها.

تدخل المدارس والجامعات، وتشهد المؤتمرات والندوات، وتقرأ الصحف والمجلات، وتسمع برامج الإذاعات، فلا تكاد تسمع لله ذكرًا، أو

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٨٩/٧)، وفي الأوسط (١٩٦)، والحاكم في الرقاق (٣٢٩/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥)، عن شداد بن أوس.

(٢) سبق تخريجه صـ١٩٢.

(٣) سبق تخريجه صـ١٨٨.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٩٣٧)، والبزار في الزوائد (٣٥٦٩)، والدارقطني في الطهارة (١٣٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٥٢): رواه البزار عن شيخه: إبراهيم بن مجشر، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. عن الضحاك بن قيس.

(٥) سبق تخريجه صـ١٩٠.

QaradawiBooks.com

تجد له مكانًـــا، وإنما تجد معبودًا آخر، تـــدور حوله كلُّ الأفـــكار، وكلُّ المشاعر، وكلُّ الأعمال إلا القليل، أو أقل من القليل؛ إنه «الوطن» أو القومية ـ العروبة مثلًا ـ أو المجتمع، أو الدولة، أو غير ذلك من أصنام هذا العصر.

ومن السائد المنتشر الآن: البداءة باسم الوطن أو الشعب، وإن تكرَّم فباســـم الله واسم الشـــعب، والحلف باسم الوطن أو الشـــعب «أقسمتُ باسمكِ يا بلادي»، والجهاد في ســـبيل الوطن أو العروبة، فإن قتل فهو شهيد الوطن أو العروبة ونحوها.

وهذا هو أخطر أنواع الشرك التي دخلت على المسلمين من حيث لا يشعرون، وســـجلها الدارســـون الأيقاظ، بوصفها ظاهرة جديدة في حياة المسلمين.

يقول الأســـتاذ «برنارد لويس»: «كلُّ باحث في التاريخ الإســـلامي يعرف قصة الإســـلام الرائعة في محاربته لعبادة الأوثـــان منذ بدء دعوة النبي ﷺ، وكيف انتصر النبي ﷺ، وصحبـــه وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلَّت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية، وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى، ولكنها ليســـت ضد «اللات» و«العزى» وبقية آلهة الجاهلية، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها: الدولة، والعنصر، والقومية. وفي هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف الأصنام! فإدخال هرطقة القومية العِلمانية، أو عبادة «الذات الجماعية»، كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشـــرق الأوسط، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرًا وإعلانًا»[1].

* * *

(١) الغرب والشرق الأوسط لبرنارد لويس صـ ٩٣، ترجمة د. نبيل صبحي، لاجوس، ١٩٦٣م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

تحرير العبادة من رق الكهنوت

لقد أفسد الناس الأديان، أنزلها الله لتسمو بهم فهبطوا هم بها! والعجب أن فسادها كان من رجال الأديان أنفسهم. لقد جعلوا من أنفسهم حجَّابًا على باب الله الفسيح، مهمَّتهم أن يمنعوا الناس الاتصال المباشر به أو التقرُّب المباشر إليه، إنهم احتكروا لأنفسهم الصلة بالله والقرب منه. ووجدوها بضاعة رائجة، وسلعة تشتدُّ الحاجة إليها، فبالغوا في احتكارها وإغلاء أسعارها.

ومن ثم قيّدوا العبادات بمكان معين ـ يدخل في سلطتهم ـ لا تجوز إلا فيه، وقيّدوها بوسيط معين، يقوم بعملية السمسرة بين الله وعباده، وقيّدوها بمراسم وطقوس كهنوتية خاصة لا تُقبل بدونها.

وكلُّ هذا يحتاج إلى إتاوات تبذل، وجعالات تدفع للأحبار والكهنة، المحتكرين لهذا الصنف من العلاقات!

نسخة مجانية

رجال الكهنوت في العصور الوسطى:

وقد بالغ رجال الدين المسيحي بالغرب في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية فعلقوا في معابدهم رسومًا وتماثيل للعذراء والمسيح، وأيقونات ونحوها، وعدَّتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس.

QaradawiBooks.com

وكان أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدرًا للثروة يبيعون منها قراريط وأسـهمًا لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلـى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم. ومن الطرائف اللاذعة ما حكَوا أن أحد أثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمَرّ وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البابوات ولم يشترِ منه الجنة، كما كان يفعل المسـيحيون. ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هي جهنم! فباعها له بثمن بخس؛ لأنها سـلعة لا يرغب فيها أحد، ولكـن اليهودي الماكر أعلن للمسـيحيين جميعًا: ألا يبالوا بشـراء الجنة بعد اليوم، لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم، ولن يُدخـل أحدًا فيها! قالـوا: فعاد البابا واشـتراها بأضعاف ما باعها به!

وكل قـارئ للتاريخ يعـرف ثورة «لوثـر» علـى ما أسـمـوه: «صكـوك الغفران»[1].

والرؤسـاء الروحانيون في المسـيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخـال في رحمة الله والطرد منها؛ لأن المسيح قال لبعض تلاميذه: «سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكلُّ ما ربطته على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكلُّ ما حللته على الأرض يكون محلولًا في السماوات»[2].

---

(١) الذين يتعمقون في دراسـة التاريخ يعلمون حق العلم أن حركة الإصلاح الديني في أوروبا إنما يرجع الفضل في إيجادها إلى أثر الإسلام وعقيدة التوحيد، التي مست أوروبا نفحة منها عن طريق الصلات المختلفة في السلم والحرب. وقد كتب المرحوم الأستاذ أمين الخولي بحثًا في صلة الإسـلام بالإصلاح في المسيحية. وقد نشـر ضمن الأعمال الكاملة لأمين الخولي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء التاسع.

(٢) إنجيل متَّى (١٦/١٩).

QaradawiBooks.com

تحرير العبادة من قيود المكان:

أما الإسلام فكان له شأن آخر في تقرير الصلة بالله والعبادة له.

لقد حرَّرَ الإسلامُ العبادةَ من قيود الوساطة والمكان وكل مظاهر العبودية للكهنوت.

فالأرض كلها محراب كبير للمسلم، فحيثما توجه يستطيع أن يتَّجه بعبادته إلى الله؛ وفي هذا يقول القرآن العظيم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ويقول الرسول الكريم في بيان الخصائص التي أُعطيتها أمته ولم تعطها أمة قبلها: «**وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»[(١)].

وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان أنفسهم، حتى قال أحدهم، وهو الأسقف «لفروي»: «لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة، ألا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم؛ فإنك حيثما كنت سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل: كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلًا ليس عليه أدنى مسحة للرياء، ولا أقل شائبة من حبِّ الظهور، يَذَر عمله الذي يشغله كائنًا ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعيّن»[(٢)].

ولقد كان هذا المشهد الفريد في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير الأستاذ زكي عريبي، عميد الطائفة اليهودية في

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر.

(٢) انظر: الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد هامش صـ ٤٥٩، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزميليه، نشر مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٧٠م.

QaradawiBooks.com

مصر، الذي اهتدى إلى الإسلام في عام (١٩٦٠م). ومما جاء في محاضرته «لماذا أسلمتُ؟» قوله: «وما سمعتُ المؤذن يؤذن في الفجر أو في الظهر أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأن صوت المؤذن الذي ينبعث من الأفق من فوق المئذنة، شعرت بأنه صوت الله، الذي يفصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم. وأركب السيارة في السفر وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رثة مهلهلة، يقف على مصلى صغير، مفروش بالرقيق من الحصير على شاطئ ترعة متواضعة أيضًا. يقف الرجل يصلي لله في خشوع وابتهال، فكانت نفسي تهفو إلى أن أصلي مثل صلاته. كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عباده الصالحين»[1].

حرَّر الإسلام العبادة من القيود المكانية المتزمتة، ولم يشترط المكان الخاص في عبادة من عباداته إلا في الحجِّ، لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان، من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس، وفي أرض الذكريات الإبراهيمية، والذكريات المحمدية. إلى آخر ما سنذكر في أسرار الحج.

تحرير الضمير من قيود الوساطة في العبادة:

ومع اشتراك المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت. وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، وشأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

---

(١) انظر: لماذا أسلمت لمحمد عبد الله السمان صـ ٣٦، ٣٧، نشر دار الروضة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

يقول الأستاذ العقاد: «إن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها؛ فهي أرفعها وأرقاها بالنظر إلى حقيقتها، أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك مزيته البينة التي يرعى بها استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام حياة.

فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقَّف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة.

يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثمَّ وجه الله، ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله، ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمعوزين، ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة محراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفًا عندهم قبل ذلك.

إنه الدين الذي نتعلَّم فيه أن الإنسان مخلوق مكلَّف. لا جرم تقوم عباداته على رعاية حقِّ الضمير واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية»(١).

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكانًا لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون في ضمائر عباد الله. فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

أولاهما: الله فوق عباده:

أنه تعالى فوق عباده علوًّا وقهرًا، وسلطانًا وتصرُّفًا، لا يشبهه شيء، ولا يحكم عليه شيء، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ١١٢، نشر المكتبة العصرية، بيروت.

QaradawiBooks.com

عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]، والخلق جميعًا عبيد في قبضته، لا يملكون لأنفسهم ـ فضلًا عن غيرهم ـ ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

ويتمثل هذا العلو الإلهي على الخلق في آية من القرآن عرفت عند المسلمين بآية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والحقيقة الثانية: الله مع عباده:

أنه تعالى ـ مع عظمته وعلو شأنه ـ قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جلوتهم وفي خلوتهم، يسمع ويرى، ويرعى ويهدي، يعطي مَن سأله، ويجيب مَن دعاه، فهو تعالى قريب في علوه، عليٌّ في دنوه. وقد جمع تعالى بين العظمة والعلو، وبين القرب والدنو، في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقد عبَّر القرآن على لسان إبراهيم ـ أبي الأنبياء ـ عن العلاقة بين الإنسان والله فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢].

QaradawiBooks.com

وقال الله سبحانه مبينًا قربه من عبده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وروى المفسّرون أن رجلًا جاء يسأل النبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل القرآن يجيب عن هذا السؤال بهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦][1].

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سؤال الرسول ﷺ، عن بعض الأمور قد وقع في القرآن بضع عشـرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترنًا بكلمة: «قل»، مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكان مقتضى تلك الآيات أن يقال في هذه: وإذا سـألك عبادي عني فقل: إني قريب. ولكن أسلوب الآية خالف المعتاد، ولم يأمر الله رسوله أن يقول للناس ذلك، وقال سبحانه مباشرة: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ ولهذا الأسلوب دلالته وإيحاؤه في الأنفس والعقول؛ إذ لم يجعل الله واسـطة بينه وبين عباده؛ كأنـه قال لرسـوله: لا تبلغهم أنـت عني، كما تبلغ في أسـئلة الأحكام، ولكن دعني أنا أقول لهم: إني قريب!

ولما رأى النبي ﷺ أصحابه يجهرون بالدعاء، قال لهم: «**ارْبَعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ولكن تدعون سميعًا قريبًا**»[2].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٨٠/٣).

(٢) متفق عليـه: رواه البخاري في الجهاد والسـير (٢٩٩٢)، ومسـلم في الذكـر (٢٧٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

لا مكان للوسطاء في الإسلام:

وبهاتين الحقيقتين: أنه تعالى فوق عباده قهرًا وعلوًّا وسلطانًا، وأنه قريب منهم، بل معهم، علمًا وإحاطة، رعاية وإجابة، يتبين لنا أنْ لا مكان في الإسلام للوسطاء والسماسرة الذين يدَّعون الشفاعة عند الله، ويزعمون احتكار الوساطة لديه، ويبيعون ويشترون في خلق الله، كما يصنع أنصار الملوك الجبارين، والرؤساء المستبدين.

نعم، لا مكان لهؤلاء؛ لأن الله في عقيدة الإسلام أجَلُّ وأعلى من أن يكون له وسطاء أو شفعاء يعلمونه من أمر الناس بما لم يكن يعلم، أو يوجهون إراداته إلى ما لم يكن يريد، وهو سبحانه أكرم من أن يَدَع رحمته وجنته غنيمة لهؤلاء الدجاجلة المضللين، يوزعونها بالأسهم والقراريط، فله وحده الخلق والأمر، وله وحده الْمِلك والْمُلك، وله وحده العقوبة والعفو، وقد قال تعالى ردًّا على مَن زعم أن الملائكة أبناء الله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

وردَّ على مَن زعم من اليهود والنصارى: أن لهم منزلة خاصة من الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وحكى عن المسيح أنه يقول لربِّه يوم القيامة في شأن مَن ادعوا الانتساب إلى دينه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

QaradawiBooks.com

وعرَّف خاتم رسـله محمدًا ﷺ حدود وظيفته فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشـية: ٢١، ٢٢]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فهل بعد هـذا يمكن أن يعتقد المسـلم في وجود «وسـيط» يملك «التأثير» في إرادة الله ربِّ العالمين؟!

ثم لا مكان لهؤلاء الوسطاء أيضًا؛ لأن المسلم لا يشعر يومًا بحاجته إلى أحد منهم في الصلة بينه وبين ربِّه. إنـه يوقن أن الله أقرب إليه من نفسـه، وأنه معه حيث كان، وأنه يدنو منه كلَّ ليلة فينادي: هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من كذا؟ هل من كذا؟ وأنه تعالى يحب التوَّابين ويحبُّ المتطهرين، وأنه تعالى إذا تقرَّب عبده إليه شـبرًا تقرَّب هو إليه ذراعًـا، وإذا تقرَّب إليه ذراعًا، تقرَّب سبحانه إليه باعًا.

إنه يسـتطيع أن يكلم ربَّه بلا ترجمان، وأن يناجيه بما شـاء، حيث شـاء، ومتى شـاء، وأن يقف بين يديه بلا حجاب. فما حاجته إذن إلى ذلك الوسيط المزعوم؟

إن الوسـيط الفذ الذي يعترف به الإسـلام هو العمـل الصالح مع الإيمان: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

[النساء: ١٢٣، ١٢٤].

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

إخلاص القلوب أساس القبول

إن المبدأ الثالث الذي وضعه الإسلام في شأن العبادة: أن أساس القبول لأي عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى. فإن حقيقة العبادة ليست شكلًا يتعلق بالمظهر، ولا رسمًا يتصل بالجسد، ولكنها سرٌّ يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح، فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته، ولم يخلص لله في طاعته، وأدَّاها رسومًا خالية من الروح، كما ينطق الأبله بالألفاظ الخالية من المعنى؛ فهناك يردها الله عليه، كما يرد الصيرفي النقَّاد الدراهم الزائفة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

وقد افترى بعض المبشرين والمستشرقين على الإسلام، فزعموا أنه لا يُعنى إلا بالمراسم والأشكال في العبادات، ولا يعنى بالقلب والنية والضمير، ورد هذه الفرية عليهم مستشرقون آخرون لم يسلم الإسلام منهم أيضًا، بيد أنهم لم يسيغوا هذا الكذب الوقاح والجهل الصراح.

وقال «جولد تسيهر» في كتابه عن «العقيدة والشريعة في الإسلام»: «مما لا شك فيه أن الإسلام شريعة، فهو يُخضِع المؤمنين به لأعمال

QaradawiBooks.com

شعائرية، ومع ذلك فإن معين التعاليم الإسلامية الأولى ـ وهو القرآن ـ يعتبر صراحة: أن الأعمال بالنيات، ويعد النية معيارًا للقيمة الدينية، ويرى أنه إذا لم تقترن دقة احترام الشريعة بأعمال رحمة وخير كانت قليلة القيمة.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفيما يتعلق بشعائر الحج التي نظمها، من بين تقاليد الوثنية العربية[١] ـ استنادًا إلى كلمة الله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ [الحج: ٣٤] ـ جعل محمد أهمية كبرى لنية التقوى التي يجب أن تصحب هذه الشعيرة حين يقول: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والجزاء الأكبر للإخلاص ـ كما في سورة غافر: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، ولتقوى القلوب ـ كما في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ـ وللقلب السليم، كما في سورة الشعراء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فهذه هي وجهة النظر التي تسود في تقدير الفضل الديني للمؤمنين.

---

(١) كذب المستشرق هنا، فقد نقَّى الإسلام شعائر الحج من تقاليد الوثنية العربية، وأبقى منها ما لم يمسه الشرك من بقايا ملة إبراهيم عليه السلام، أول من أذَّن في الناس بالحج.

QaradawiBooks.com

وهذا الإقناع قد نما فيما بعد بفضل التعاليم المستخلصة من السنة، والتي ما لبثت أن شملت جميع نواحي الحياة الدينية، وبفضل نظرية النية والقصد والروح التي تلهم الأعمال، والتي اتُّخذت معيارًا لقيمة العمل الديني، فمجرد ظل لباعث من بواعث الأثرة أو الرياء يُجرِّد كل عمل طيب من قيمته»(١).

فالقلب هو الأساس في الإسلام، وهو موضع نظر الله تعالى، ومحل عنايته، وهو مستند القبول والفلاح في الآخرة. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»(٢)، «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب**»(٣). ويقول القرآن: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].

العبادة المقبولة عند الله:

ولهذا يرى الإسلام أن العبادة المرضية عند الله ليس هي ذلك الشبح الخالي من الروح، وإنما هي تلك التي تصاحبها النية الصادقة، ويسري فيها روح الإخلاص سريان العصارة في أغصان الشجرة الناضرة، فتؤتي في النفس أكلها، وتثمر في الخلق والسلوك ثمرتها. وتذكِّر صاحب العبادة بحق الله، وتنبِّه على حقوق الناس. فليست كلُّ صلاة جديرة

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام إيجناس جولد تسيهر صـ٣٠، ٣١ بتصرف يسير، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرَين، نشر دار الكتب الحديثة، مصر، ط٢.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

بالقبول عند الله، فإن من الصلوات ما يُضرب بها وجه صاحبها، ومن هنا قال تعالى في شأن الصلاة المقبولة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصلاة ـ كما قال ابن تيمية[1] ـ فيها دفع لشر مكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل لخير محبوب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه؛ فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه، فهو مقصود لغيره على سبيل التبع. فإن القلب يحبُّ الحقَّ ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب، كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل، ولذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

فإذا لم تؤدِّ الصلاة مهمَّتها في إيقاظ الضمير، وغرس خشية الله ومراقبته في النفس، تلك التي تؤدِّي إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، فإن صلاته تلك تكون صلاة بتراء ناقصة، تكون جثة هامدة تنقصها الحياة، وقد جاء في بعض الآثار: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»[2].

وما قلناه في الصلاة نقوله في الصيام، فليس كل صيام يحظى بدرجة الرضا عند الله، ما لم يؤدِّ إلى التقوى التي جعلها القرآن مرجوة بحصوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فإذا لم يؤدِّ إلى هذه التقوى، وصام بطنه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٨٨)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) رواه أبو حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩)، وابن كثير في تفسيره (٦/٢٨٠)، وأنكره الألباني في الضعيفة (٩٨٥)، عن عمران بن حصين.

QaradawiBooks.com

وفرجه، ولم يصُم لسانه ولا جوارحه ولا قلبه، فحري بصيامه أن يُرَدَّ وأن يكون عملة زائفة، وأن ينطبق عليه ما قاله الرسول ﷺ: «**مَن لم يَدَعْ قول الـزور والعمل بـه، فليس لله حاجـة في أن يَـدَعَ طعامه وشـرابه**»[(١)]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»[(٢)].

ومن أجل ذلك كلِّه كان السـلف الصالحون من المسلمين يهتمُّون بالصوم عن اللغو والحرام، كما يصومون عن الشراب والطعام.

قال عمر: ليس الصيام من الشـراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغـو[(٣)]، وروي عن علـيٍّ مثله[(٤)]، وعن جابر قـال: إذا صمت فليصُم سـمعك وبصرك ولسـانك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صومك سواء[(٥)]. وقال ميمون بن مهران: إن أهون الصوم ترك الطعام والشراب[(٦)].

وكذلك الـزكاة والصدقة، إذا داخلهـا رياء، أو لحقها مـنٌّ أو أذًى للفقير، فإن ذلك يفسـدها ويحبط ثوابها، فليـس المهم هو المال الذي تعطيه اليد الغنية لليد المسـتحقَّة، وإنما المهم هو صدق النية، وصفاء

---

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسـناده جيد. وابن ماجـه (١٦٩٠)، والحاكم (٤٣١/١)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الصيام (٨٩٧٥).

(٤) المصدر السابق (٨٩٧٧).

(٥) المصدر السابق (٨٩٧٣).

(٦) المحلى بالآثار لابن حزم (١٧٩/٦)، تحقيق أحمد محمد شـاكر، نشـر المطبعـة المنيرية، ط١، ١٣٥٢هـ.

QaradawiBooks.com

السريرة، وإخلاص القلب. وقد قال ابن عطاء: الأعمال صور قائمة وروحها هو وجود سر الإخلاص فيها[١].

وإننا لنجد هذا المعنى واضحًا في هذه الآيات الكريمة من كتاب الله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣ ـ ٢٦٥].

وليس بعد هذا التصور القرآني بيان فيما للإخلاص من أثر في قبول الصدقة أو ردِّها.

بركة النية الصالحة:

وقد قصَّ علينا النبي ﷺ قصة رجل مخلص أراد أن يتستر بصدقته، ويعطيها تحت ستار الليل، حيث يكون في مأمن من رياء الخلق، وابتغاء المحمدة والشهرة عند الناس، ولكنه أخطأ السبيل، فوضعها في غير موضعها وأعطاها مَن لا يستحقها، ولكن صدق نيته وإخلاصه نفعه، وبارك عمله، فلم تذهب صدقته سدى، ولم تضِع هباء. فقد روى البخاري، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**قال رجل: لأتصدقنَّ**

(١) انظر: حكم عطاء الله الإسكندري بشرح الشيخ زروق صـ ٥٩، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار الشعب، القاهرة.

QaradawiBooks.com

بصدقة. فخــرج بصدقته فوضعها في يد ســارق. فأصبحــوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد، على سارق! لأتصدقن بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية! فقال: اللهم لك الحمد، على زانية! لأتصدقن بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحــوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على غني! فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وزانية وغني! فأُتي ـ أي في المنام ـ فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفَّ عن سرقته، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعفَّ عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[1].

وبهذا القصــص كان يعلمهم النبي الكريــم أن الإخلاص هو ينبوع الخير، وميزان القبول.

إنما الأعمال بالنيات:

وما قلناه هنا عن الصلاة والصيــام والصدقة يقال عن الحج، وتلاوة القرآن، والجهاد، والهجرة من أجل الدين، وكل عمل شرعه الله ليُتعبد به ويتقرب إليه. وقد هاجر بعض المسلمين في زمن النبي ﷺ من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها تعرف بأم قيس، فسمَّاه من يعرفونه: «مهاجر أم قيس»[2].

وفي هذا الشــأن حدثهم النبي ﷺ ذلك الحديث الجامع الذي عدَّه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني (١٠٣/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائــد (٢٥٨٠): رجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر: إسناده صحيح على شرط الشيخين. فتح الباري (١٠/١)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩م.

QaradawiBooks.com

بعض المحدثين ربع الإسلام أو ثلثه أو نصفه[١]، والذي افتتح به الإمام البخاري جامعه «الصحيـــح»: «**إنما الأعمال بالنيـــات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى الله ورســوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانـــت هجرته إلى دنيـــا يصيبها أو امـــرأة ينكحهـــا، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[٢].

والعجيب أن بعض المستشــرقين يشــكك في ثبوت هذا الحديث ـ الذي أجمع علماء الإســلام في كلِّ اختصاص علـــى تلقيه بالقبول ـ بدعوى أنه حديث آحاد[٣].

ونسي المستشــرق أن قيمة «النية» في الإســلام لا تعتمد على هذا الحديث وحده[٤]، وإنما تعتمد على نصوص وأحاديث كثيرة مستفيضة،

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١١/١): قد تواتر النقل عن الأئمـــة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النبي ﷺ، شـــيء أجمع وأغنى وأكثـــر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمٰن بن مهدي، والشـــافعي ـ فيمـــا نقله البويطي عنـــه ـ وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأبو داود، والترمـــذي، والدارقطني، وحمزة الكنانـــي، على أنه ثلث الإسلام، ومنهم مَن قال: ربعه. قال ابن مهدي: يدخل في ثلاثين بابًا من العلم. وقال: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب. وقال الشافعي: يدخل في ستين بابًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر.

(٣) يبدو أن المستشرق استغل ما قال علماء السُّنَّة من أن الحديث لم تصح روايته عن النبي ﷺ، إلا من طريق عمر، ولا عن عمر إلا من طريق علقمة بن وقاص الليثي، ولا عن طريق علقمة إلا عن طريق محمد بـــن إبراهيم التيمـــي، ولا عن محمد إلا عن طريق يحيى بن ســـعيد الأنصاري، وعن يحيى رواه نحو مائتين أو أكثر حتى قيل سبعمائة، كما في الفتح (١١/١).

(٤) قال ابن حجر في الفتـــح (١١/١): ورد في معناه عدة أحاديث صحت في مطلق النية، كحديث عائشة، وأم سلمة، عند مسلم: «يبعثون على نياتهم»، وحديث ابن عباس: «ولكن جهاد ونية»، وحديث أبي موســـى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في ســـبيل الله» متفق عليه، وحديث ابن مســـعود: «رب قتيل بين الصفين، الله أعلم بنيته» أخرجه أحمد، وحديث عبادة: «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالًا، فله ما نوى» أخرجه النسائي. إلى غير ذلك مما يتعسَّر حصره.

QaradawiBooks.com

تعطي في مجموعها يقينًا جازمًا بأن الأعمـال بالنيات، وأن لكلِّ امرئ ما نوى. ولو أخذنا كتابًا كـ«الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري مثلًا لوجدناه يذكر في فضل النية الصالحة أحد عشر حديثًا، وفي الترغيب في الإخلاص ثلاثة عشر حديثًا، وفي الترهيب من الرياء أكثر من ثلاثين.

فهذا المجموع من الأحاديث وما شابهها، مع ما جاء في القرآن من آيات: هو السند اليقين لقيمة النية في الإسلام.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

لا يُعبَدُ اللّه إلّا بما شَرَع

المبدأ الرابع الذي دعا إليه الإسلام: أن يتبع المسلم في عباداته الحدود المرسومة له، فليس يكفي أن يقصد بالعبادة وجه الله وحده، ولا يتوجه به إلى أحد أو شيء غيره، بل لا بد أن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله، وبالكيفية التي ارتضاها، ولا تكون عبادته بما يخترع الناس من أهواء وظنون. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فالآية الأولى تأمر بالعمل الصالح مع النهي عن الإشراك بالله، والآيتان الأخريان تشترطان الإحسان مع إسلام الوجه لله سبحانه. فمَن أسلم وجهه لله ولم يشرك بعبادة ربه أحدًا فقد أخلص الدين لله وحده، ولكن ذلك لا يكفي ما لم يفعل ذلك ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وما لم يعمل ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾، والإحسان والعمل الصالح أن يتقرب لله بما شرعه الله لا بما وضعه الناس. وقد كان عمر بن الخطاب يقول: «اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[1].

(١) رواه أحمد في الزهد (٦١٧)، من طريق الحسن أن عمر كان يقول، فذكره.

QaradawiBooks.com

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود: ٧]، مفسـرًا معنى أحسـن العمل قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصـه وما أصوبه؟ قال: إن العمـل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، ولا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة»[(١)]. يعني الطريقة المشروعة المرضية عند الله ورسوله.

لقد عَدَّ الإسلام من الشـرك أن يُشَرِّع الناس من الدين ما لم يأذن به الله. ومن البدع المردودة: الزيادة في العبادات المرسومة، أو النقص منها، أو التحريف فيها. وقد قال ﷺ في شـأن الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(٢)]، وقال في الحج: «**خذوا عني مناسككم**»[(٣)].

وحذَّرَ من كلِّ ابتداع في شـؤون العبادة والدين: «**كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(٤)]، «**مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه؛ فهو رد**»[(٥)]، «**مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**»[(٦)].

فليس لإمام من أئمة المسلمين وإن علا كعبه في العلم، ولا لمجمع من مجامع المعرفة وإن عظم شـأنه، ولا لمعهد من معاهد الثقافة، ولا

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٩٥).
(٢) رواه البخاري في الأذان (٦٣١)، عن مالك بن الحويرث.
(٣) رواه مسلم في الحج (١٢٩٧)، وأحمد (١٤٤١٩)، عن جابر بن عبد الله.
(٤) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مخرجوه: صحيح. وأبو داود في السـنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في العلم (١/١٧٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧)، عن العرباض بن سارية.
(٥) سبق تخريجه صـ٩٩.
(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

لطائفة من المسلمين صغرت أو كبرت، أن تبتدع في دين الله عبادة جديدة، أو تزيد على عبادة قديمة، أو تغير في كيفيتها عما كانت أيام الرسول ﷺ، فإن الله وحده هو المشرِّع، والرسول هو المبلِّغ، ونحن المتبعون، وفي الاتباع الخير كل الخير، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الإمام ابن تيمية: «جماع الدين أصلان: أولًا: ألا نعبد إلا الله. ثانيًا: ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع. كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

ففي الأولى: ألا نعبد إلا الله.

وفي الثانية: أن محمدًا ﷺ هو رسوله المبلِّغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره. وقد بيَّن لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) [البقرة: ١١٢].

وكما أننا مأمورون ألا نخاف إلا الله، ولا نتوكل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وألا تكون عبادتنا إلا لله ـ

(١) وقد تضمنت الآية: إسلام الوجه لله: وهو معنى الأصل الأول هنا. والإحسان: وهو معنى الأصل الثاني في كلام ابن تيمية.

QaradawiBooks.com

فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ﷺ ونطيعه، ونتأسى به، فالحلال ما حلَّله، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه ...»[(١)].

حكمة تشديد الإسلام في منع البدع:

ولقد كان الإسلام حكيمًا غاية الحكمة حين حرَّم ـ أشد التحريم ـ على البشر أن يُشرِّعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وأن يبتدعوا صورًا للتقرب إلى الله لم يجئ بها وحيه المعصوم، حتى أعلن في صراحة قاطعة: أن كلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

والذي يقرأ تاريخ الأديان يرى الحكمة في هذا التشديد ماثلة للعيان واضحة وضوح الصبح لذي عينين.

كيف أفسد الابتداع الأديان كلَّها؟

إن الابتداع في الدين هو الكوَّة التي تسلَّل منها الشيطان إلى غَوَاية المتدينين من أتباع الملل، فأفسد عليهم دينهم وحياتهم، وخرَّب عليهم عقائدهم وعباداتهم، ولم يَدَع في حياتهم الدينية دعامة إلا أتى عليها من القواعد، وفتح عليهم أبوابًا من الفساد لم يستطيعوا بعدُ إغلاقها.

عن طريق الابتداع زحف الشرك ودخلت الوثنية على الأمم، حتى الكتابية منها. فأشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا، وعبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم. قائلين: هؤلاء شفعاؤنا عند الله!

وعن طريق الابتداع جاء الغلو في الدين، والتنطع فيه، وإدخال الحرج والعنت والآصار والأغلال على أتباعه، واخترع الناس ألوانًا شتى من الشعائر والتعبُّدات، كلها عنت وإرهاق، وتكليف ما لا يكاد يُطاق.

---

(١) العبودية صـ ١٤٨.

QaradawiBooks.com

وعن طريق الابتداع حـرَّم الغلاة ما أحل الله مـن الزينة والطيبات، فأهملوا الدنيا باسـم الدين، وخرَّبوا العمران بدعـوى الإيمان، وعذَّبوا الأجسام بزعم تصفية الأرواح!

وعن طريق الابتداع حدثت التحريفات الهائلة، والانحرافات الشنيعة في كثير من الأديان، وقع فيها رجال ضلَّ سـعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ويكفي أن نتأمَّل ما ابتدعه النصارى من نظام «الرهبانية»، وما فيه من غلو وعتو وقسوة على الطبيعة، وشرود عن الفطرة، لنعلم كيف ينحرف العقل البشري إذا مشى وحده، ولم يعتصم بحبل الله، ولم يستضئ بنوره وهداه. وكيف يجور ويتعسف، ويرتكب أكبر الحماقات والجهالات، مع أن قصده ونيته ـ فيما يحسب ـ التقرب إلى الله تعالى[1]؟!

وكذلك نرى مشـركي العرب كيف اتخذوا الأوثان وعبدوا الأحجار والأصنام؛ لتقربهم إلى الله زلفى، فأساس الشرك في الحقيقة هو الابتداع.

وكيف سوَّلت لهم شـياطينهم تحريم ما أَحَلَّ الله من طيبات الحرث والأنعام! بل كيف زيَّنوا لهم ذبح أولادهـم وفلذات أكبادهم، تقرُّبًا إلى الآلهة فيما زعموا، ليُردُوهم وليلبسوا عليهم دينهم!

وكيف طوَّعت لهم أنفسـهم أن يطوفوا بالبيت عـراة، كما ولدتهم أمهاتهم، رجالًا ونساء، لا يسـتحيون ولا يتحرَّجون. وكيف هم بعملهم هذا ـ في زعمهم ـ إلى الله يتقربون!

(١) اقرأ نماذج من الغلو فيما سنذكره في مبدأ: التوازن بين المادية والروحية.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تقرأ في سورة الأنعام نماذج من هذه المبتدعات والتحريمات، في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧ ـ ١٤٠].

غير مرخصة للطباعة

مجال الابتداع ليس هو الدين:

إن مجال الابتداع والابتكار ليس هو الدين؛ فالدين توقيف من الله يجب أن يبقى مصونًا منزَّهًا عن عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

أما مجال الابتداع الحقيقي، فهو الدنيا وشؤونها، وما أوسعها وما أكثر ما تحتاج إليه من طاقات الافتنان والابتكار. ولهذا حين انتكس المسلمون وساءت حالهم، وفسد أمرهم، وانحلَّ مجتمعهم، أصبح الأمر الطبيعي عندهم معكوسًا والوضع مقلوبًا. فوقفوا في شؤون الدنيا جامدين كالحجارة أو أشد جمودًا، لا يبتكرون ولا يخترعون ولا يكتشفون، شعارهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا!

وأما في الدين فاخترعوا وابتدعوا من صور التعبُّد ما لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطانًا.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

أثر تحريم البدع في الإسلام:

وتحريم الإسلام الابتداع في العبادة، وتشديده في الأمر باتباع ما جاء به الرسول ﷺ قد حفظ على المسلمين عباداتهم، وصانها من التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان.

فالعبادات الإسلامية واحدة في جوهرها في كلِّ مذهب من مذاهب الإسلام: الصلاة عند جميع المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ إلى اليوم، عند السُّنَّة والشيعة هي: هذه الأقوال والأعمال المخصوصة، المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم. خمس صلوات في اليوم والليلة. في كل صلاة عدد معيَّن من الركعات، وفي كلِّ ركعة تلاوة وأذكار وركوع وسجودان عند الجميع، ولكلِّ صلاة شروط متفق عليها من: الطهارة، وأخذ الزينة، واستقبال القبلة، وهكذا.

والصوم عن جميع المسلمين يتمثَّل في هذا الشهر العربي ـ رمضان ـ ثلاثين يومًا أو تسعة وعشرين يومًا، يبدأ كل يوم من طلوع الفجر وينتهي عند غروب الشمس.

وهكذا الزكاة والحج كلُّها عبادات محدَّدة معروفة بتفاصيلها، منقولة عن رسول الله ﷺ، بالتواتر القاطع جيلًا عن جيل.

وهذه ميزة لعبادات الإسلام لم يظفر بها دين من الأديان، فكلُّ العبادات في شتى الديانات قد عَدَت عليها الأيام، وخضعت لتحريف السدنة، وألاعيب الكهنة، وغلو العامة، ولم تجد مَن يقول للمبتدعين: قفوا عند حدود الله، ولا تشرِّعوا ما لم يأذن به الله.

وهل يستطيع أحد أن ينكر على الكاهن إذا ابتدع أو غيَّر، وفي يديه

QaradawiBooks.com

مفاتيح الجنة وملكوت السماء؟ إنه يستطيع أن يطرد من رحمة الله مَن شاء، ويدخل فيها مَن شاء، ويبيع من قراريط الجنة ما شاء!

أما الإسلام فقد نفى من أول الأمر فكرة الكهنوت واحتكار أسرار الملكوت، وجعل أمر العبادة في أيدي المسلمين جميعًا، وفرضهم حراسًا عليها، وأوصاهم أن يتَّبعوا ولا يبتدعوا، وأن يأخذوا على يد كلِّ مبتدع محرِّف كائنًا من كان.

وإذا أخذنا الشريعة المسيحية مثلًا وجدناها قد تغيَّرت وتناسخت على يد المسيحيين أنفسهم، وخرجوا على الناموس الذي أعلن المسيح: أنه جاء ليتمَّه لا لينقضه.

فقد استحلُّوا الخنزير وأحلُّوا السبت، وعوَّضوا منه يوم الأحد، وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة، وكان المسيح يصلي إلى بيت المقدس، فصلُّوا هم إلى المشرق. ولم يعظِّم المسيح صليبًا قط فعظموا هم الصليب وعبدوه. ولم يصُم المسيح عليه السلام صومهم هذا أبدًا ولا شرعه، ولا أمر به ألبتة، بل هم وضعوه على هذا العدد، ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضًا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية. وتعبَّدوا بالنجاسات، وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة، وأبعد الخلق عن النجاسة، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم، فغيَّروا دين المسيح وتقرَّبوا إلى الفلاسفة وعباد الأصنام، بأن وافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم، وليستنصروا بذلك على اليهود[1].

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/٢٧٠).

QaradawiBooks.com

فهذه هي المسيحية، وذلك هو الإسلام.

نعم، إن بعض المسلمين في بعض الأزمنة قد ابتدعوا في دينهم ما لم يجئ به كتاب ولا سنة، ولكنهم وجدوا في كل عصر مَن يجهر فيهم بالحقِّ، ويردُّهم إلى سواء الصراط، ويحيي فيهم السُّنة ويطارد البدعة، تصديقًا لوعد الله الذي وعد به هذه الأمة الخاتمة على لسان رسوله ﷺ، حيث قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كلِّ مائة سنة مَن يُجَدِّد لها دينها**»(١).

على أن الذي امتاز به الإسلام بلا ريب أن شعائره وعباداته الأصلية بقيت سليمة في جوهرها، مصونة من التحريف والتبديل.

قال أبو بكر: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به؛ إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ(٢). وقد خطب عمر بن الخطاب الناس، فقال: أيها الناس، قد سُنَّت لكم السنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُركتم على الواضحة، إلا أن تميلوا بالناس يمينًا وشمالًا(٣).

وقال ابن مسعود: أيها الناس، لا تبتدعوا، ولا تنطَّعوا، ولا تعمَّقوا، وعليكم بالعتيق ـ المأثور الموروث ـ خذوا ما تعرفون، ودعوا ما تنكرون(٤).

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (٢٨١/٢)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٢، ٣٠٩٣)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٩).

(٣) رواه مالك في الرجم والحدود (٣٠٤٤) تحقيق الأعظمي، وذكر الشاطبي في الاعتصام أنه صح عن عمر (١٠٥/١)، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، نشر دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٤) رواه الدارمي في المقدمة (١٤٥).

QaradawiBooks.com

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قال: كتب الله صيام رمضان على مَن كان قبلكم، فأما اليهود فرفضوه، وأما النصارى فشق عليهم الصوم، فزادوا فيه عشرًا وأخَّروه إلى أخفِّ ما يكون عليهم فيه الصوم من الأزمنة. فكان الحسن إذا حدَّث بهذا الحديث قال: عمل قليل في سُنة - اتباع المأثور - خير من كثير في بدعة(١).

ولما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سُنَّتكم سُنَّة، ولا بعد أمتكم أمة. ألا وإن الحلال ما أحلَّ الله في كتابه على لسان نبيه، حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرَّم الله في كتابه على لسان نبيه، حرام إلى يوم القيامة. ألا وإني لستُ بمبتدع ولكني متَّبع، ألا وإني لست بقاضٍ - يعني: لست بمشرع - ولكني منفِّذ(٢).

فهذا هو موقف الخلفاء والحكَّام في الإسلام: متَّبعون في الدين لا مبتدعون؛ ومنفِّذون للشرع لا مشرِّعون.

وقد وقف أئمة الإسلام في وجه كلِّ بدعة يُراد لها أن تظهر في عبادة الناس لله، حتى وإن بدت صغيرة في عين الرائي، ولكن الصغير يجرُّ إلى الكبير، ومعظم النار من مستصغر الشرر(٣).

---

(١) رواه المروزي في السنة (٨٨)، وابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٣١٥/١)، عن الحسن مرفوعًا، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٠/١٢)، موقوفًا.

(٢) الاعتصام (١١٦/١).

(٣) أُلِّفت كتب عديدة قديمًا وحديثًا في الإنكار على البدع المحدثة في الدين، منها: الحوادث والبدع للطرطوشي، والاعتصام للشاطبي، والإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ، وليس من الإسلام للشيخ محمد الغزالي.

QaradawiBooks.com

جاء رجل إلى الإمام مالك، وهو بالمدينة، وقال له: يا أبا عبد الله، من أين أُحْرِم؟ قال: من ذي الحليفة ـ مكان إحرام أهل المدينة ـ من حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد! فقال: لا تفعل. قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قبر النبي ﷺ. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة! قال: وأي فتنة في هذا، وإنما هي أميال أزيدها؟! قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقتَ إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله ﷺ؟! إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣][1].

فمع أن الرجل كان يريد الإحرام من أشرف البقاع في المدينة، وهو مسجد الرسول ﷺ وموضع قبره، وأنه يزيد ولا ينقص، حيث يُحْرِم من موضع أبعد من الميقات المحدد ـ خشي عليه الإمام مالك الفتنة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، لما يحمل عمله في ثناياه من تفضيل لنفسه ونسبة النقص إلى عمل رسول الله ﷺ.

وقد قال الإمام مالك أيضًا: مَن أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله ﷺ قد خان الدين؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا[2]!

فإذا كان الدين قد أكمله الله وأتمَّ به النعمة، فلا مجال فيه لإحداث زيادة؛ لأن الكامل لا يقبل الزيادة، ومحاولة الزيادة عليه اتهام له بعدم الكمال.

* * *

(١) الاعتصام للشاطبي (١٧٤/١).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٥٨/٦)، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

التوازن بين الروحية والمادية

التوازن والاعتدال بين الروحيـــة والمادية، أو بين الدين والدنيا، هو المبدأ الإصلاحي الخامس من المبادئ التي دعا إليها الإسلام ورعاها، ليصلح بها ما أفسده محرفو الأديان في مجال العبادة.

غلو اليهودية في أمر الدنيا:

نقرأ أسفار التوراة الخمســة الحالية، فلا نكاد نجد للروحانية أثرًا، ولا نكاد نرى للآخـــرة مكانًا، حتى الوعـــد والوعيد في هـــذه التوراة للمطيعين والعصاة، إنما يتعلّقان بأمور دنيوية، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة فالخصـــب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الحسية العاجلة، هي المثوبات التي تبشِّر بها التوراة من نفَّذ أحكام الناموس. وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوبـــاء والفقر والهزيمـــة ونحوها، للذين يعرضون عن الشريعة.

ويكفي أن نقرأ هذه النصوص من التوراة لندرك هذه الحقيقة:

«احترموا آباءكم وأمهاتكم لتعمروا طويلًا على الأرض».

QaradawiBooks.com

«اعبدوا ربكم الإله الأزلي، وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويبعد عنكم العلل والأدواء ... وسيطيل أعماركم» إلخ[١].

«إذا أطعتم أمري وحفظتم وصيتي فسأبعث عليكم الأمطار في أوقاتها، فتخرج الأرض ثمرتها والأشجار فاكهتها» إلخ[٢].

فليس للأجزية الروحية ولا الأخروية مكان في التوراة.

إهمال المسيحية لأمر الدنيا:

فإذا انتقلنا إلى الإنجيل وجدنا دعوة قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا، واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى للإنسان، وطلب النجاة والسعادة هناك، في العالم الآخر، حيث تقوم مملكة السماء، فمَن أراد ملكوت السماء فليعرض عن هذه الأرض، ومَن أراد العالم الآخر، فليرفض هذا العالم أو هذه الدنيا. وهكذا لا تحسُّ في الإنجيل أن لك في الدنيا نصيبًا، وأن لك في طيبات الحياة حظًّا، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقًّا، وأن لك في عمارة الأرض دورًا.

يقول الإنجيل: «لا يدخل غني ملكوت السماوات، حتى يدخل الجمل في سم الخياط»[٣]. وقال المسيح لشاب آمن به ودخل في دينه: «إذا أردتَ أن تكون كاملًا، فاذهب وبع ما تملك، وأعطه للفقراء، ثم تعال واتبعني»[٤]، وقال لتلاميذه: «وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتمُّوا لذلك؛ لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين»[٥].

---

(١) سفر التكوين (١٥/٢٣ ـ ١٧).

(٢) سفر التكوين (٣/٢٦ ـ ١٧).

(٣) إنجيل متَّى (٢٣/١٩ ـ ٢٤).

(٤) إنجيل مرقص (٢١/١٠).

(٥) إنجيل مرقص (٢٤/١٢ ـ ٢٩).

QaradawiBooks.com

عتو الرهبانية وقسوتها على الطبيعة البشرية:

ولم تقف الدعوة إلى التقشُّف والتزهُّد وإهمال الحياة الأرضية، عند الحد الذي جاء به الإنجيل، بل ابتدع أتباع النصرانية نظام الرهبانية، بما فيه من قسوة على النفس، وتحريم للزواج، وكبت للغرائز، ومصادرة للنزوع إلى الزينة والطيبات من الرزق.

وانتشر هذا النظام العاتي، وكثر أتباعه، وأصبح مما يتعبَّدون به لله ويتقرَّبون به إليه: البعد عن النظافة والتجمُّل، واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجسًا من عمل الشيطان.

ينقل لنا السيد أبو الحسن الندوي عن «تاريخ أخلاق أوروبا» للأستاذ «ليكي» صورًا لجموح الرهبانية وغلوها، تقشعر منها الجلود، وتفزع القلوب، وتدهش العقول. وهذه الصور ـ كما يقول الأستاذ ـ قليل من كثير جدًّا. يقول المؤرخ: «زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار، وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية، ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفًا من الرهبان، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب «سرابين» يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر.

ظل تعذيب الجسم مثلًا كاملًا في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب «ماكاريوس» أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام! وكان يحمل دائمًا نحو قنطار من حديد! وكان صاحبه الراهب «يوسيبيس» يحمل نحو

QaradawiBooks.com

قنطارين من حديد! وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح! وقد عبد الراهب «يوحنا» ثلاث سنين قائمًا على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جدًّا أسند ظهره إلى صخرة! وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائمًا! وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام! وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم: أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

يقول الراهب «أتهينس»: إن الراهب «أنتوني» لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره! وكان الراهب «إبراهام» لم يمسَّ وجهه ولا رِجلَه الماءُ خمسين سنة! وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهفًا: واأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حرامًا، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات! وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهبونهم إلى الصحراء والأديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئًا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمها، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روي أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب «أمبروز»، وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئًا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقَسُوس.

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانًا ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد،

QaradawiBooks.com

فيخلفون الأمهات ثكالى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا. وحكى «ليكي» من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ـ ولو كن أمهات أو أزواجًا أو شقيقات ـ تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية. وروى «ليكي» من هذه المضحكات المبكيات شيئًا كثيرًا»[(١)].

التوازن سمة الإسلام:

هكذا كانت اليهودية في إغفالها للآخرة وللروح، وهكذا كانت المسيحية في تحقيرها للدنيا وللجسد.

فلما جاء الإسلام كانت سمته: التوازن والاعتدال في كل الآفاق والنواحي؛ الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمن، وتشرع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد، في مختلف شؤون الحياة. الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد، بين بواعث الدين، ومطالب الدنيا. الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة.

فلم يطلب الإسلام من المسلم المثالي أن يكون راهبًا في دَير، أو عابدًا في خلوة، ليله قائم، ونهاره صائم، كلُّ صمته فكر، وكلُّ كلامه ذكر، وكلُّ نظره تأملات! لا حظَّ له في الحياة، ولا حظَّ للحياة فيه.

(١) ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين صـ ١٥٠ ـ ١٥٢.

QaradawiBooks.com

حق الله وحق الحياة:

وإنما طلب من المسلم أن يكون إنسانًا عاملًا في الحياة، يعمرها ويرقِّيها ويدفع عجلتها إلى الأمام. طلب منه أن يسعى في مناكب الأرض، ويلتمس الرزق في خباياها، زارعًا، أو صانعًا، أو تاجرًا، أو عالمًا أو عاملًا، أو محترفًا بأيِّ حرفة نافعة. بيد أن عليه ألا تذهله مطالب الحياة عن واهب الحياة. عليه ألا يشغله حقُّ الجسد عن حقِّ الروح. عليه ألا تشغله رغائب الدنيا العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية، عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه وماهية وجوده، وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: «تأمَّل هذه الآية تجد تحتها معنًى شريفًا عظيمًا، وهو أن مَن نسي ربَّه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه، في معاشه ومعاده، فصار معطَّلًا مهمَلًا؛ بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربَّما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه، لبقائها على هداها الذي أعطاه إياها خالقها؛ وأما هذا فخرج عن فطرته، التي خُلق عليها. فنسي ربَّه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به، وتزكو به، وتسعد به، في معاشها ومعادها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، فغفل عن ذكر ربَّه فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتَّت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدي سبيلًا»(١).

(١) مفتاح دار السعادة (٨٦/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

ومهمة العبادات أن تأخذ بيد الإنسان حتى لا تغرقه أعمال الدنيا في لجَّة النسيان، حيث ينسى الله، فينسيه الله نفسه.

مهمة العبادات أن تنبِّه وتذكِّر مَن نسي مولاه، أو غفل عن أُخراه، ثم تَدَع الإنسان يعود بعد أدائها إلى دنياه يلقاها ساعيًا حثيث الخُطا، وثيق العُرا.

وحسبنا أن نقرأ هاتين الآيتين من سورة الجمعة لنعرف منهما كيف وضعتا المسلم في وضعه الرشيد بين الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠]. وهذا هو شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة، ثم صلاة وسعي إلى ذكر الله، ثم ـ بعد انقضاء الصلاة ـ انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب.

وروّاد المساجد في الإسلام ليسوا دراويش متعطِّلين، ولا رهبانًا متبطِّلين، وإنما هم كما وصفهم القرآن: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، فهم أناس لهم دنياهم وأعمالهم من تجارة وبيع. وما أشد ما تشغل التجارة والبيع، ولكن ذلك لم يلههم عن حقِّ الله تعالى.

حسنة الدنيا وحسنة الآخرة:

وفي سياق الحج يرسم القرآن الكريم لنا صورة واضحة ـ وإن لم تكن مفصلة ولا مطولة ـ لصنفين من الناس الذين يدعون الله ويسألونه في تلك المواقف:

QaradawiBooks.com

صنف ضيق الأفق مطموس البصيـرة، كلُّ همِّه الدنيا. فلا يلتفت إلا إليها، ولا يحرص إلا عليها.

وصنف رحب الأفق، نيِّر البصيرة، وسـع قلبه الدنيا والآخرة. فسأل الله الحسنة فيهما جميعًا.

نقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

هكذا قسَّـمَ القرآنُ الناسَ في هذا الموقف الذي تسمو فيه الأرواح وتدنو القلوب من ربِّها، وتهبُّ عليهم نسـمات الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد.

قسـمان فقط ذكرهما القرآن: طـلَّاب دنيا وما لهم فـي الآخرة من خلاق. وهم ذلك الصنف الذي توعَّده الله فـي آية أخرى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وطلَّاب دنيـا وآخرة يطلبون الحسـنة في الحياتين، والسـعادة في الداريـن، دعاؤهـم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقـرة: ٢٠١]، وفَسَّـر الحسـنة في الدنيا بما شـئتَ، من العافية أو المرأة الصالحــة، أو الأولاد الأبرار، أو العلـم النافع، أو الرزق الواسـع، أو المحبة بين الناس، أو نحو ذلك، فكلُّ هذا مما يحقق حسنة الدنيا.

QaradawiBooks.com

ولم يذكر القرآن القسم الثالث من الناس ـ بحسب التقسيم العقلي ـ وهو مَن لا يطلب إلا حسنة الآخرة، وما له في الدنيا من أَرَب، وكأنه يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في الناس، فالحياة بمتاعبها الجمَّة، وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعو ربَّه لييسر له سبيل دنياه، ويعينه على أداء حقوقها، ويخفف عنه متاعبها.

ثم هو يشعرنا أن إهمال الدنيا، وإهدار شأنها في حساب طالب الآخرة، إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة، وصراط الدين معًا.

ولهذا لم يقبل رسول الله ﷺ فكرة الانقطاع عن الدنيا من أجل الرغبة في الآخرة، والاعتزال المطلق لعبادة الله؛ وكلما رمق في بعض أصحابه نزعة إلى هذا اللون من السلوك الذي عُرِف في بعض الأديان الأخرى، قوَّم عوج أفكارهم، وهداهم إلى التي هي أقوم، وأعلمهم بهذه الحقيقة التي تميَّزت بها رسالته العالمية الأخيرة: «**إن الرهبانية لم تكتب علينا**»(١). ليعلموا أن دينهم ليس دين اعتكاف وعزلة. وإنما هو دين حياة وتقدُّم وعمران.

لا تغلوا في دينكم:

صحيح أن الله فرض على الناس أن يعبدوه، ويتقرَّبوا إليه، ولكن غلو المسلم في العبادة الشعائرية، وشغل الليل والنهار بها وحدها، وهضم حقوق الحياة من أجلها ـ أمر يرفضه الإسلام ورسول الإسلام.

تزوج عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان شابًّا صالحًا نزَّاعًا إلى العبادة والصيام والقيام، فذهب أبوه عمرو يسأل زوجه عن حاله معها

(١) رواه أحمد (٢٥٨٩٣)، وقال مخوجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

QaradawiBooks.com

فقالت في أدب: نِعْمَ الرجل عبد الله، لم يطأ لنا فراشًا منذ جئناه! وشكا عمرو ابنه إلى الرسول ﷺ فأرسل إليه، فجاء[١].

ولندع الإمام مسلمًا يروي لنا القصة على لسان عبد الله نفسه قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كلَّ ليلة، فلما ذُكِرت للنبي ﷺ قال: «**ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقرأ القرآن كل ليلة؟**». قلت: بلى يا رسول الله، ولم أُرِد بذلك إلا الخير. قال: «**فإنه بحسبك أن تصوم من كلِّ شهر ثلاثة أيام**». وفي بعض الروايات: «**صوم ثلاثة أيام من الشهر صوم الشهر كله**».

قلت: يا نبي الله، إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «**فإن لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا**». قال: «**فصُم صوم داود نبي الله، فإنه كان أعبد الناس**». قلت: يا نبي الله، وما صوم داود؟ قال: «**كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا**». وفي رواية: «**وهو أحب الصيام إلى الله**».

قال: «**اقرأ القرآن في كلِّ شهر**». قلت: يا رسول الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فاقرأه في كلِّ عشرين**». قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فاقرأه في كلِّ عشر**». قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فاقرأه في كلِّ سبع، ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا**»[٢].

وهكذا لقَّنه النبي ﷺ، هذا الدرس، وعلَّمه أن للحياة حقوقًا يجب أن تؤدَّى، كما أن للآخرة حقوقًا يجب أن تُرعى، والعدل في إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم في الصيام (١١٥٩).

QaradawiBooks.com

وقد تكرَّرت هذه النزعة أكثر من مرة لأكثر من فرد، وكان النبي ﷺ يقاومها بقوة، حتى لا يستشري خطرها، ويتطاير شررها.

يروي أنس بن مالك، أن رهطًا جاؤوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادته، ويبدو أنهم كانوا يتصوَّرونه عليه الصلاة والسلام راكعًا ساجدًا أبدًا، كلُّ ليله قيام، وكلُّ أيامه صيام، ليس لعينه حظ من نوم، ولا لجسده حظ من راحة، ولا لنسائه حظ من قربة. فلما أخبرتهم زوجاته عليه الصلاة والسلام بعبادته، كأنهم تقالُّوها، ولم تشبع نهمهم للعبادة، فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟!

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: وأنا أصوم الدهر، ولا أفطر أبدًا. وقال آخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم، وقال: «**أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمَن رغب عن سنتي فليس مني**»(١).

وهكذا عرَّفهم النبي الكريم سنة الإسلام وهدي رسول الإسلام، فليست تقوى الله وخشيته بترك الدنيا، والانقطاع للعبادة، فهو أخشى الناس لله، وأتقاهم له، ولكنه ﷺ لم يهدر حقَّه في الحياة وحقَّ الحياة فيه: «**فمَن رغب عن سنتي فليس مني**».

سقي النخيل أم تطويل الصلاة:

وعن أنس بن مالك قال: كان معاذ بن جبل يؤم قومًا، فدخل حرام ـ ابن ملحان ـ وهو يريد أن يسقي نخله. فدخل المسجد مع القوم،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح.

QaradawiBooks.com

فلما رأى معاذًا طوَّل، تجوَّز في صلاته ـ خففها وحده قبل أن يفرغ معاذ ـ ولحق بنخله يسقيه. فلما قضى معاذ الصلاة قيل له ذلك. فقال: إنه لمنافق. أيعجل عن الصلاة من أجل سقي نخله؟ فقال: فجاء حرام إلى النبي ﷺ، ـ ومعاذ عنده ـ فقال: يا نبي الله، إنني أردت أن أسقي نخلًا لي، فدخلت المسجد لأصلي مع القوم، فلما طوَّل ـ أي معاذ ـ تجوَّزت في صلاتي ولحقت بنخلي أسقيه، فزعم أني منافق! فأقبل النبي ﷺ على معاذ، فقال: «**أفتَّان أنت؟ أفتَّان أنت؟! لا تطوِّل بهم، اقرأ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾** [الأعلى: ١]، **﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾** [الشمس: ١]، **ونحوهما**»(١).

ولقد وضحت الروايات في القصة أن الصلاة كانت العشاء، فهي من صلوات الليل، لا من صلوات النهار وقت العمل والكدح. وذكر بعضها أن معاذًا قرأ فيها بـ﴿**ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ**﴾ [القمر: ١]، لا بالبقرة ولا بآل عمران. ومع هذا فإن الرجل قام قبل أن يفرغ معاذ فصلَّى وحده وذهب، كل ذلك والرسول ﷺ لم يوجِّه إليه كلمة لوم أو عتاب، وإنما وجهها إلى إمام القوم الفقيه الجليل معاذ بن جبل: «**أفتَّان أنت يا معاذ؟**».

وهذا هو الإسلام: دين لا ينعزل عن الدنيا، ودنيا لا تحيف على الدين!

* * *

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٤٧)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والقصة في الصحيحين وغيرهما بألفاظ مختلفة.

QaradawiBooks.com

اليُسرُ ورفعُ الحرجِ

المبدأ السادس الذي رعاه الإسلام في أمر العبادة هو اليسر ورفع الحرج، وإزالة العنت، ووضع الآصار والأغلال عن أعناق المكلفين، الآصار التي عُرفت في بعض الديانات السالفة كاليهودية وغيرها. وقد علَّم الله المؤمنين أن يدعوه فيقولوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والإصر هو الحمل الثقيل، وهو تصوير لما كان في شرائع السابقين من التكاليف الشاقة، فمنها عند اليهود نظام الأعياد التي يعيِّدونها لله في السنة، وهي عيد الفطير، وعيد الحصاد، وعيد المظال(١)، وكذلك عيد كل سبت لا يعمل فيه أدنى عمل، ومن يعمل يوم السبت فجزاؤه القتل(٢)، وكذلك سبت المزارع؛ ففي كل سنة سابعة سبت للأرض لا يُزرع فيها، ولا تُقطف الكروم، بل تُترك الأرض عطلًا، وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية(٣)، وغير ذلك من التكاليف الغريبة، مثل: تحريم طبخ الجدي بلبن أمه(٤)،

(١) انظر هذه الأعياد والتشديد في أحكامها: سفر الخروج (١٤/٢٣ ـ ١٩)، (١٨/٣٤ ـ ٢٣)، وسفر اللاويين (٤/٢٣ ـ ٣٧)، وسفر التثنية (١/١٦ ـ ١٧).

(٢) سفر الخروج (١٤/٣١)، (٢/٣٥).

(٣) سفر الخروج (١٠/٢٣، ١١).

(٤) سفر الخروج (١٩/٢٣).

QaradawiBooks.com

ومثل: ما إذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمــات المنطوح، يُرجم الثور ولا يُؤكل لحمه[١]، ومثلها كثير.

ولم يكن هذا التشــديد والعنت في اليهودية وحدها، بل سادت هذه النزعة أكثر الديانات قبل الإسلام، إن لم نقل كلَّها.

يقول العلامة سليمان الندوي: «ما من دين خلا من العبادة لله، لكن الأديان القديمــة حَسِــبَ أتباعُها أن الديــن يطالبهم بإيذاء أجســامهم وتعذيبهــا، وأن الغرض من العبــادة إدخال الألم علــى الجوارح، وأن الجسم إذا ازدادت آلامه، كان في ذلك طهارة للروح، ونزاهة للنفس!

وعن هذه العقيدة نشــأ التبتل عند الهنــادك، والرهبانية عند النصارى، وابتدعوا من رياضات الجســم أنواعًا عجيبة، أشــدها على الجسم أفضلها عندهم، وأقربها إلى الله في زعمهم: فمنهم مَن آلى على نفســه ألا يغتسل طول حياته، ومنهم مَن لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة، وبعضهم آلى على نفســه أن يعيش عريانًا إلا من خرقة يستتر بها، ماضيًا على ذلك مهما أثرت فيه حَمَارَّة القيظ[٢]، أو زمهرير الشتاء، ومنهم مَن لزم كهفًا فلا يبرحه أبــدًا، وبعضهم اختار لنفســه أن يبقى واقفًا في حرِّ الشــمس طول حياته! ومنهم مَــن يحلف ألا يقتات إلا بورق الشــجر! ومنهم مــن بقي صرورة حصورًا لا يتزوج، ومنهم مَن يعد من العبادة والقربة إلى الله مَنْعَ التناسل! ومنهم مَن يرفع إحدى يديه في الهواء ويبقي كذلك طول عمره، حتى تيبس يده وتجف! وكان بعضهم يحبس نفسه ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من العبادة، ولا يزال في الهند من يتعلق بشجرة منكسًا رأسه إلى تحت!

(١) سفر الخروج (٨/٢١).

(٢) أي شدة الحر. النهاية في غريب الحديث مادة (ح. م. ر).

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وهذا كله وأمثاله مما كان عليه أتباع الأديان قبل مبعث محمد رسول الله ﷺ، ظانين أن أعمالهم هذه من أقرب الوسائل إلى الله، ومن أفضل ما تزكى به النفوس، وتطهر به الأرواح.

وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الأقدمون إلى الآلهة، فكانوا ينذرون لآلهتهم قرابين بشرية تُذبح كالأضاحي، استرضاءً للآلهة، فإذا سفكت دماء البشر لهذا الغرض نُثرت دماؤهم على الأوثان، وربما أحرقت لحوم الأضاحي، وجُمِّرَت به الأصنام، وبُخِّرَت بدخانها. ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحي»(1).

بُعثتُ بالحنيفية السمحة:

وقد جاءت الشريعة الإسلامية برفع هذه الآصار، وعُرِفَ الرسول ﷺ في كتب الأولين بهذه الأوصاف المميزة: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وامتنَّ الله برسوله على الناس، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد قال ﷺ، معرفًا برسالته: «**بُعثتُ بالحنيفية السمحة**»(2). فهي حنيفية في العقيدة، سمحة في التكاليف والأحكام.

(1) الرسالة المحمدية للعلامة سليمان الندوي صـ ٢٠٩ ـ ٢١٢، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ، وهو الكتاب المعروف في الأوردية باسم: خطبات مدارس.

(2) رواه أحمد (٢٢٢٩١)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٨/٢٢٢)، وحسن إسناده ابن حجر في تغليق التعليق (٢/٤٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٤٤١): رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. وقال المناوي في فيض القدير (٣١٥٠): إنه لا ينزل عن رتبة الحسن. عن أبي أمامة.

QaradawiBooks.com

وإنما خصَّها الله بالسماحة والسهولة واليسر؛ لأنه أرادها رسالة الناس كافة، والأقطار جميعًا، والأزمان قاطبة، ورسالة هذا شأنها من العموم والخلود لا بد أن يجعل الله الحكيم في ثناياها من التيسير والتخفيف والرحمة ما يلائم اختلاف الأجيال، وحاجات العصور، وشتى البقاع.

وهذا واضح في شريعة الإسلام عامة، وفي العبادات خاصة؛ يقول الله تعالى في بيان رسالة المسلم في الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ۞ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

ويقول في ختام آية الطهارة من سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ويقول في ختام آية الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويقول في أعقاب ما ذكره من المحرَّمات في النكاح، وإباحة ما وراء ذلك بشرطه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨].

وبعث ﷺ معاذًا وأبا موسى الأشعري أميرين إلى اليمن، فكان من وصيته لهما: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) (٧)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

ومن أوصافه ﷺ أنـــه: «**ما خُيِّرَ بين أمرين قط، إلا اختار أيســرهما ما لم يكن إثمًا**»[(١)].

ومن أقواله ﷺ: «**إن الدين يســر، ولن يشـادَّ الدينَ أحـدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا**»[(٢)].

وإذا كانت وجهة الإسلام هي التيسير، فكلُّ مسـلم يبغي التشديد والتعنُّت إنما يعاند رُوح الإســلام؛ ولهذا وقف الرسول الكريم في وجه المتعنِّتين والمتشـدِّدين، وأخبــر بهلكتهم ووبالهم، وقــال: «**ألا هلك المتنطعون، ألا هلك المتنطعــون، ألا هلك المتنطعون**»[(٣)]. وكرر الكلمة ثلاثًا لعظم مضمونها.

وكان بعــض الصحابة قد رغبوا في مواصلة الليــل والنهار صائمين لا يفطرون، طلبًا لزيادة المثوبة. فنهاهم عن هذا الوصال، فلما لم ينتهوا واصل بهم يومًا ثم يومًا ثم يومًا. ثم رأوا الهلال ـ هلال شــوال ـ فقال: «**لو تأخَّر الشهر لزدتكم**». كالمنكِّل لهم حين أبوا أن ينتهوا[(٤)]! وقال: «**لو مُدَّ لنا في الشهر لواصلتُ وصالًا يَدَع المتعمِّقون تعمُّقهم**»[(٥)]! وهذا كلُّه كراهية منه للتشديد، وعقوبة للمشدِّدين.

وروى عنه ابن عباس مرفوعًا: «**إياكــم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»[(٦)]. وهو الغلو الذي نعــاه القرآن على أهل الكتاب ونهاهم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٢٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، وأحمد (٣٦٥٥)، عن ابن مسعود.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣)، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في التمني (٧٢٤١)، ومسلم في الصيام (١١٠٤)، عن أنس.

(٦) رواه أحمد (٣٢٤٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي في الحج =

QaradawiBooks.com

عنه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

روى أبو داود، عن سهل بن أبي أمامة، أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك زمان عمر بن عبد العزيز، وهو أمير، وهو يصلي صلاة خفيفة دقيقة كأنها صلاة مسافر أو قريبًا منها، فلما سلَّم، قال أبي: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفَّلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله ﷺ، ما أخطأتُ، إلا شيئًا سهوتُ عنه، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشدَّد عليكم: فإن قومًا شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]»[(١)].

والنبي ﷺ يشير في هذا الحديث إلى ما ذكره القرآن الكريم في سورة الحديد عن الرهبانية التي ابتدعها النصارى ولم يقوموا بحقِّها، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

= (٣٠٥٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٢٩)، والحاكم في الصوم (٤٦٦/١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في المجموع (١٧١/٨)، والألباني في الصحيحة (١٢٨٣).

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٤)، وأبو يعلى (٣٦٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٦/٦): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن عبد الرحمٰن بن أبي العمياء، وهو ثقة. وقال الألباني في الضعيفة (٣٤٦٨): إسناده يحتمل التحسين. وحسَّن إسناده الضياء في المختارة (٢١٧٨)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

بيَّنت الآية الكريمة أن الرهبانية من ابتداع النصارى، ما كتبها الله عليهم، ولا شرعها لهم. وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، قاصدين رضوان الله بزعمهم[1]. فما رعوها حقَّ رعايتها.

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا ذمٌّ لهم من وجهين: **أحدهما**: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. **والثاني**: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله ﷻ»[2].

وفي قوله ﷺ: «**لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشدَّد عليكم**». إخبار بأن تشديد الإنسان على نفسه سبب لتشديد الله عليه. وتشديد الله إما تشريعي تكليفي، وإما تشديد كوني قَدري. وفقًا لنظام الله في الأسباب والمسببات.

فالتشديد بالشرع، كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيُلزِمه الشرعُ الوفاءَ به. والتشديد بالقدَر، كفعل أهل التزمت والوسوسة: شدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد القدر عليهم، حتى استحكم ذلك فيهم؛ وصار صفة لازمة لهم. وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

الحكمة في تيسير العبادة ورفع الحرج عن الأمة:

وإنما رفع الإسلام الحرج عن أمته، وصدَّ النبي ﷺ تيار التزمت والتشديد، والغلو في الدين لأمرين ذكرهما الإمام الشاطبي في «موافقاته»:

(١) هذا على أحد القولين في تفسير: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، والقول الآخر معناه: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، كما في تفسير ابن كثير (٢٩/٨). ولكن الراجح هو التفسير الأول.

(٢) المرجع السابق.

QaradawiBooks.com

«**أحدهما**: الخوف من الانقطاع في الطريق، وبغض العبادة، وكراهة التكليف، وينتظم تحت هذه المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني: خوف التقصير في الواجبات الأخرى، عند مزاحمة الوظائف المتعلِّقة بالعبد، المختلفة الأنواع، مثل: قيامه على أهله وولده، إلى تكاليف أخرى. فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلًا عنها، وقاطعًا بالمكلف دونها؛ وربما أراد أن يقوم بهذه وتلك على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما معًا.

فأما الأول: فإن الله وضع هذه الشريعة المباركة حنيفية سمحة سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحبَّبها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة، لدخل عليهم فيما كُلِّفوا به ما لا تخلص به أعمالهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، فقد أخبرت الآية أن الله حبَّب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله، وزيَّنه في قلوبنا بذلك، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه. وفي الحديث: «**عليكم من الأعمال بما تطيقون، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا**»(١).

وفي حديث قيام رمضان وانقطاعه ﷺ عن الصلاة بهم في المسجد: «**أما بعد، فإنه لم يخف عليَّ شأنكم، ولكن خشيتُ أن تُفرض عليكم صلاة الليل، فتعجزوا عنها**»(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٥١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢)، عن عائشة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٢٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦١)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وفي حديث الحولاء بنت تُوَيْت حين قالت له ـ ﷺ ـ عائشة: هذه الحولاء بنت تويت، زعموا أنها لا تنام الليل! فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تنام الليل! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله، لا يسأم الله حتى تسأموا**»(١).

وحديث أنس، دخل رسول الله ﷺ المسجد، وحبل ممدود بين ساريتين ـ عمودين ـ فقال: «**ما هذا؟**». قالوا: حبل لزينب، تصلِّي فإذا كسلت أو فترت أمسكت به. فقال: «**حُلُّوه، ليُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد**»(٢).

وحديث معاذ حين قال له النبي ﷺ: «**أفتَّان أنت يا معاذ؟**»(٣). حين أطال الصلاة بالناس، وقال: «**إن منكم منفِّرين، فأيُّكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز ـ أي: ليخفف ـ فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة**»(٤).

ونهى عن الوصال رحمةً بهم، ونهى عن النذر، وقال: «**إن الله يستخرج به من البخيل، وإنه لا يُغني من قدر الله شيئًا**»(٥)، أو كما قال.

ففي هذا كلِّه نرى المعنى معقولًا، والعلة واضحة، من خوف السآمة، والملل والعجز، وبغض الطاعة وكراهيتها. وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله؛ فإن الْمُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى**»(٦).

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٥)، وأحمد (٢٦٠٩٥).

(٢) رواه البخاري في التهجد (١١٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٤).

(٣) سبق تخريجه صـ٢٤٠.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٠٢)، ومسلم في الصلاة (٤٦٦)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في القدر (٦٦٠٨)، ومسلم في النذر (١٦٣٩)، عن ابن عمر.

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٠٢)، وانظر كلام السخاوي عليه في كتابه في الأجوبة المرضية (٢).

QaradawiBooks.com

وأما الثاني: فإن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية، لا بد له منها، ولا محيص له عنها، يقوم بحق ربه تعالى. فإذا أوغل في عمل شاق، فربما قطعه عن غيره، ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به، فتكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعًا عما كلَّفه الله به، فيقصِّر فيه. فيكون بذلك ملومًا غير معذور. إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخلُّ بواحدة منها، ولا بحال من أحواله فيها.

ذكر البخاري، عن أبي جحيفة قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء ـ وهي زوجه ـ متبذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا! فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال له: كُلْ، فإني صائم. فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان الليل؛ فذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم. فنام، ثم ذهب ليقوم، فقال له: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا، فقال له سلمان: إن لربِّك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»(١).

وقال ﷺ: «**إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوَّز في صلاتي، لما أعلم من وجد أمه من بكائه**»(٢).

---

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٠٩)، ومسلم في الصلاة (٤٧٠)، عن أنس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأيضًا، فقد يعجز الموغل في بعض الأعمــال عن الجهاد أو غيره، وهو من أهل الغَنَاء فيــه. ولهذا قال في الحديث فــي داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفرُّ إذا لاقى**»[1].

وقيل لابن مســعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنك لتُقلُّ الصوم؟ فقال: إنه يشغلني عن قراءة القرآن؛ وقراءة القرآن أحب إليَّ منه[2].

وكره مالك إحيــاء الليل كلــه، وقال: لعلــه يصبــح مغلوبًا، وفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة»[3].

وبهــذا يتبيَّن لنا أن هذا المبــدأ تتمة للمبدأ الســابق، فإن الاعتدال المطلوب بين الدين والدنيا لا يمكن أن يتمَّ إلا بتيسير العبادة وتسهيلها.

رُخص وتخفيفات:

وإذا كان الإسلام قد بُني على اليسر ورفع الحرج في عباداته وتكاليفه في عامــة الأحــوال، فإنه بصفــة خاصة شــرع ألوانًا من الاســتثناءات والإعفاءات والتسهيلات في أحوال خاصة، وهي تلك التي تُوجِدُ للإنسان نوعًا من المشقَّة يؤوده ويثقل ظهره، ويقعد به عن مواصلة السير.

وقد بيَّنت فــي كتابي: «الحــلال والحرام» أن الإســلام قد اعترف بالضعف الإنساني، وقدَّر لظروف الحياة القاسية قدرها فقرَّر مبدأً إنسانيًّا هامًّــا لا غنــى للإنســان ولا للحيــاة عنــه، هــو: «الضــرورات تبيح

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في الصيام (٣٠٧١٤).
(٣) الموافقات (٢/١٣٦ ـ ١٤٥).

QaradawiBooks.com

المحظورات». وهو المبدأ الذي نصَّ عليه القرآن في غير آية كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

هذا في شأن الحلال والحرام.

أما في العبادات فقد قرَّر الإسلام فيها مبدأً هامًّا كذلك من أجل الحياة والإنسان. ذلك هو مبدأ «الرُّخص» والتخفيف أو الإعفاء في عباداته إذا اقتضت ذلك مطالب الحياة أو ضروراتها، أو هما معًا.

فالسفر مثلًا تقتضيه مطالب الحياة التي جاء الدين بإقرارها، بل بتمجيدها والدعوة إليها. كالسفر لطلب الرزق: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، سافروا تصحوا وترزقوا[1]، والسفر للحج إلى بيت الله ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٧]، والسفر لغير ذلك من الأغراض الدينية والدنيوية.

والمرض مثلًا من ضرورات الحياة وبلائها الذي لا يكاد يسلم منه إنسان، بمقتضى النشأة الإنسانية و«التركيب» البشري: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

والجهاد من مطالب الحياة وضروراتها معًا، إذ الإسلام لم يشرعه إلا دفاعًا عن النفس، وتأمينًا للدعوة، ودرءًا للفتنة، وإنقاذًا للمستضعفين، وتأديبًا للناكثين.

وفي هذه الأمور الثلاثة ـ السفر، والمرض، والجهاد ـ قرَّر الإسلام تيسيرات شتَّى:

(١) رواه عبد الرزاق في المناسك (٩٢٦٩)، عن طاوس من قول عمر.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من رخص الصلاة:

فجعل للمسافر في الصلاة القصر: يصلي الرباعية ـ كالظهر، والعصر، والعشاء ـ ركعتين فقط، وقال الرسول ﷺ في ذلك: «**صدقة تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**»(١).

ورخَّص له في الجمع بين الصلاتيـــن ـ الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء ـ فأجاز جمعهما في وقت إحداهما تقديمًا أو تأخيرًا.

كما رخَّص للمريـــض أن يُصلي قاعدًا أو مضطجعًـــا على جنبه، أو مستلقيًا على ظهره، حسب استطاعته، وليس على المريض حرج.

وفي «الطهارة» ـ التي هي شـــرط لصحة الصلاة ـ رخَّص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مريض أو مسافر أو نحوهما أن يترك الوضوء إلى التيمم بالصعيد الطيب من رمل أو تراب أو حجر أو نحوه، تيســيرًا من الله، ورحمة بعباده، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد ذكر القرآن هذا الحكم أيضًا في ســـورة النساء قائلًا: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وفي هذه الآيات يتبيَّن للمســلم أن هذه الرُّخص في العبادات مظهر يتجلَّى الله فيه بأسمائه: العفو الغفور، الكريم الرحيم، الذي يريد أن يطهر عباده ويتمَّ عليهم النعمة.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨٦)، وأحمد (١٧٤)، عن عمر.

QaradawiBooks.com

ولله مـا كان أفقه عمرو بن العاص حين بعثه رسـول الله ﷺ، في غزوة ذات السلاسـل، فاحتلم في ليلة شـديدة البرودة، وأشـفق إن اغتسـل أن يهلك، فتيمَّم ثم صلَّـى بمَن معه صـلاة الصبح، وكأن أصحابه لـم يقنعهـم هـذا العمل مـن عمـرو، فلما قدمـوا على رسـول الله ﷺ، ذكروا ذلك له، فقال له الرسـول: «**يا عمرو، صليتَ بأصحابك وأنت جنب؟**». فقال عمـرو: ذكرتُ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النسـاء: ٢٩]. فتيممت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقُل شيئًا[1].

فضَحِكُ الرسـول ﷺ وسـكوتُه دليل على إقراره لعمـرو. بل على إعجابه بفقهه في هذه القضية رضي الله عنه.

من رخص الجهاد:

وفي الجهاد شـرع الله صلاة الحـرب، فجعلها فـي الرباعية ركعة واحدة، تيسـيرًا عليهم، وإعانة لهم على عدوهم. قال ابن عباس: إن الله فرض الصلاة على لسـان نبيكم على المسـافر ركعتين، وعلى المقيم أربعًا، وفي الخوف ركعة[2].

وعند التحام الصفوف، قَبِلَ من المقاتلين الصلاة كيف اسـتطاعوا: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقـرة: ٢٣٩]، فلا يشـترط فيهـا ركوع ولا سجود ولا استقبال قبلة.

---

(١) رواه أحمد (١٧٨١٢)، وقال مخرجوه: صحيح. وأبو داود في الطهارة (٣٣٤)، وعلَّقه البخاري مختصرًا قبل الحديث (٣٤٥)، عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨٧)، والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٤٢).

QaradawiBooks.com

ولم يكن النبـــي ﷺ وأصحابه يفرِّقون بين الصــلاة والجهاد، فتلك عمود الإسلام، وهذا ذروة سنامه، والمصلِّي يعتبر نفسه في ميدان جهاد، والمجاهد يعتبر نفسه في محراب صلاة!

وقد فرض الله على المجاهدين أن يحملوا أسلحتهم ويأخذوا حذرهم وهم بين يديه خاشـعون، ولربِّهم مبتهلون مناجـون: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

وأرسل عليه الصلاة والسلام من فرســانه طليعة له، ليستكشف ويستطلع خبر العدو، وظلَّ عليه الصلاة والسلام **يصلي الصبــح، وهو يلتفت إلى الشِّـعب** الـذي يجيء منه الفارس[(١)]، رغم نهيه عن الالتفات في الصــلاة[(٢)]، وأنها كانت قرة عينه ونعيم روحه[(٣)].

وروي عن عمر أنه قال: إني لأجهز جيشي، وأنا في الصلاة[(٤)].

---

(١) إشارة إلى حديث سـهل بن الحنْظَلِيَّة، أنهم ســاروا مع رســول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير ... فجعل رسول الله ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: «أبشروا فقد جاءكم فارســكم». فجعلنا ننظر إلى خلال الشـجر في الشعب ... رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠١)، والنسائي في الكبرى في السير (٨٨١٩)، وابن خزيمة في الصلاة (٤٨٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٥٩).

(٢) إشارة إلى حديث عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ، عن الالتفات في الصلاة؟ فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». رواه البخاري في الأذان (٧٥١).

(٣) سبق تخريجه صـ١٣٦، وفيه: «جعلت قرة عيني في الصلاة».

(٤) علقه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة قبل الحديث (١٢٢١)، ووصله ابن أبي شيبة في الصلاة (٤٠٣٤).

QaradawiBooks.com

رخص الصيام:

وفي صيام رمضان رخَّص الإسلام للمسافر في الإفطار، بل أوجبه عليه إذا كان في صومه مشقَّة ظاهرة عليه، ففي «الصحيح»، عن جابر، كان النبي ﷺ في سفر، فرأى رجلًا قد اجتمع الناس عليه، وقد ظُلِّلَ عليه، فقال: «**ما له؟**». قالوا: رجل صائم. فقال ﷺ: «**ليس البر أن تصوموا في السفر**»(١).

وعن عمار بن ياسر قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ من غزوة، فسرنا في يوم شديد الحرِّ، فنزلنا في بعض الطريق، فانطلق رجل منا، فدخل تحت شجرة، فإذا أصحابه يلوذون به وهو مضطجع كهيئة الوَجِع، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «**ما بال صاحبكم؟**». قالوا: صائم. فقال رسول الله ﷺ: «**ليس من البر أن تصوموا في السفر، وعليكم بالرخصة التي رَخَّصَ الله لكم فاقبلوها**»(٢).

وبذلك أثبت النبي ﷺ بكلِّ صراحة: أن الصيام إذا شقَّ على صاحبه في السفر إلى الحدِّ الذي ذكرته الروايات كان إثمًا لا برًّا.

وعن أنس قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلًا في يوم حار، أكثرنا ظلًّا صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**»(٣).

---

(١) رواه مسلم في الصيام (١١١٥)، وأحمد (١٤١٩٣)، عن جابر.

(٢) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (١٦٠٣) للطبراني في الكبير، وحسن إسناده، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٩٢٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٠)، ومسلم في الصيام (١١١٩).

QaradawiBooks.com

وهكذا لا يكسب الصائم في مثل هذه الأحوال إلا الجوع والعطش ويكسب المفطر الشبع والري، ومثوبة العمل الاجتماعي لخدمة إخوانه.

وكذلك رخَّص للمريض بالفطر في رمضان؛ ويقضي هو والمسافر عدة من أيام أخر. ولنستمع إلى قول الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ورخَّص رسول الله ﷺ للمجاهدين بالفطر في الصيام، فعن أبي سعيد قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ، إلى مكة ونحن صيام، قال: فنزلنا منزلًا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنكم دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم**». فكانت رخصة، فمنا مَن صام ومنا مَن أفطر، ثم نزلنا منزلًا آخر، فقال: «**إنكم مصبِّحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا**». فكانت عزمة، فأفطرنا[1].

وقد استدلَّ الإمامان ابن تيمية وابن القيم بهذه الجملة «**إنكم مصبِّحو عدوكم، والفطر أقوى لكم**». على أن لقاء الأعداء ـ ولو كان ذلك في غير سفر ـ يقتضي الإفطار؛ لأن المسلمين مطالبون بإعداد ما استطاعوا من قوة، والفطر من أسباب القوة.

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة من أجل هذه الأمور الثلاثة ـ المرض والسفر والجهاد ـ مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الإسلام في مكة، ففي سورة المزمل يقول تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ

(١) رواه مسلم في الصيام (١١٢٠)، وأحمد (١١٣٠٧).

QaradawiBooks.com

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وكان أكثر الناس انشراحًا لهذه الرُّخص، وانتفاعًا بها، هم الصحابة الذين فقهوا عن رسول الله ﷺ، ونهلوا من نبع النبوة، ولم يُحَجِّروا ما وسَّع الله. وكيف لا، وقد علموا: أن الله يحبُّ أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته[1]؟!

* * *

(١) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح. وابن خزيمة في الصيام (٢٠٢٧)، وابن حبان في الصلاة (٢٧٤٢)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

عبادات الإسلام وشعائره الكبرى

أسرارها وأثرها في الحياة

- تمهيد.
- الصلاة.
- الزكاة.
- الصيام.
- الحج.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تمهيـــد

المراد بعبادات الإسلام:

حين نتحدَّث عن «عبادات الإسلام» نعني بها: تلك الصور المحدَّدة التي رسمها الإسـلام للتقرُّب بها إلى الله تعالى، واتخذها شعائر مميزة له، وعين لها مواقيت ومقادير وكيفيات لا مجال فيها لتبديل أو تعديل؛ وهذا ما يجعلنا نقصر الحديث على العبادات الأربع المعروفة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

ولو شئنا أن نفســح المجال لكان علينا أن ندخل في حديثنا ـ على الأقل ـ عبادتين من أهم العبادات الإســلامية التــي لم تدخل في نطاق التعبد بتحديد المواقيت والكيفيات، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

فالفريضة الأولى من السـمات التي تميزت بها هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهـي من شـعب الإيمـان وخصـال المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبـة: ٧١]، ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ

QaradawiBooks.com

ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، ومن فرَّط فيها لُعِنَ كما: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

والفريضة الثانية قد أُمر بها المسلم كما أمر بالركوع والسجود وسائر العبادات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۞ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والرسول ﷺ يقول: «**مَن لقي الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثُلمة**»(١).

ويبيِّن القرآن عظم مثوبة المجاهدين، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

وقال ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

وسأله بعضهم: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**لا تستطيعونه**». فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، وكل ذلك يقول:

(١) رواه الترمذي (١٦٦٦)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه (٢٧٦٣)، كلاهما في الجهاد، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٦٠٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٨٠)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

«لا تستطيعونه». ثم قال: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة وصيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**»(١).

ومع ما لهاتين الفريضتين أو العبادتين ـ الجهاد والأمر والنهي ـ من شأن ومنزلة في الإسلام، فإننا نَدَع الحديث عنهما هنا، حيث نتجه إلى العبادات الشعائرية الكبرى، التي وضح فيها معنى التعبُّد، وهي التي تُلتمس في العادة آثارها، وتُطلب أسرارها.

عبادات قديمة جديدة:

العبادات الإسلامية المعروفة، من صلاة وزكاة وصيام وحج، عبادات قديمة، عرفتها الأديان قبل الإسلام على صورة من الصور، فالله تعالى يقول عن بعض الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وفي الصيام يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وفي الحج يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

ولكن هذه العبادات الأربع كانت في تلك الديانات مناسبة لعصرها وبيئتها، فلما جاء محمد ﷺ، بالرسالة الخاتمة الملائمة للبشرية في طور

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٧٨)، وأحمد (٩٤٨١)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

نضوجها، فرض الله عليه ـ ﷺ ـ هذه العبادات في أكمل صورة لها، ورقَّى كل نوع منها إلى غايته ومنتهاه، ونقَّاها من كلِّ ما شابها خلال العصور وكرِّ الدهور.

فالصلاة لم تعد مجرَّد ابتهال ودعاء، ولكنها ذكر ودعاء وتلاوة؛ هي أقوال وأعمال يشترك فيها الفكر والقلب واللسان والبدن، اشترط الإسلام لها النظافة والطهارة، وأخذ الزينة، والاتجاه إلى قبلة واحدة، ووزعها على أوقات النهار والليل بمواقيت معينة، وحدَّد لكلِّ صلاة منها ركعات معدودة، ورتَّب كيفيتها على نسق فريد، وكمَّلها بما شرع فيها من جماعة وجمعة، وزَانَ ذلك كلَّه بما شرع من أذان وإقامة.

والصلاة الإسلامية بهذه الصورة، وتلك الشروط، عبادة فذَّة لم تُعرف هكذا في دين من الأديان.

والزكاة في الإسلام عبادة فذَّة، إنها ليست مجرَّد إحسان يتبرَّع به متبرِّع، أو صدقة يتطوَّع بها متطوِّع؛ إنها حق معلوم، وضريبة مقدَّرة على كلِّ مَن يملك نصابًا محدَّدًا ناميًا من المال حال عليه الحول فاضلًا عن الحاجات الأصلية لمالكه. إنها حق الله فيما أنعم به من مال أو تجارة أو زرع. حقٌّ يدفع الإيمان إلى أدائه، وتقوم الدولة على جبايته: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فمَن أدَّاها طيبة بها نفسه، فقد كسب رضا الله والناس، وفاز بخيري الآخرة والأولى، ومَن أبى قُسر على أدائها قسرًا، فإن كانت له شوكة قوتل وجُندت له الجنود حتى يؤدِّيها: وهذا ما صنعه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مع مانعي الزكاة.

فالزكاة بهذا الوضع وبمصارفها التي بينها القرآن عبادة جديدة لم تُعرف بهذا الكمال في دين من الأديان.

QaradawiBooks.com

وكذلك الصيام والحج، والذكر والدعاء، عبادات قديمة مشتركة في أديان كثيرة، ولكن الإسـلام نقَّى هذه العبادات جميعًا من كلِّ شائبة، ورقَّى كلَّ نوع منها إلى غايته، وركَّز فيها من الأسـرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير في الحياة ما يليق بدين عام خالد، مهمَّته إصلاح الفرد، وإسـعاد البيت، واسـتقرار الجماعـة، وتوجيه الدولة، وهداية العالمين.

أسرار العبادات وآثارها:

والأصل في العبادات أنها تؤدَّى امتثالًا لأمـر الله، وأداءً لحقِّه على عباده، وشـكرًا لنعمائه التي لا تُنكر، وليس من الـلازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسـان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمـة يدركها عقله المحـدود. الأصل فيهـا أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربِّه، فلا معنى لأن يدرك السرَّ في كلِّ تفصيلاتها. فالعبد عبد، والربُّ ربٌّ. وما أسعد الإنسان إذا عرف قدر نفسه!

ولو كان الإنسان لا يتعبَّد لله إلا بما وافق عليه عقله المحدود، وعرف الحكمة فيه تفصيلًا، فإذا عجز عن إدراك السـرِّ فـي جزئية أو أكثر من جزئياته. أعرض ونأى بجانبه ـ لكان في هذه الحـال عبد عقله وهواه، لا عبد ربِّه ومولاه.

إن العبودية لله شـعائرها الإيمان بالغيب ولو لم تره، والطاعة للأمر ولو لم تُحِط بسرِّه.

وحسب المؤمن أن يعلم بالإجمال أن الله غني عن العالمين، غني عن عباداتهم وطاعاتهم، فلا تنفعه طاعـة مَن أطاع ولا تضره معصية

QaradawiBooks.com

مَن عصى ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فالله غني عن عباده كل الغنى، وإذا تعبَّدهم بشيء فإنما يتعبَّدهم بما يصلح أنفسهم، ويعود عليهم بالخير في حياتهم الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، والدنيوية والأخروية. غير أن الإنسان المحدود قد تخفي عليه حكمة الله جلَّ علاه.

وكم لله من سرٍّ خفي يدقُّ خفاه عن فهم الذكي

وكما أخفى كثيرًا من أسرار هذا الكون عن الإنسان، أخفى عنه بعض أسرار ما شرع ليظلَّ الإنسان في هذا وذاك متطلِّعًا بأشواقه وراء المجهول، آملًا في الوصول، معترفًا بالقصور. وليظلَّ دائمًا في دائرة العبودية المؤمنة التي شعارها دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه: «المنقذ من الضلال»: «أن العبادات لصحة قلب الإنسان كالأدوية لصحة بدنه، وليس كلُّ إنسان يعرف خواص الدواء وسرَّ تركيبه إلا الطبيب أو العالم الذي اختصَّ بمعرفته. وكلُّ مريض يقلِّد الطبيب فيما يصف له من دواء ولا يناقشه فيه».

قال: «فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يُدرَك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل. وكما أن اختلاف الأدوية في

QaradawiBooks.com

المقدار والوزن والنوع لا يخلو من سرٍّ هو من قبيل الخواص. فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب مركَّبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى إن السجود ضعف الركوع. وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، فلا تخلو عن سرٍّ من الأسرار، وهو من قبيل الخواص التي لا يطَّلع عليه إلا بنور النبوة. فقد تحامق وتجاهل جدًّا مَن أراد أن يستنبط لها حكمة، أو ظنَّ أنه ذكرت على الاتفاق لا عن سر إلهي فيها»[1].

وبهذا علم أنه من الخطأ البين أن نطلب لكلِّ تفصيل من تفصيلات العبادة حكمة تقنع العقل، وتشبع نهمه، ولا سيما ذلك العقل المادي الحديث الذي لا يشبعه إلا الحسية والنفعية.

فالعبادات ـ كما قال الأستاذ العقاد ـ شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها، ولا يتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها، إلا أمكن أن يتجه إلى الوضع الآخر، لو استبدل منها ما اقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها.

«لماذا يكون الصوم شهرًا، ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة؟

لماذا تكون حصة الزكاة جزءًا من عشرة أجزاء، ولا تكون جزءًا من تسعة أو من خمسة عشرة؟

لماذا نركع ونسجد، ولا نصلي قيامًا أو قيامًا وركوعًا بغير سجود؟

مَن اعترض بأمثال هذه الاعتراضات، فليس ما يمنعه أن يعود إلى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع، أو فرضت الزكاة فوق مقدارها

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي صـ ١٨٨، ١٨٩ بتصرف، تحقيق الشيخ عبد الحليم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، مصر.

QaradawiBooks.com

أو دون هذا المقــدار، أو فرضت الصلاة على وضــع غير وضعها الذي اتفق عليه أتباع الدين.

وليس معنى هذا أن هذه الأوضاع لا تُعرف لها أسباب تدعو لها، وتفسِّر لنا اتَّباعها دون غيرها، ولكنها في نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكُّم فيها بالاقتراح والتعديل؛ لأن المقترح المعدل لن يســتند إلى حجَّة أقوى من الحجة التي يرفضها، ويميل إلى سواها.

ويســري هذا على كلِّ تنظيم في أمور الدنيا، ولا يســري على أمور الدين وحده. فلمــاذا يكون عدد الكتيبة في جيش الأمة خمســين مثلًا، ويكون في أمة غيرها أربعين أو مائة؟ ولماذا يُجعل اللون الأخضر رمزًا لهذا المعنى في ألوان العلم القومــي عند قوم من الأقوام، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين.

لا مناص في النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم بها أقرب إلى العقل من المجادلة فيها»(١).

وقد ضلَّ قوم حاولوا أن يفهموا الحكمة في كلِّ جزئية من جزئيات العبادة، فلما خفيت عليهم أســرار بعض التفصيــلات في عبادة كالحجِّ شكُّوا وشكَّكُوا، وهم في شكِّهم وتشكيكهم ضالون عن سواء السبيل.

* * *

(١) حقائق الإسلام للعقاد صـ ١٠٨، ١٠٩.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الصلاة

الصلاة عبادة عريقة في القدم، وشعيرة مشتركة بين الديانات عامة، ولا أحسب تاريخ الأديان عرف دينًا بغير صلاة.

بيد أن الصلاة الإسلامية لها مزاياها الخاصة، التي برز فيها بوضوح ما ذكرناه من خصائص الإسلام وهديه، وما جاء به من إصلاح في العبادات، فلا عجب أن تشتمل على أسرار بليغة لا تشاركها فيها صلاة في أيِّ دين آخر.

منزلة الصلاة في الإسلام:

وقد عني الإسلام في كتابه وسنَّته بأمرها، وشدَّد كل التشديد في طلبها، وحذَّر أعظم التحذير من تركها، فهي عمود الدين، ومفتاح الجنة، وخير الأعمال، وأول ما يُحاسب عليه المؤمن يوم القيامة؛ يذكرها القرآن في دعاء الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ويمدح بها الذبيح إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٥]، ويأمر الله كليمه موسى بإقامتها أول ما يأمر به في ساعات الوحي الأولى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤]،

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويوحي إليه وإلى أخيه هارون: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧]، وفي وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وينطق المسيح عيسى في مهده: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، ويأمر الله بها خاتم أنبيائه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويجعلها صفة جوهرية من صفات المتقين تتلو الإيمان بالغيب: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، ويبدأ بها ويختم أوصاف المؤمنين المفلحين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٩].

ويؤكِّد المحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۞ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]، أي فصلُّوا في حال الخوف والحرب مشاة أو راكبين، كيف استطعتم، بغير ركوع ولا سجود، بل بالإشارة والإيماء، وبدون اشتراط استقبال القبلة للضرورة هنا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وينذر بالويل والهلاك مَن يسهو عنها حتى يضيع وقتها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، ويدمغ بالذمِّ واستحقاق الغيِّ خلف سوء: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

QaradawiBooks.com

ويجعلها الرسول الكريم الدليل الأول على التزام عقد الإيمان، والشعار الفاصل بين المسلم والكافر: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[(١)]، «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمَن تركها فقد كفر**»[(٢)]، وذكر الصلاة يومًا، فقال: «**مَن حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة، ومَن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبيٍّ بن خلف**»[(٣)]. قال العلماء في توجيه هذا الحديث: فمَن شغله عن الصلاة ماله فهو مع قارون، ومَن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومَن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أُبيٍّ بن خلف.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَن فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله**»[(٤)]، أي أصيب في أهله وماله وأصبح بعدهم وترًا فردًا، فإذا كانت هذه كارثة من فاتته صلاة، فكيف بمَن فاتته الصلوات كلها؟!

فلا عجب بعد هذه التأكيدات والتشديدات من نصوص القرآن والسنة أن ذهب جماعة من أئمة الإسلام إلى أن تارك الصلاة كافر خارج عن ملة الإسلام، وتساهل آخرون فقالوا: إنه عاصٍ فاسق يُخشى عليه فقدان الإيمان.

تلك هي مكانة الصلاة في الإسلام؛ ولهذه المكانة كانت أول عبادة فرضت على المسلمين، فقد فرضت في مكة قبل الهجرة بنحو

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأحمد (١٥١٨٣)، عن جابر.

(٢) رواه أحمد (٢٢٩٣٧)، وقال مخرجوه: إسناده قوي. والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، كلاهما في الصلاة، عن بريدة.

(٣) رواه أحمد (٦٥٧٦)، وقال مخرجوه: إسناده حسن. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٨٣٢): إسناده جيد. عن عبد الله بن عمرو.

(٤) متفق عليه رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٢)، ومسلم في المساجد (٦٢٦)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ثلاث سنوات، وكانت طريقة فريضتها دليلًا آخر على عناية الله بها، إذ فرضت العبادات كلها في الأرض، وفرضت الصلاة وحدها في السماء، ليلة الإسراء والمعراج، بخطاب مباشر من ربِّ العالمين إلى خاتم المرسلين.

إن الحكومات تستدعي سفراءها في الأمور الهامة الحاسمة، التي لا تغني فيها المراسلة عن المشافهة، ومحمد ﷺ سفير الله إلى خلقه، فإذا استدعاه الله سبحانه وعرج به إلى السماوات العلا، ليخاطبه بفرض الصلوات، كان ذلك برهانًا ناطقًا على سموِّ منزلة الصلاة وأهميتها عند الله.

• الصلاة المطلوبة:

والصلاة التي يريدها الإسلام ليست مجرد أقوال يلوكها اللسان، وحركات تؤدِّيها الجوارح، بلا تدبُّر من عقل، ولا خشوع من قلب، ليست تلك التي ينقرها صاحبها نقر الديكة، ويخطفها خطف الغراب، ويلتفت فيها التفات الثعلب. كلا، فالصلاة المقبولة هي التي تأخذ حقَّها من التأمُّل والخشية واستحضار عظمة المعبود جلَّ جلاله.

ذلك أن القصد الأول من الصلاة ـ بل من العبادات كافة ـ هو تذكير الإنسان بربِّه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقال رسوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما فُرِضَت الصلاة، وأُمر بالحج، وأُشعِرَت المناسك، لإقامة ذكر الله تعالى**»[١]. وأشار إلى

(١) رواه أحمد (٢٤٣٥١)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في المناسك (١٨٨٨)، والترمذي في الحج (٩٠٢)، وقال: حسن صحيح. كلهم بدون ذكر الصلاة، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٢٨)، ورجح الموقوف، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

روح الصلاة فقال: «**إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع، وترفع يديك تقول: اللهم اللهم. فمَن لم يفعل فهي خداج**»(١)، أي ناقصة.

فهذا تنبيه على أهمية حضور القلب في الصلاة، وأما حضور العقل فحسبنا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فنبَّه بهذا التعليل على وجوب حضور العقل في الصلاة، فكم من مصلٍّ لا يعلم ما يقول في صلاته، وهو لم يشرب خمرًا، وإنما أسكره الجهل والغفلة وحبُّ الدنيا واتباع الهوى!

ويقول ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ(٢).

هذه هي الصلاة التي كانت قُرَّة عينه ﷺ، والتي كان يحنُّ إليها، ويتلهَّف عليها ويقول لبلال: «**أرحنا بها**»(٣)! هذه هي صلاة الأُنس والحبِّ، لا صلاة النقر والخطف، التي يؤدِّيها كثير من المسلمين، وما أعظم الفرق بين مَن يقوم إلى صلاته وهو يقول: «**أرحنا بها**». وبين مَن يقوم إليها وهو يقول: أرحنا منها!

سرُّ تكرار الصلاة في اليوم:

جعل الله الصلاة على المؤمنين كتابًا موقوتًا، أمرهم بإقامتها حين يمسون وحين يصبحون، وعَشِيًّا وحين يظهرون. كرَّرها خمس مرات في اليوم لتكون «حمَّامًا» روحيًّا للمسلم يتطهَّر بها من غفلات قلبه، وأدران

(١) رواه أحمد (١٧٥٢٥)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الصلاة (٣٨٥)، وذكر الخطأ الواقع في راويه وقطع أنه عن الفضل بن العباس.

(٢) رواه ابن مبارك في الزهد (٢٨٨).

(٣) سبق تخريجه صـ١٣٦.

QaradawiBooks.com

خطاياه. وقد مثَّل النبي ﷺ، هذا المعنى في حديثه الشريف فقال: «**أرأيتم لو أن نهرًا على باب أحدكم، يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرات، فهل يبقى على بدنه من درنه شيء؟**». قالوا: لا. قال: «**كذلك مَثَل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا**»(١). وأي إنسان يمرُّ عليه يوم من غير خطايا وهفوات؟!

لقد خُلق هذا الإنسان خلقًا عجيبًا، فيه من الملاك روحانيته، ومن البهيمة شهوتها، ومن السباع حميتها. وكثيرًا ما تغلبه الشهوة، ويستفزُّه الغضب، ويجذبه تراب الأرض الذي خُلق منه، فيقع في الأخطاء، ويتردَّى في الخطايا، وليس العيب أن يخطئ الإنسان، فكلُّ بني آدم خطَّاء، ولكن العيب أن يتمادى في الخطأ، ويستمرَّ في الانحدار، حتى يصير كالأنعام أو أضل سبيلًا.

وفي الصلوات اليومية الخمس فرصة يثوب فيها المخطئ إلى رشده، ويفيق المغرور من سباته، ويرجع الإنسان إلى ربِّه، ويطفئ هذا السعار المادي الذي أجَّجته المطامع والشهوات، ونسيان الله والدار الآخرة.

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله عليه: «**إن لله ملكًا ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم، قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فأطفئوها**»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد (٦٦٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤٥٢)، وفي الصغير (١١٣٥)، وقال: لم يروه عن ابن عون إلا أزهر تفرد به يحيى بن زهير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥٩): لم أجد من ذكره إلا أنه روى عن أزهر بن سعد السمان، وروى عنه يعقوب بن إسحاق المخرمي، وبقية رجاله رجال الصحيح. وحسَّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٣٥٨)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

إنها نار موقدة، تطلع على الأفئدة، وتلفح القلوب والعقول. والصلاة هي مضخة الإطفاء التي تخمد هذه النار، وتمسح دخانها، وسوادها، وتغسل أثرها من بين جوانح الإنسان. ويوضِّح هذا ابن مسعود في حديثه الذي يقول: «**تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا تكتب عليكم حتى تستيقظوا**»(١).

ويصوِّر الرسول لأصحابه ـ بكلِّ وسائل التوضيح ـ عمل الصلاة في محو الخطايا التي تبدر من الإنسان في صباحه ومسائه، فيروي لنا عنه سلمان الفارسي، أنه كان معه تحت شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا، فهزَّه حتى تحاتَّ ورقه، ثم قال: «**يا سلمان، ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟**». قلت: ولم تفعله؟ قال: «**إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلَّى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذه الأوراق**». ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤](٢).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٢٢٢٤)، وفي الصغير (١٢١) مرفوعًا، ورواه في الكبير (١٤٨/٩) موقوفًا. وقال المنذري في الترغيب (٥٢٧): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن، ورواه في الكبير موقوفًا عليه وهو أشبه ورواته محتج بهم في الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥٨): رواه الطبراني في الثلاثة إلا أنه موقوف في الكبير، ورجال الموقوف رجال الصحيح، ورجال المرفوع فيهم عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن. عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٢٣٧٠٧)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والطيالسي (٦٨٧)، والطبراني (٢٥٧/٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥١): في إسناد أحمد: علي بن زيد، وهو مختلف في =

QaradawiBooks.com

وليس أثر الصلوات مقصورًا على هذا الجانب من غسل الأدران، وتكفير الخطايا، ومطاردة السيئات، ولكنها تقوم بمهمة إيجابية أخرى، فإنها للحظات خصبة مباركة، تلك المرات الخمس التي ينتزع الإنسان فيها نفسه كل يوم من دنياه، دنيا الطين والحمأ المسنون، دنيا الأحقاد والصراع، وتنازع البقاء أو تنازع الفناء، ليقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفِّف بها من غلواء الحياة، وضغط الطين والمادة الكثيفة على القلوب والأرواح.

إنها تقوم بتغذية ذلك الجزء العلوي الإلهي في كيان الإنسان، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، ذلك الكائن الروحي الذي يعيش بين جوانح الإنسان، لا يكفي لتغذيته علم العلماء، ولا أدب الأدباء، ولا فلسفة المتفلسفين، ولا يغذيه إلا معرفة الله وحسن الصلة به.

وهذه الصلوات الخمس هي وجبات الغذاء اليومي للروح، كما أن للمعدة وجباتها اليومية، ففي مناجاة العبد لربِّه في صلاته شحنة روحية تنير قلبه، وتشرح صدره، وتأخذ بيده من الأرض إلى السماء، وتدخله إلى الله بلا باب، وتوقفه بين يديه بلا حجاب، فيكلِّمه بلا ترجمان، ويناجيه فيناجي قريبًا غير بعيد، ويستعين به فيستعين بعزيز غير ذليل، ويسأله فيسأل غنيًّا غير بخيل، تكاد تشفُّ روحه وتصفو نفسه فتسمع كلام الله الذي يقول: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. **قال الله** عز وجل: **حمدني عبدي. فإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. **قال الله: أثنى عليَّ**

= الاحتجاج به، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في صحيح الترغيب (٣٦٣): حسن لغيره.

QaradawiBooks.com

عبدي. فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. **قال الله: مجَّدني عبدي. فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. **قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال:** ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. **قال الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[(١)]. ويعبِّر النبي ﷺ، عن قوة الصلة بين العبد وربِّه في الصلاة، فيقول: «**إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه، فلا ينصرف عنه، حتى ينقلب** - أي يرجع - **أو يحدث حدث سوء**»[(٢)].

الصلاة نظافة وتجمُّل:

ولكن الصلاة في الإسلام ليست عبادة رُوحية فحسب، إنها نظافة وتطهُّر، وتزيُّن وتجمُّل، اشترط الله لها تطهير الثوب والبدن والمكان من كلِّ خبث مستقذر، وأوجب التطهُّر بالغسل والوضوء، فمفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطهور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦].

لقد اعتبر الإسلام النظافة من الإيمان؛ روي عن الرسول ﷺ قوله لأمته: «**تنظَّفوا فإن الإسلام نظيف**»[(٣)]، «**إن الله طيِّب يحبُّ الطيب، نظيف يحبُّ النظافة**»[(٤)]، وأثنى القرآن على أهل مسجد قُباء - أو المسجد النبوي -

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٢٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣٧٠): رجال إسناده ثقات. وابن خزيمة في الصلاة (٩٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٤)، عن حذيفة.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٤٨٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٥٧٩): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه نعيم بن مُورِّع، وهو ضعيف. وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٢٢٨١)، عن عائشة.

(٤) رواه الترمذي في الأدب (٢٧٩٩)، وقال: هذا حديث غريب، وخالد بن إلياس يضعف. =

QaradawiBooks.com

لحرصهم على التنظُّف والتطهُّر: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقد أمر المسلم أن يأخذ زينته للصلاة، ويذهب إلى المسجد طيب الرائحة، حسن الملبس، مجتنبًا لكلِّ ما يؤذي إخوانه من الروائح الكريهة أو الثياب المستقذرة، كما استحبَّ له أن يتسوَّك عند كلِّ صلاة: «**السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب**»[1].

وسنَّ له يوم الجمعة أن يغتسل ويتطيَّب ويلبس أحسن ما عنده، ولا يمضي إلى المسجد في ثياب مهنته.

وهكذا كان المسلمون الأولون يفعلون؛ كان الحسن إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فسئل عن ذلك، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأحب أن أتجمل لربي، وهو تعالى يقول: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١][2].

هذا على حين كان القسيسون والرهبان في العصور الوسطى بأوروبا يعدون الإهمال والقذارة من وسائل القربة إلى الله، والنظافة والتجمُّل من عمل الشيطان، حتى إن راهبًا أثنى على آخر فقال: يرحمه الله؛ لقد عاش طول عمره ولم يقترف إثم غسل الرجلين[3]!

= والبزار (١١١٤)، وضعفه الألباني في تخريج الحلال والحرام (١١٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤)، ووصله أحمد (٢٤٣٣٢)، وقال مخرجوه: حديث صحيح لغيره. والنسائي في الطهارة (٥)، عن عائشة.

(٢) تفسير الألوسي (٣٤٩/٤)، تحقيق علي عبد الله الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(٣) راجع ما كتبناه عن تطرف الرهبانية وعتوها في الباب السابق، تحت عنوان: التوازن بين المادية والروحية.

QaradawiBooks.com

الصلاة رياضة بدنية:

والصلاة تغمس في مقيمها الــروح الرياضية، وتقوي عضلات بدنه، فهي تتطلب اليقظة المبكرة والنشاط الذي يستقبل به اليوم من قبل طلوع الشـمس، وهي بكيفيتها المأثورة عن رسول الله ﷺ أشـبه بالتمرينات الرياضية الفنيــة التي يقوم بهــا الرياضيون المحدثون، لتقوية الجســم ورياضية أعضائه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يقف في الصلاة وقفة معتدلة، لا يطأطئ ولا يتماوت. وقد رأى عمر رجلًا يتماوت في صلاته، فقال له: لا تُمت علينا ديننا أماتك الله[1]. ورأى آخر يطأطئ رقبته مظهرًا الخشوع، فقال له: ارفع رأسك، فإن الخشوع في القلوب، ليس الخشوع في الرقاب[2].

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام في ركوعه مستوي الظهر، منتصب الساقين، وإذا سجد جافى عضديه عن فخذيه، وإذا خَرَّ من القيام للسجود أو نهض من السجود للقيام لم يعتمد على يديه.

وهكذا تكون الصلاة حركة وعملًا، يشــمل جوانب الشخصية كلَّها؛ فالجسم في الصلاة يعمل قائمًا قاعدًا، راكعًا ساجدًا، واللسان يعمل قارئًا مكبِّرًا، مسبِّحًا مهللًا، والعقل يعمل متدبِّرًا متفكِّرًا فيما يتلو أو يُتلى عليه من قرآن، والقلب يعمل مستحضرًا رقابة الله وخشيته وحبه والشوق إليه.

الصلاة قوة روحية ونفسية:

والصلاة الحقيقية التي يريدها الإســلام تمدُّ المؤمــن بقوَّة روحـية ونفســية تعينـه علـى مواجهـة متـاعب الحيـاة ومصائب الدنيـا؛ ولـذا

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد (١٢٢/٢)، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
(٢) مدارج السالكين (٥١٧/١).

QaradawiBooks.com

قال تعالـــى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقـرة: ١٥٣]، ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[(١)].

في الصلاة يفضي المؤمن إلى ربِّه بذات نفســه، ويشكو إليه من بثِّه وحزنه، ويستفتح باب رحمته، ويستنزل الغيث من عنده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨].

في الصلاة يشعر المؤمن بالسكينة والرضا والطمأنينة؛ إنه يبدأ صلاته بالتكبير فيحسُّ بأن الله أكبر من كلِّ ما يروعه ومَن يروعه في هذه الدنيا، ويقرأ فاتحة الكتاب فيجد فيها تغذية للشعور بنعمة الله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحـة: ٢، ٣]، وتغذية للشـعور بعظمة الله وعدله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]، وتغذية للشعور بالحاجة إلى الصلة بالله وإلى عونه سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وتغذية للشعور بالحاجة إلى هداية الله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فلا عجب أن تمدَّ الصلاة المؤمنَ بحيوية هائلة، وقوّة نفسية فياضة. وقد بيّن الرسول ﷺ مبلغ الأثر النفسي للصلاة، وما يسبقها من وضوء وذكر لله

(١) رواه أحمـد (٢٣٢٩٩)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في قيـام الليل (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣)، عن حذيفة بن اليمان. ومنه أخذ بعضهم ندب صلاة النازلة، وهي ركعتان عقبها، وكان ابن عباس يفعل ذلك، ويقول: نفعل ما أمرنا الله به بقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، كذلك في التيسـير بشـرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٢٤٥)، نشر مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط ٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

تعالى، وكيف يستقبل المؤمن المصلِّي يومه ويبدأ حياته الجديدة كلَّ صباح. قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كلِّ عقدة: عليك ليل طويل، فارقد. فإذا هو قام فذكر الله انحلَّت عقدة، فإذا توضأ انحلَّت عقدة ثانيـــة، فإذا قام إلى الصـــلاة انحلَّت عقده الثلاث، فأصبح طيِّب النفس نشيطًا، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»(١).

وفي عصرنا الحديث نرى من علماء الكون والحياة طبيبًا شهيرًا مثل الدكتور «ألكســيس كاريل» يبيِّن لنا في بحث له مدى هــذه القوَّة التي يكتسبها المؤمن من الصلاة، فيقول: «لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولِّدة للنشاط عُرِفت إلى يومنا هذا، وقد رأيتُ بوصفي طبيبًا كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطبُّ يديه عجزًا وتسليمًا؛ تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم. إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع، ومولد ذاتي للنشـــاط، وبالصلاة يســعى الناس إلى اســتزادة نشــاطهم المحدود، حين يخاطبون القوَّة التي لا يفنى نشاطها.

إننا نربط أنفسنا حين نصلِّي بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبسًا منها نستعين به على معاناة الحياة، بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا، ولن تجد أحدًا ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج»(٢).

هذا في الصلاة عمومًا. فكيف بصلاة الإسلام؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٦)، عن أبي هريرة.

(٢) دع القلق لديـل كارنيجي صـ ٢٢٠، ٢٢١، تعريــب عبد المنعم محمد الزيادي، نشـر مكتبة الخانجي، ط١٦.

QaradawiBooks.com

الصلاة قوة خُلُقية:

وفي هذه القوة مدد أي مدد لضمير المؤمن يقويه على فعل الخير، وترك الشرِّ، ومجانبة الفحشاء والمنكر، ومقاومة الجزع عند البِشر، والمنع عند الخير. فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى، ورعاية حدوده، والحرص على المواقيت، والدقة في المواعيد، والتغلُّب على نوازع الكسل والهوى، وجوانب الضعف الإنساني؛ وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وما نرى من مصلِّين قد ضعفت أخلاقهم، أو انحرف سلوكهم فلا بد أن صلاتهم جثة بلا روح، وحركات جسم بلا حضور عقل، ولا خشوع قلب، وإنما الفلاح للمؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

أما المتظاهرون بالصلاة دون أن ترقَّ قلوبهم، أو تُفتح للخير صدورهم؛ فما أحقَّهم بوعيد الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧].

صلاة الجماعة ومزاياها:

والصلاة الإسلامية ـ بعد ذلك ـ تربية اجتماعية رشيدة، ومدرسة إنسانية عالية، على نسق فريد في تاريخ الأديان والعبادات.

فالإسلام لم يكتفِ من المسلم أن يؤدِّي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يحيا فيه، ولكنه دعاه دعوة قوية إلى أدائها في جماعة، وبخاصة في المسجد، وهَمَّ **الرسول ﷺ أن يحرق على قوم بيوتهم** لأنهم

QaradawiBooks.com

يتخلَّفون عن الجماعات[١]. فإن لم تكن هذه الجماعة واجبًا، فهي أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة في نظر الإسلام[٢].

روى مسلم، عن ابن مسعود قال: مَن سَرَّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ، سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، وإنكم لو صليتم في بيوتكم، كما يصلِّي هذا المتخلِّف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. وما من رجل يتطهَّر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكلِّ خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحطُّ عنه بها سيئة. ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها ـ أي صلاة الجماعة ـ إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادَى بين الرجلين ـ يسندانه لمرضه ـ حتى يُقام في الصف[٣].

ولم يجعل الإعلام بدخول وقت الصلاة عن طريق ناقوس يُدق، أو بوق يُنفخ، أو نار تُشعل، كما في ديانات سابقة. وإنما اختار لها طريقًا آخر فيه معنى الشعار والهتاف والنشيد القومي المؤثِّر بقوَّة عباراته، وطريقة إلقائه، ونصاعة معانيه: ذلك هو الأذان: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله».

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٤٤)، ومسلم في المساجد (٦٥١)، عن أبي هريرة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٤٥)، ومسلم في المساجد (٦٥٠)، عن ابن عمر.
(٣) رواه مسلم في المساجد (٦٥٤).

QaradawiBooks.com

تنطلق بهذا النشيد الإلهي في وقت واحد حناجر المؤذنين من فوق مآذنهم، فيستجيب المؤمنون للنداء، ويجتمعون خمس مرات في كلِّ يوم في مسجد حيهم.

ثـم يجتمعون على نطاق واسـع في صلاة الجمعـة، تلك الفريضة الأسبوعية التي أوجب الله فيها الجماعة إيجابًا، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

ولم يُبِح التخلُّف عنها لغير عذر: «**مَـن ترك ثلاث جمع تهاونًا بها؛ طبع الله على قلبه**»[(١)]، «**لينتهين قوم عن وَدْعهم ـ أي تركهم ـ الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**»[(٢)].

وفي هـذا الاجتماع الأسـبوعي تعليم وتوجيه، وموعظـة وتذكير، وتجديد للبيعة، وإحياء لعاطفة الأخوة، وتركيز للوحدة، وإظهار للقوة.

ثم يتسـع النطاق أكثر في صلاة العيدين، فقد أراد الإسلام من هذه الصلاة أن تكون مؤتمرًا جامعًـا، ومهرجانًا كبيرًا يجمع أهل البلد قاطبة في مكان واحد في الخـلاء. يذهب إليها الرجال والنسـاء حتى ذوات العذر منهن.

عن أم عطيـة قالت: أمرنا رسـول الله ﷺ، أن نخرجهـن في الفطر والأضحـى: العواتق والحيَّـض وذوات الخدور، أمـا الحيَّض فيعتزلن

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٩٨)، وقال مخرجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (١٠٥٢)، والنسائي في الجمعـة (١٣٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصـلاة (١١٢٥)، وصححه النووي في المجموع (٤/٤٨٣)، عن أبي الجعد الضمري.

(٢) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٥)، عن ابن عمر وأبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الصلاة ويشـهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت: يا رسـول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: «**لتلبسها أختها من جلبابها**»[١].

الصلاة تربية عسكرية:

وفي الجماعة نوع من التربية العسكرية التي قوامها الطاعة والنظام. وما أحوج الأمم الناشـئة ـ كالعرب في أيام الرسـول ﷺ ـ أن يتعلموا عمليًّا طاعة الأمر، والانقياد للنظام، والخضوع للقانون، واحترام الرؤساء، وهذا ما تصنعه صلاة الجماعة.

وهل رأيتَ نظامًـا أكمل وأجمل من صفـوف الجماعة، وقد وقفت مسـتقيمة فلا عوج، متلاصقة فلا فرجة: المنكب إلى المنكب، والقدم إلى القدم، ينذرهم إمامهم بأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، ويعلمهم أن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة وتمامها[٢]، ويحدثهم عن نبيهم: أنْ سُدُّوا الفُرَج وسووا الصفوف، «**ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٣].

فإذا كبَّر الإمام كبَّروا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سـجد سجدوا، وإذا سلَّم سلموا.

من خـرج على هـذا النظـام فكأنما خـرج على الإنسـانية. يقول الرسول ﷺ: «**ألا يخشـى إذا ركع أحدكم أو سجد قبل الإمام أن يمسخ الله رأسه رأس حمار**»[٤].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥١)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٠)، عن أم عطية.

(٢) متفق عليه رواه البخاري في الأذان (٧٢٣)، رواه مسلم في الصلاة (٤٣٣)، عن أنس.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢)، وأحمد (١٧١٠٢)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٩١)، ومسلم في الصلاة (٤٢٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

لا يفسد هذا الحال إلا جندي من جنود إبليس، فهو الذي يسره الفوضى ويسوؤه النظام: «**الذي يركع ويسجد قبل الإمام إنما ناصيته بيد شيطان**»[1].

المسجد ورسالته في الحياة:

وبأداء صلاة الجماعة في المسجد خمس مرات في اليوم أصبح للمسجد مكانة هامة في الإسلام وفي حياة المسلمين، فليس هو ديرًا لرهبنة، ولا زاوية للمتعطِّلين، ولا تكيَّة للدراويش، فليس في الإسلام رهبنة ولا دروشة.

ورضي الله عن عمر، حين وجد جماعة في المسجد تلبَّثوا بعد صلاة الجمعة بدعوى التوكُّل على الله فعلاهم بدِرَّته، وقال كلمته الشهيرة: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، إن الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠][2].

وقد روى البخاري، أن الحبشة كانوا يلعبون بحرابهم في مسجد النبي ﷺ، والنبي ينظر إليهم، ويُرِي عائشة أم المؤمنين لعبهم[3]. وكأن ذلك لم يعجب عمر لشدَّته وصلابته. فأهوى إلى الحصباء يحصبهم بها فقال: «**دعهم يا عمر**»[4]!

---

(١) رواه مالك في الصلاة (٣٠٦) تحقيق الأعظمي، عن أبي هريرة موقوفا.

(٢) انظر: الإحياء (٦٢/٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٦)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠١)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وبهـذا الحديث اسـتدلَّ العلماء علـى جواز اللعـب بالحراب في المسجد، وقالوا: إن المسـجد موضوع لأمر جماعة المسلمين، فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه. قالوا: «واللعب بالحراب ليـس لعبًا مجـردًا، بل فيـه تدريب الشـجعان على مواقـع الحروب والاستعداد للعدو»(١).

وما كان المسـجد في فجـر الإسـلام إلا جامعة شـعبية للتثقيف والتهذيـب، وبرلمانًـا محليًّـا للتشـاور والتفاهم، ومجمعًـا للتعارف والتحابِّ، ومعهدًا للتربية العملية السياسية.

المسجد جامعة شعبية:

وأي جامعة شعبية كالمسـجد تسـع الجميع في رحابها، في الليل والنهار والصيف والشتاء، ولا تردُّ طالبًا، شيخًا كان أم صبيًّا، ولا تشترط رسومًا ولا تأمينًا، ولا تضع قيودًا ولا عراقيل؟

أي جامعة كهذه تُعَلِّـم قواعد العقائد، وفرائـض العبادات، ومكارم الأخلاق، ومحاسـن الآداب، وطرائـق المعاملات، وتُعقـد فيها للعلم حلقات تغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، وتحفُّها الملائكة؟

ولم تكن حلقات المساجد مقصورة على العلم الديني المحض، بل شـملت كل ما وصل إليه العقل الإسـلامي من معارف أدبية وإنسانية. فمنذ صدر الإسـلام نرى حلقـة كحلقة حبـر الأمة وترجمـان القرآن عبد الله بن عباس تتسع لعلوم ومعارف مختلفة يُفرد لكل منها يومًا. ولا

(١) انظر: نيل الأوطار للشـوكاني (١٠٥/٨)، تحقيق عصام الدين الصبابطي، نشر دار الحديث، مصر، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

غرو أن نشأ العلم في الإسلام موصولًا بالعبادة، وأن ترعرعت «الجامعات» العريقة، تحت سقوف «الجوامع». ومن منا يجهل المكانة العلمية لجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس، وما قدَّمته هذه الجوامع أو الجامعات من خدمة للعلم والثقافة قرونًا طويلة؟!

المسجد برلمان دائم:

وأي برلمان كهذا المسجد، ونوَّابه هم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]؟

برلمان يعرض فيه الحاكم سياسته، ويحدد منهجه ويناقشه الشعب ويستجوبه بلا حجر ولا خوف. وهل سمعنا خطبة سياسية جامعة موجزة لرئيس دولة كالخطبة التي ألقاها أبو بكر يوم ولي الخلافة، فقال: «أيها الناس، إني وليتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحقَّ له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحقَّ منه، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيتُه فلا طاعة لي عليكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»(١).

بيان ألقاه خليفة، يقول فلا يكذب، ويعد فلا يخلف، وسمعته أمة تسمع ولا تنسى، وتُحاسب فلا تخشى، وكيف يخلف الخليفة أو تنسى

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٢/٦٦١)، وابن كثير وصحح إسناده عن أنس في البداية والنهاية (٩/٤١٥)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

الأمة، وبرلمانها يعقد في كل يوم خمس جلسات، ولا يغلق بابه في عطلة أو إجازة؟

المسجد مؤتمر:

وأي مجتمع أو مؤتمر كالمسجد يجمع خلاصة الحي في كلِّ صلاة، وصفوة البلد في كلِّ جمعة، فإن الإسلام ـ كما ذكرنا ـ قد ندب إلى صلاة الجماعة، وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة(١)، وهَمَّ الرسول ﷺ، أن يحرق على قوم بيوتهم؛ لأنهم يتخلَّفون عن الجماعات(٢).

دعا الإسلام أبناءه إلى الجماعة ليتعارفوا فلا يتناكروا، ويتقاربوا فلا يتباعدوا، ويتحابُّوا فلا يتباغضوا، ويتصافوا فلا يتشاحنوا.

لقد عرف أسلافنا قيمة المسجد ـ بوصفه مؤتمرًا حافلًا ـ فكانوا يعقدون فيه عقود زواجهم امتثالًا للحديث الشريف: «**أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف**»(٣).

ولو أن مسلمي اليوم اتخذوا سلفهم أسوة في ذلك، لوفَّروا على أنفسهم نفقات طائلة تضيع في أحفال براقة، تُبعثر فيها الأموال ابتغاء السمعة والتظاهر والتنافس الأجوف.

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٨٣.

(٢) سبق تخريجه صـ٢٨٣.

(٣) رواه الترمذي في النكاح (١٠٨٩)، وقال: غريب حسن. وقال العجلوني في كشف الخفاء (٤٢٢): له شواهد فيكون حسنًا لغيره بل صحيحًا. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (١٨٥)، إلا الإعلان. عن عائشة.

QaradawiBooks.com

المسجد معهد للتربية العلمية:

وإن شئت، فقُل: هو حقل تُجرَّب في ساحته تعاليم الدين النظرية، وتوضع مبادئه الإنسانية موضع التنفيذ.

فقد كان من مزايا هذا الدين الخالد أنه لم يجعل مبادئه فكرة مجردة في الرأس، أو كلمة تجري على اللسان، ولكنه ربطها بحياة المسلم ونظامه اليومي ربطًا لا ينفك عنه.

فالحرية والإخاء والمساواة التي جاء بها الإسلام ـ قبل ثورة فرنسا باثني عشر قرنًا ـ تراها في المسجد حقائق عملية، وأعمالًا حقيقية، تعلن عن نفسها بلا صوت ولا حرف ولا ضجيج.

الحرية:

أما الحرية فأي حرية أعز من حرية المصلي في المسجد، وهو طليق من كلِّ عبودية إلا لله، له وحده يركع ويسجد، ولوجهه وحده يذلُّ ويخشع؟ أما البشر مهما تعاظموا فهم عبيد مثله لا سلطان لهم عليه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

تلك هي حرية الضمير الإنساني أولى الحريات وأعمقها.

وأما حرية الرأي والنقد فحسبك أن الإمام إذا أخطأ في قول أو فعل من أقوال الصلاة وأفعالها، كان على مَن وراءه من المصلين أن يصلحوا له الخطأ، وأن يردوه إلى الصواب، يستوي في ذلك الشيخ والشاب والغلام، والرجل والمرأة، فإذا هذا يصحح قراءته، وذاك يقول له: سبحان الله. وتلك تصفق بيدها. حتى يعود إلى الحقِّ والسداد.

QaradawiBooks.com

فإذا اعتلى الخطيب منبر المسـجد فليس «ديكتاتـورًا» يفرض على الناس ما يرى من آراء. ولكنهم شركاؤه في المسؤولية، عليهم أن ينبهوه إذا غفـل، وأن يذكِّروه إذا نسـي، ويسـدِّدوه إذا انحرف عـن الصراط المستقيم، ولو كان هو خليفة المسلمين.

أراد أمير المؤمنين عمر أن يضع حدًّا أعلى للمهور، فأعلن ذلك في المسـجد فعارضته امرأة، وقالت: كيف هـذا، وقد قال الله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النسـاء: ٢٠]. فما كان من الخليفة إلا أن رجع عن رأيه، وقال في صراحة: أصابت امرأة وأخطأ عمر[1]!

الإخاء:

وأما الإخاء فحسـبك أن المسـجد يضمُّ أهل الحي فـي كلِّ يوم خمس مرات، تتلاصق فيها الأبدان، وتتعارف فيها الوجوه، وتتصافح فيها الأيدي، وتتناجى فيها الألسـن، وتتآلف فيهـا القلوب، ويلتقون على وحدة الغاية والوسيلة. وأي وحدة أبلغ وأعمق من وحدة المصلين في الجماعة يصلُّون خلف رجل واحد هو «الإمام»، ويناجون ربًّا واحدًا هو «الله»، ويتلون كتابًا واحدًا هو «القرآن»، ويتَّجهون إلى قِبلة واحدة هي «الكعبـة» البيت الحرام، ويؤدُّون أعمالًا واحـدة من قيام وقعود، وركوع وسجود؟

(١) رواه عبد الرزاق في النـكاح (١٠٤٢٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٠٦)، والبيهقي في الصداق (٢٣٣/٧)، وقال: منقطع. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥٠٢): رواه أبو يعلى في الكبير وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف وقد وثق. وذكره البوصيري في إتحاف الخيرة (٣٢٧٦)، بسـند أبي يعلى؛ وجود إسـناده ابن كثير في تفسـيره (٢٤٤/٢)، والسخاوي في المقاصد (٨١٤) بلفظ: كل الناس أفقه من عمر.

QaradawiBooks.com

وحدة نفذت إلى اللباب ولم تكتفِ بالقشور، وحدة في النظرة والفكرة، وحدة في الغاية والوجهة، وحدة في القول والعمل، وحدة في المخبر والمظهر، وحدة يشعرون فيها بروح الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأي صورة أروع من المسجد النبوي في المدينة، وقد ضمَّ في حناياه أجناسًا شتَّى من غير العرب، من رومي كصهيب، وفارسي كسلمان، وحبشي كبلال، كما ضمَّ قبائل متباينة من العرب، من قحطانيين كالأنصار، وعدنانيين كالمهاجرين؟ وفي هذه القبائل بطون طالما فرَّقت بينها العداوة والبغضاء في الجاهلية، كالأوس والخزرج.

ضمَّ المسجد هؤلاء إلى صدره الحنون، وجمعهم في رحابه الفيحاء، فكانوا بنعمة الله إخوانًا، ينام أحدهم على الطوى ليشبع أخوه، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ويبيت على صفاء من الغلِّ والشحناء والسخط والكراهية، حتى لا ترتد عليه صلاته، ولا يقبلها الله منه، ففي الحديث: «**ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان**»(1). أي متشاحنان. ومعنى هذا أن الصلاة المقبولة لا تلائم جوَّ الكراهية والسخط والشحناء بحال من الأحوال.

---

(١) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/١١٩): إسناده صحيح ورجاله ثقات. وابن حبان في الصلاة (١٧٥٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والطبراني (١١/٤٤٩)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٠٦)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

المساواة:

وأما المساواة، فأي مساواة أوضح من تلك التي نراها في الصفوف المتراصة في المسجد؟ الأمير إلى جانب الخفير، والغني بجوار المسكين، والسيد ملاصق للخادم، والعالِم الفيلسوف، وعن يمينه عامل، وعن شماله فلاح!

فليس للمسجد لائحة تخصِّص الصف الأول للوزراء، والصف الثاني للنواب، والثالث للمديرين أو موظفي الدرجة الأولى أو كبار الملَّاك.

وإنما الجميع سواسية كأسنان المشط الواحد، فمن بكَّر في الذهاب إلى المسجد احتلَّ مكانته في مقدمة الصفوف أيًّا كانت منزلته وعمله في الناس.

ويقول الدكتور محمد إقبال: «إن اختيار قبلة واحدة للمسلمين أُريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة، وهيئتها على العموم تحقق الإحساس بالمساواة الاجتماعية وتقوِّي أواصره، بقدر ما تتَّجه إلى القضاء على الشعور بالطبقات أو تفوُّق جنس من المتعبِّدين على جنس آخر.

إن ثورة روحية هائلة تحدث لو حُمل البرهمي الأرستقراطي المختال في جنوب الهند على الوقوف مع المنبوذ كتفًا إلى كتف في كلِّ يوم! إن وحدة الذات المحيطة بكلِّ شيء، التي تخلق جميع الذوات وتكتب لها البقاء، هي التي تصدر عنها الوحدة الضرورية لجميع البشر، وانقسام البشر إلى أجناس وأمم وقبائل قُصد به ـ كما جاء في القرآن ـ سهولة التعارف لا غير.

QaradawiBooks.com

وعلى هذا، فإن صلاة الجماعة في الإسـلام إلى جانب ما لها من قيمة فكرية تشير إلى الأمل في تحقيق الوحدة الضرورية للبشر. كحقيقة من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التي ميَّزت بين إنسان وآخر»[(١)].

ولم يملك كثير من المستشرقين أنفسهم من الإعجاب بالصلاة الإسلامية، وتأثيرها العميق في النفس البشرية، وبخاصة صلاة الجماعة التي تميَّز بها الإسـلام، والتي توحي بأسمى المبادئ الإنسانية والاجتماعية التي لم يعرفها غير المسلمين إلا في عصر قريب.

من ذلك ما قاله الفيلسوف الفرنسي «رينان»، على الرغم مما له من شطحات عن الإسـلام والعرب: «إنني لم أدخل مسجدًا من مساجد المسلمين من غير أن أهتز خاشعًا، وأن أشعر بشيء من الحسرة على أني لستُ مسلمًا»[(٢)]! ومن ذلك ما قاله السير «توماس أرنولد» عن الصلاة: «هذا الفرض المنظم من عبادة الله، هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية، فكثيرًا ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد الشرق ما لكيفية أدائه من التأثير في النفوس». ثم نقل عن بعض الأساقفة كلامًا عن روعة الصلاة في الإسلام، ثم قال «أرنولد»: «ولننتقل من صلاة الفرد إلى صلاة الجماعة فنقول: إنه لا يتأتَّى لأحد يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصلٍّ في وسط المسجد الجامع بمدينة «دلهي» بالهند يوم الجمعة الأخيرة من الصيام «رمضان»، وكلُّهم مستغرقون في صلاتهم، وقد بدت عليهم أكبر

(١) تجديد التفكير الديني في الإسـلام لمحمد إقبال صـ ١٠٨، ترجمة عباس محمود، نشر دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد صـ ٤٥٩.

QaradawiBooks.com

شعائر التعظيم والخشـية في كلِّ حركة من حركاتهم، نقول: إنه لا يتأتَّى لأحد يكون قد رأى ذلك المشـهد، ألا يبلغ تأثره بـه أعماق قلبه، وألا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها.

على أن توقيـت الأذان اليومي للصلاة بأوقات معينـة، حينما يرن به صوت المؤذن، في أبكـر البكور قبل الإسـفار، وعند الظهيـرة والناس مضطربـون ومصطخبون في أعمالهم، وعند الإمسـاء. هـذا الأذان الذي يحصل في هذه الأوقات على تلك الصورة مشحون بذلك الجلال عينه»[١].

مسجد الرسول في المدينة:

عرف رسول الله ﷺ خطر المسـجد في الحياة الإسلامية، فكان أول مشروع فكَّر فيه في مدة إقامته القليلة في بني سالم بن عوف ـ وهو في طريقه إلى المدينة ـ أن بنى مسجد قُباء، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وكان أول مؤسسة أنشـأها بعد اسـتقراره بالمدينة أن بنى مسجده العظيم، وكان يعمل فيه بيده، ويحمل أحجاره بنفسه، وهو يقول: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**»[٢].

وكان أصحابه يعملون وهم ينشدون:

لا يسـتوي مَن يعمر المسـاجدا   يعمـل فيهـا قائمًـا وقاعـدا
ومَن يرى من الغبار حائدا[٣]

---

(١) انظر: المصدر السابق هامش الموضع نفسه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٥)، عن أنس.

(٣) سيرة ابن هشام (٤٩٧/١)، عن علي بن أبي طالب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

QaradawiBooks.com

فكان هذا المسجد النبوي مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى، ودار الدولة الإسلامية الكبرى.

تلك المدرسة التي فتحت أبوابها لمختلفي الأجناس من عرب وعجم، ومختلفي الألوان من بيض وسود، ومختلفي الطبقات من أغنياء وفقراء، ومختلفي الأسنان من شيوخ وشباب وغلمان.

وفسحت صدرها للمرأة تحضر الجماعة، وتشهد دروس العلم، في عصر كانت المرأة مخلوقًا لا حقَّ له في العلم، ولا في مشاركة الرجل الحياة.

مدرسة تلقِّن العلم والعمل، وتطهِّر الروح والبدن، وتبصِّر بالغاية والوسيلة، وتعرِّف الحق والواجب، وتُعنى بالتربية قبل التعليم، وبالتطبيق قبل النظريات، وبتهذيب النفوس قبل حشو الرؤوس.

فلا غرو أن تُخرِّج من الخلفاء، أمثال: أبي بكر، وعمر، وعليٍّ. ومن القوَّاد أمثال: أبي عبيدة، وخالد، وعمرو. ومن القرَّاء أمثال: ابن مسعود، وأُبيٍّ بن كعب. ومن العلماء أمثال: زيد بن ثابت، وابن عباس. ومن فُضليات النساء أمثال: فاطمة، وعائشة، وحفصة، وأم عمارة، وأم سُليم.

كان المسجد المحمدي مدرسة الدعوة، وكان كذلك دار الدولة، فيه يهيِّئ النبي العمل للعاطل، والعلم للجاهل، والمعونة للفقير، ويرشد إلى الأمور الصحية والاجتماعية، ويذيع الأنباء التي تُهمُّ الأمة، ويلتقي بسفراء الدول، ويرتِّب جنود المعارك في الحرب، ويبعث الدعاة والمندوبين في السلم.

هكذا كان المسجد في عهد الرسول ﷺ، وظلَّ كذلك في عهد أصحابه ومَن تبعهم بإحسان.

QaradawiBooks.com

أيستطيع بعد ذلك منصف أن يدَّعي أن الصلاة ابتهال روحي مجرَّد بعيد عن الحياة، أو عمل سلبي لا تأثير له في توجيهها وترقيتها؟ كلا.

ونختتم حديثنا عن الصلاة والمسجد بكلمة قيمة لباحث مسلم قال: «في المسجد تختفي فوارق المكانة والثروة والجنس واللون، ويعمُّ أرجاءه جوٌّ قشيب من الإخاء والمساواة والمحبَّة، وإنه ـ لايم الحق ـ لَنِعمة كبرى أن يكون في مكنة الإنسان التمتع خمس مرات يوميًّا بجوٍّ من السلام التامِّ وسط عالم يسوده الصراع والنضال، وبجو من المساواة، على حين يكون التباين هو النظام السائد، وبجو من المحبَّة في معمعة الأحقاد الوضعية والتنابذات والخصومات المفعمة بها الحياة اليومية.

إنها حقًّا لأجزل النعم؛ لأنها العبرة الجُلَّى من الحياة، فليس للإنسان بدٌّ من أن يعمل وسط التباين والنضال والصراع، ووسط مشاهد البغضاء والتشاحن، ومع ذلك ينتزع المرء نفسه من كلِّ هذا خمس مرات ليكتنه حقيقة المساواة والإخاء والمحبة، من حيث إنها هي المصادر الحقيقية للسعادة الإنسانية.

ومن أجل ذلك كان الوقت الذي تستغرقه الصلاة غير مضيَّع عبثًا من ناحية الخيرية الفاعلية، والنفع العملي للبشرية، إذ إنه على العكس من ذلك قد استغلَّ أحسن استغلال بتعلُّم تلك الدروس الجليلة التي تجعل الحياة حقًّا جديرة بالعيش فيها.

وتلك الدروس في الإخاء والمساواة والمحبَّة تصبح بممارستها عمليًّا في الحياة اليومية دعامات لتوحيد الجنس البشري وتخليد الحضارة الأبدية لبني الإنسان».

* * *

QaradawiBooks.com

QaradawiBooks.com

الـزكـاة

الزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية الهامة، وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة في عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وطورًا بلفظ الصدقة، وأحيانًا بلفظ الإنفاق.

وفي مفتتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدي كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وفي آيات أخر من السورة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

الزكاة في الديانات السابقة:

وهي في معناها البسيط ـ معونة الفقير بجزء من المال ـ عبادة قديمة عُرفت في الرسالات السماوية السابقة، وذكرها الله في وصاياه إلى رسله وفي وصايا رسله إلى أممهم، فيقول عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

QaradawiBooks.com

ويمتدح إسماعيل بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

ويذكر الله في مواثيقه لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

ويقول على لسان المسيح وهو في مهده: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

ويقول في شأن أهل الكتاب عامة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۞ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤، ٥].

هذه هي الزكاة في ديانات السماء، وما كان لهذه الديانات أن تنسى هذا الجانب الخلقي من رسالتها: جانب البر بالفقراء والإحسان بالمساكين.

في العهد المكي:

ومنذ فجر الإسلام في مكة والمسلمون أفراد معدودون مُسْتَخفُونَ بدينهم، مضطهدون في ديارهم، كان هذا الجانب الإنساني الاجتماعي

QaradawiBooks.com

موضع عناية بالغة من القرآن العزيز، فالعقبة التي على كل إنسان أن يجتازها حتى يصل إلى رضاء الله تتمثل في البر بالناس، من تحرير للرقيق، وإطعام للمسكين واليتيم: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٨].

وفي سورة الضحى، وهي من أوائل ما نزل من القرآن: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠]، وفي سورة المدثر يسجِّل القرآن اعتراف المجرمين في النار: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤]، وفي سورة الذاريات في وصف المتقين: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وفي سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، وفي سورة القلم يقص الله على المسلمين قصة أصحاب الجنة الذين اعتزموا أن يقطفوا ثمارها بليل، ليحرموا منها المساكين: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠]، وفي سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]، وفي سورة الحاقة يعلِّل جزاء مَن يُسجَّر في الجحيم ويُسحب في السلاسل والأغلال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]، وفي سورة فصلت ينذر الله المشركين بالويل ويجعل من أخصِّ أوصافهم عدم إيتاء الزكاة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وفي سورة الشورى يمدح الله المجتمع المؤمن: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، وفي سورة الأنعام: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وفي سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا۟

QaradawiBooks.com

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠]. هذه بعض عناية القرآن الملحَّة بالبرِّ ورعاية المسكين، وأداء حقِّ السائل والمحروم.

الزكاة الإسلامية نظام مبتكر:

ولكن الزكاة الإسلامية المعروفة شيء يزيد على البرِّ والإنفاق العام، بخلاف الزكاة المطلقة التي شُرعت في العهد المكي، بل شرعت في الديانات السابقة كما ذكر القرآن. إن الزكاة التي شرعت في العهد المدني تشريع جديد، لم يسبق إليه دين سماوي، ولا تنظيم أرضي.

إنها ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان، وإيتاؤها ـ مع إقامة الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة ـ عنوان على الدخول في الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

إنها فريضة لازمة يكفر مَن جحدها، ويفسق مَن منعها، ويقاتل مَن تحدَّى جماعة المسلمين بتركها. وحسبنا أن الخليفة الأول أبا بكر جهَّز أحد عشر لواء لمقاتلة قوم امتنعوا عن أداء الزكاة، وقال كلمته الشهيرة: «والله، لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، والله، لو منعوني عقالًا كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»(١).

والزكاة في الإسلام ليست «تبرعًا» يتفضَّل به غني على فقير أو يحسن به واجد إلى معدوم؛ إنها أبعد من ذلك غورًا، وأوسع أفقًا.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٣٢).

QaradawiBooks.com

إنها جزء هام من نظام الإسلام الاقتصادي، ذلك النظام الفريد الذي عالج مشكلة الفقر أو مشكلة المال على وجه عام، قبل أن تعرف الدنيا نظامًا عُني بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان.

حدَّد الإسلام الأموال التي تجب فيها الزكاة والحدَّ الأدنى لما يجب فيه الزكاة، ومتى تجب الزكاة على المال، والمقدار الذي يجب إخراجه على كلٍّ منها.

فهناك مال يجب فيه العُشر كالزروع التي يخرجها الله من الأرض بغير جهد يُذكر من الإنسان. فإن كانت تُسقى بالآلات كان فيها نصف العشر، وهذه الزكاة تجب في كلِّ زرعة.

وهناك مال يجب فيه ربع العشر (٢,٥٪) بالمائة، كالنقدين ـ الذهب والفضة ـ وعروض التجارة مقوَّمة بأحد النقدين. وهذه الزكاة تجب في المال كلَّما حال عليه الحول ـ اثنا عشر شهرًا قمريًّا.

وهناك مال يتمثَّل في الحيوانات مثل: الإبل، والبقر، والغنم. وقد وضع الإسلام لها نظامًا خاصًّا.

والحكمة في تفاوت المقادير المطلوبة من الزكاة: أنه كلَّما كان جهد الإنسان في المال أقل، وعمل القدرة الإلهية أظهر، كانت النسبة الواجبة أكثر، والعكس بالعكس.

ولقد التفت إلى ذلك الإمام ابن القيم ونبَّه عليه في «زاد المعاد»، فقال: «إنه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها، وسهولة ذلك ومشقَّته، فأوجب الخُمس فيما صادفه الإنسان مجموعًا محصلًا من الأموال، وهو الركاز ـ وهو الكنوز المدفونة من

QaradawiBooks.com

عهود بعيدة، ومثله المعدن كالحديد، والذهب والنحاس، وغيرها ـ ولم يعتبر له حولًا، بل أوجب فيه الخمس متى ظُفِرَ به.

وأوجب نصفه ـ وهو العشر ـ فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك في الثمار والزروع، التي باشر حرث أرضها وبذرها، ويتولى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد ولا شراء ماء، ولا إثارة بئر ودولاب.

وأوجب نصف العشر فيما تولى العبد سقيه بالكلفة والدوالي والنواضح ـ المواشي ـ وغيرها، وأوجب نصف ذلك ـ وهو ربع العشر ـ فيما كان النماء فيه موقوفًا على عمل متصل من ربِّ المال بالضرب في الأرض تارة، وبالإدارة تارة، وبالتربص تارة. ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار. وأيضًا فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة(١). وظهور النمو فيما يُسقى بالماء أكثر مما يُسقى بالدوالي والنواضح»(٢).

وقد أعفى الإسلامُ من ضريبة الزكاة المالَ القليلَ، وجعل لكلِّ نوع من المال نصابًا معينًا أو حدًّا أدنى لا تجب الزكاة إلا فيما زاد عنه وفضل عن حاجة صاحبه. ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

غير أن الإسلام لم يرفع هذا الحدَّ الأدنى بحيث لا تجب الزكاة إلا على أرباب الثروات والقناطير، وإنما جعله بحيث يتيح الفرصة لمعظم

(١) هذا غير مسلم دائمًا فقد يدور رأس المال في التجارة أكثر من مرة ويحقق ربحًا كثيرًا؛ لهذا كانت الزكاة في التجارة على رأس المال والربح وفي الزرع على الغلة وحدها.

(٢) زاد المعاد (٢/٥، ٦)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المسلمين أن يُسهموا في تأمين المجتمع، ومواساة الضعفاء، وحماية المصالح العامة للمسلمين.

الزكاة تجبيها الدولة:

فلا يذهبن الظنُّ بأحد أن الزكاة من الغني تفضُّل وامتنان، ومن الفقير «شحاذة» وهوان، فليس بين الغني والفقير تعامُل مباشر في الزكاة كما شرعها الإسلام، وإنما الحكومة هي نائبة عن الفقير في أخذ الزكاة من الأغنياء. ولهذا قال تعالى لرسوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه واليًا ومعلِّمًا إلى اليمن: «**أعْلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد إلى فقرائهم**»(١).

وأول ما يدل عليه هذا التعليم النبوي: «أن الزكاة في نظر الإسلام ليس إلا صرف بعض أموال الأمة، ممثَّلة في أغنيائها، إلى الأمة نفسها ممثَّلة في فقرائها. وبعبارة أخرى: ليس إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهي اليد المشرفة التي استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرُّف فيه ـ وهي يد الأغنياء ـ إلى اليد الأخرى، وهي اليد العاملة الكادحة التي لا يفي عملها بحاجتها، أو التي عجزت عن العمل وجُعل رزقها فيه ومنه، وهي يد الفقراء»(٢).

الحكومة هي التي تَجبي الزكاة(٣)، وقد أكَّد الإسلام ذلك فجعل ضمن مصارفها سهمًا لجباتها «العاملين عليها». وإنما وكل الإسلام جباية الزكاة إلى الدولة لا إلى ضمائر الأفراد وحدها لعدة أسباب:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة الإسلام صـ ٨٧، نشر الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر، ١٩٥٩م.

(٣) نصَّ العلماء على أن الإمام أو السلطان إذا كان جائرًا لا يضع الصدقات في مصارفها الشرعية، فالأفضل لمن وجبت عليه أن يؤديها لمستحقيها بنفسه.

QaradawiBooks.com

أولًا: أن كثيرًا من الأفراد قد تموت ضمائرهم أو يصيبها السقم والهزال، فلا ضمان للفقير إذا تُرِكَ حقُّه لمثل هؤلاء.

ثانيًا: في أخذ الفقير حقَّه من الدولة لا من الغني حفظ لكرامته وصيانة لماء وجهه أن يُراق بالسؤال لذي مال.

ثالثًا: إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى، فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير، على حين يُغفل عن آخر، فلا يَفطن له أحدٌ، وربما كان أشد فقرًا.

رابعًا: إن صرف الزكاة ليس مقصورًا على الفقراء أو الأفراد، فمن الجهات التي تُصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يُقدِّرها الأفراد، وإنما يُقدِّرها أولو الأمر في الجماعة المسلمة، كإعطاء المؤلفة قلوبهم، وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله[(١)].

بيت المال ملك الأمة:

وإلى أين تذهب أموال الزكاة بعد جمعها وجبايتها؟

إنها تذهب «إلى بيت المال» وهو الخزانة العامة التي تُجمع فيها موارد الدولة الإسلامية من زكاة وفيء وغنائم وخراج وغيرها، وإن كانت الزكاة تختصُّ ببيت مال مستقل، ولا تخلط ببيوت المال الأخرى، حتى يبقى حقُّ الفقراء مضمونًا، ونصيبهم مصونًا، فلا تطغى عليه حاجات المصارف الأخرى العامة ومطالبها. وهذا ما جرى عليه العمل ونصَّ عليه جمهور الفقهاء.

(١) انظر كتابنا: فقه الزكاة (٢/٧٤٧ ـ ٧٩١)، باب: طريقة أداء الزكاة، فصل: علاقة الدولة بالزكاة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

وقد زعم بعض خصوم الإسلام أن للخلفاء المسلمين أن ينفقوا من بيت المال ما يشاؤون فيما يشاؤون، وكأنه خزانة خاصة لهم. وهو زعم لا أساس له من تعاليم الإسلام. فبيت المال لجماعة المسلمين، والخليفة أو السلطان إنما هو خازن أمين، وليس له منه إلا ما يستحقُّه من راتب بالمعروف، هذا هو مسلك الراشدين المهديين الذين أمرنا الرسول ﷺ، أن نتبع سنَّتهم وأن نعض عليها بالنواجذ.

فهذا أبو بكر الصديق حين بويع بالخلافة ذهب إلى السوق كعادته ليتاجر ويقوت نفسه وأهله، فلقيه عمر فقال له: إلى أين؟ قال: إلى السوق. قال عمر: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: من أين أطعم عيالي؟ فقال عمر: انطلق يفرض لك أبو عبيدة أمين بيت المال. فانطلق إلى أبي عبيدة، فقال للخليفة: أفرضُ لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف: إذا أخلقتَ شيئًا رددتَه وأخذت غيره[1]!

وهذا عمر يقول: ألا أخبركم بما أستحلُّ من مال الله؟ حلتين: حُلة الشتاء وحُلة القيظ ـ الصيف ـ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ـ الركوبة ـ وقوت أهلي كرجل من قريش، ليس بأغناهم ولا أفقرهم. ثم أنا رجل من المسلمين يصيبني ما يصيبهم[2].

ويروى عنه أنه قال: إنما أنا وهذا المال كولي اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف[3].

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١٨٤/٣)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٣٠٥/٤): رجاله ثقات مرسلا. عن عطاء بن السائب.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في السير (٣٣٥٨٣).
(٣) المصدر السابق (٣٣٥٨٥)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٥١/١٣): سنده صحيح.

QaradawiBooks.com

ويرسل عمر إلى عبد الرحمٰن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم، فقال عبد الرحمٰن: أتستسلفني وعندك بيت المال؟ ألا تأخذ منه ثم تردُّه؟ فقال عمر: إني أتخوف أن يصيبني قدري، فتقول أنت وأصحابك: اتركوا هذا لأمير المؤمنين. حتى يؤخذ من ميزاني يوم القيامة، ولكني أتسلفها منك لما أعلم من شحِّك، فإذا متُّ جئتَ فاستوفيتَها من ميراثي[1]!

وهذا عليٌّ يدخل عليه بعض الناس فلا يجد عليه إلا قطيفة خَلقة، وهو يرعد فيها من البرد، فيقول: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبًا، وأنت تفعل هذا بنفسك! فقال: إني والله، ما أرزؤكم شيئًا[2].

فمن ذا الذي يزعم بعد ذلك أن الزكاة تجمع في بيت المال لينفقها الخلفاء والحكام فيما يشتهون؟!

على أن هدي الإسلام في الزكاة أن توزع أولًا في الأقاليم التي جُمعت منها. كما نبَّهت على ذلك السنة: «**تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم**»[3]، وعن عمران بن حصين أنه استُعمل على الصدقة فلما رجع قيل له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتني؟ أخذناه من حيث كنا نأخذه على عهد رسول الله ﷺ، ووضعناه حيث كنا نضعه[4].

فإذا فضل شيء من الزكاة عن حاجة أهل البلد جاز نقله إلى مَن يستحقه في مكان آخر، أو إلى بيت المال المركزي. وقد روى

---

(١) رواه أبو عبيد في الأموال (٦٦٤)، تحقيق خليل محمد هراس، نشر دار الفكر، بيروت.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٢/١).

(٣) سبق تخريجه صـ٣٠٥.

(٤) رواه أبو داود (١٦٢٥)، وابن ماجه (١٨١١)، كلاهما في الزكاة، والحاكم في معرفة الصحابة (٤٧١/٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٣٧).

QaradawiBooks.com

أبو عبيد، أن معاذًا بعث إلى عمر مــن اليمن بثلث الزكاة، فأنكر ذلك عمر، وقال: لم أبعثك جابيًا، ولا آخــذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فترد على فقرائهم. فقال معاذ: ما بعثتُ إليك بشــيء وأنا أجد أحدًا يأخذه مني(١).

فليس من سياسة الإسلام أخذ الأموال من القرى لتنفق على العواصم الكبرى، وإنما تنفق الــزكاة حيث جُمعت، وهــذا ما يقضي به العدل، وحسن التنظيم والتوزيع، وإشعار الفقير في كلِّ بلد بأن له نصيبًا في هذا المال الذي يراه فيحرص عليه. وهذا ما جعل الناس في عصرنا ينتبهون إلى نظام «الإدارة المحلية»، وينتفعون بمزاياه.

فيم تصرف الزكاة؟ وإلى من؟

هذا إلى أن الإسلام قد حدَّد الجهات التي تصرف إليها وفيها الزكاة، فلم يدعها لأهواء الحاكمين ينفقون منها على مظاهر الترف لهم، أو على الأتباع والأنصار من حولهم، ولم يدعها كذلــك لرغبات الطامعين فيها وهم لا يستحقُّونها.

وفي عهد رسول الله ﷺ تطلعت أعين جماعة من المنافقين إلى أموال الصدقات وســال لعابهم لأخذها. وفيهم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. ثم بيَّن الله تعالى مصارف الزكاة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

---

(١) رواه أبو عبيد في الأموال (١٩١٢)، وضعف إسناده الألباني في إرواء الغليل (٣٤٦/٣).

QaradawiBooks.com

وهكذا تولَّى الله بنفسه في كتابه توزيع الزكاة، فليس لبشر بعد ذلك أن يحوِّلها عن مصارفها الثمانية إلى مصارف تخدم هواه ما أنزل الله بها من سلطان.

أول هـذه المصـارف ـ أو الأصنـاف ـ هـم «الفقـراء». **وثانيهما:** «المسـاكين». وهم صنفان لنوع واحد من المسـتحقين من أهل الفاقة والاحتياج. وإذا ذكر أحدهما منفردًا في نصٍّ أُريد به ما يشـمل الآخر، فإذا اجتمعا ـ كما في هذه الآية ـ فالأرجح أن يُراد بالفقير المحتاج الذي لا يملك شيئًا، أو يملك ما دون النصاب. والمسكين محتاج أحسن حالًا وأكثر تجمُّلًا وسكونًا من الصنف الآخر.

ويقول رسول الله ﷺ: «**ليس المسـكين الذي تردُّه التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف. اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾** [البقـرة: ٢٧٣]»[(١)] ـ وفي رواية: «**ليس المسكين الذي يطوف على الناس، تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس**»[(٢)].

وهذا الحديث يكشـف لنا النقاب عن مسألة هامة، فكثيرًا ما يحصر الناس صورة المسـكين أو الفقير في ذلك الشـخص المشهور بالفقر، المتظاهر بالمسـكنة، المـاد يده بالسـؤال. ولكن المسـكين الذي نبه رسول الله الناس عليه يشـمل كثيرًا من أصحاب البيوت، وأرباب الأسر المتعففين، الذين أخنى عليهم الزمن، أو ضاقت موارد رزقهم عن سـد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٣٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٩)، عن أبي هريرة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

حاجاتهم، أو كان دخلهم من عملهم لا يكفي مطالبهم المعقولة، فلا بأس أن يُعطى هؤلاء من مال الزكاة. ولقد سأل رجل الحسن البصري عن الرجل تكون له الدار والخادم، أفيأخذ الصدقة؟ قال: يأخذ الصدقة إن احتاج ولا حرج(١)!

وليس المقصود أن يعطى درهمًا أو درهمين، فيظل دائمًا محتاجًا خاوي الكفين، وإنما المقصود أن يعطى ما يسد عوزه، ويقضي حاجته. قال عمر: إذا أعطيتم فأغنوا(٢). وأعطى رجلاً ثلاثًا من الإبل ليغنيه من العَيلة، حين ذكر له هلكة عياله. وقال: كرِّروا عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل(٣). وقال القاضي عبد الوهاب: لم يحدَّ مالك لذلك حدًّا! فإنه قال: يُعطى من له المسكن والخادم والدابة ـ الذي لا غنى له عنه(٤).

فالأولى أن يعطى التاجر ما يستأنف به تجارته. ويعطى الصانع ما يشتري به أدوات صنعته، وهكذا. قال الفقيه التابعي الجليل عطاء: إذا أعطى الرجل زكاة ماله أهل بيت من المسلمين فجبرهم فهو أحبُّ إليَّ(٥).

وقد قال أبو عبيد ـ في كتابه القيم: «الأموال» ـ بعد أن ذكر هذه الآثار وغيرها عن الصحابة والتابعين: «فكلُّ هذه الآثار دالة على أن

---

(١) رواه أبو عبيد في الأموال (١٧٧٩). وضعفه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٧٨).

(٢) رواه عبد الرزاق (٧٢٨٦)، وابن أبي شيبة (١٠٥٢٦)، كلاهما في الزكاة، وضعف إسناده الألباني في مشكلة الفقر (٧٨)، عن عمرو بن دينار.

(٣) رواه أبو عبيد في الأموال صـ ٦٧٦.

(٤) عيون المسائل للقاضي عبد الوهاب صـ ٢٠٣، مسألة (٣٧٢)، تحقيق علي محمد إبراهيم بورويبة، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

(٥) رواه أبو عبيد في الأموال (١٧٨٤).

QaradawiBooks.com

مبلغ ما يعطاه أهل الحاجة من الزكاة ليس له وقت ـ أي حدٌّ ـ محظور على المسلمين ألا يعدوه إلى غيره، وإن لم يكن المعطى غارمًا، بل فيه المحبة والفضل، إذا كان ذلك على جهة النظر من المعطي بلا محاباة ولا إيثار هوى، كرجل رأى أهل بيت من صالحي المسلمين أهل فقر ومسكنة، وهو ذو مال كثير، ولا منزل لهؤلاء يأويهم ويستر خلتهم فاشترى من زكاة ماله مسكنًا يكنهم من كلَب الشتاء[1] وحرِّ الشمس. أو كانوا عراة لا كسوة لهم ـ فكساهم ما يستر عوراتهم في صلاتهم ويقيهم من الحر والبرد. أو رأى مملوكًا عند مليك سوء قد اضطهده وأساء ملكته، فاستنقذه من رقِّه، بأن يشتريه فيعتقه، أو مرَّ به ابن سبيل بعيد الشقَّة، نائي الدار، قد انقُطِع به، فحمله إلى وطنه وأهله بكِرَاءٍ أو شراء.

هذه الخلال وما أشبهها، التي لا تُنال إلا بالأموال الكثيرة، ولم تسمح نفس الفاعل أن يجعلها نافلة، فجعلها من زكاة ماله، أما يكون هذا مؤديًا للفرض؟ بلى، ثم يكون محسنًا إن شاء الله. وإني لخائف على مَن صدَّ مثله عن فعله؛ لأنه لا يجود بالتطوع، وهذا يمنعه بفتياه من الفريضة، فتضيع الحقوق ويعطب أهلها»[2].

وليست الزكاة تشجيعًا للبطالة، ومعاونة لطائفة مرتزقة ـ كما يظن من لا يعرفون ـ كلا، فقد قال رسول الإسلام: «**لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سوي**»[3]. المرة: القوة والشدَّة. والسوي: السليم الأعضاء.

(١) لسان العرب مادة (ك. ل. ب).

(٢) الأموال لأبي عبيد صـ ٦٧٧.

(٣) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرجوه: إسناده قوي. وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وقال: حسن. كلاهما في الزكاة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

وجاء رجلان إلى النبي ﷺ، في حجَّة الوداع، وهو يقسم الصدقة، فسألاه منها، فرفع فيهما البصر وخفضه، فرآهما جلدين ـ قويين ـ فقال: «**إن شئتُما أعطيتكما، ولا حظَّ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب**»[1]. وإنما خيرهما الرسول؛ لأنهما قد يكونان قويين في ظاهر أمرهما، ولكنهما غير مكتسبين أو يكتسبان ما لا يكفيهما.

فالواجب على كلِّ مسلم أن يعمل، والواجب على الدولة أن تهيئ له ما يناسبه من عمل، فإن عجز عن عمل يقوم بكفايته، فلن يهلك في مجتمع مسلم. بل تقوم الزكاة له بإيفائه حاجاته المعقولة.

والصنف الثالث من مستحقي الزكاة هم: العاملون عليها. سواء أكانوا عاملين على جمعها من مالكي النصاب، وهم الجباة، أم عاملين على حفظها وهم الخزنة، أو عاملين على حراستها أو كتابتها في دواوين وما إلى ذلك، أو عاملين على توزيعها على مستحقيها، وصرفها في مصارفها الشرعية.

والصنف الرابع هم: «المؤلفة قلوبهم»، وهم الجماعة الذين يُراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى الإسلام، ليُسلِموا، أو لتثبيت أقدامهم فيه، أو رجاء نفعهم في الدفاع عن المسلمين، أو كفًّا لشرِّهم عنهم. وقد أعطى النبي ﷺ، بعض مَن كان يرجو إيمانه من الكفار، كصفوان بن أمية أحد أشراف الجاهلية وأجوادها وفصحائها، وقد أسلم وحسن إسلامه. كما أعطى بعض زعماء القبائل، كعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس. وقد رجا بإعطائهم تثبيتهم وتقوية إيمانه، والانتفاع بهم في حرب المشركين.

---

(١) رواه أحمد (١٧٩٧٢)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٢٥٩٨)، كلاهما في الزكاة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٣)، عن رجلين من الصحابة.

QaradawiBooks.com

ووجود هذا الصنف يرجع إلى إمام المسلمين وأهل شوراه، فإن رأى أن يتألف قومًا لمعنى من المعاني التي ذكرناها كان له أن يعطيهم سهمًا من مال الزكاة. وإن لم يجد ضرورة لذلك ـ كما فعل عمر ـ فليس بمفروض عليه أن يخلق هذا الصنف، فيسقط سهمهم لعدم وجودهم، كما إذا لم يوجد الفقراء أو الغارمون، أو الرقاب.

وبهذا نتبين خطأ مَن يزعمون أن عمر عطَّل نصًّا من كتاب الله ـ وحاشا له ـ وإنما عطَّل التأليف ـ وهذا من حقِّه ـ لقوم طامعين قد أغنى الله عنهم.

ويمكن أن يُنفق السهم في عصرنا للتبشير بالإسلام، كما يصنع مخالفو المسلمين، ويمكن أن يعطى منه «قوم من المسلمين يتألفهم الكفار ليدخلوهم تحت حمايتهم أو في دينهم. فإنا نجد دول الاستعمار الطامعة في استعباد جميع المسلمين، وفي ردِّهم عن دينهم يخصِّصون من أموال دولهم سهمًا للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم مَن يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من الإسلام، ومنهم مَن يؤلفونه لأجل الدخول في حمايتهم، أو مشاقَّة الدولة الإسلامية، أو الوحدة الإسلامية. أفليس المسلمون أولى بهذا منهم؟!

والمصرف الخامس: «في الرقاب» أي في تحرير رقاب الأرقاء وتخليصهم من الرقِّ. وقد جاء الإسلام والرقُّ ضارب أطنابه في العالم كلِّه، فلم يكن من السهل أن يلغيه بجرة قلم، بل وضع من التعاليم والتوجيهات ما يلغيه من الحياة بهدوء وتدرُّج حكيم. وكان من الوسائل التي اتخذها الإسلام لإلغائه أو تضييق نطاقه جعله تحرير الرقبة من أفضل القربات إلى الله، وجعله كذلك كفارة لكثير من الأخطاء التي يتورَّط فيها المسلم، كالحنث في اليمين، ثم أمر المسلمين أمرًا عامًّا أن

QaradawiBooks.com

يكاتبوا أرقاءهم على مبالغ من المال يؤدُّونها على أقساط ـ ما داموا قد علموا فيهم الخير ـ كما أمر المسلمين جميعًا أن يعاونوا هؤلاء المكاتبين على أداء ما التزموا به، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣].

ولم يَدَع الإسلام هذا الأمر الهام ـ أمر تحرير الرقيق ـ للأفراد وحدهم، بل ألقى على عاتق الدولة نصيبًا منه. وذلك حين جعل من أموال الزكاة سهمًا ينفق منه على تحرير الرقيق بإعانة المكاتبين على وفاء أقساطهم، أو بشراء بعض الرقاب لعتقها: وهذا أول تشريع عملي تعرفه الإنسانية لتحرير أولئك المستعبدين. وليس بالهين أن يرصد الإسلام لهذا الغرض ثمن مال الزكاة ـ أو أكثر ـ وهو مقدار قد يبلغ الملايين في كلِّ عام، وقد ترصد الزكاة كلها لهذا الغرض في بعض الأحيان، كما حدث في عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في صدقات إفريقية.

والصنف السادس: «الغارمون»، وهم الذين ركبتهم ديون مرهقة تعذَّر عليهم أداؤها، على أن تكون هذه الديون في غير معصية الله، وفي غير سفاهة وإسراف، فإن العاصي لا يُعان بمال الله على معصية الله، والسفيه لا يعان أيضًا على سفهه، إلا إذا تابا إلى الله واستقاما وعرفت توبتهما واستقامتهما. والإسلام يكره للمسلم أن يستدين، فإذا استدان ـ بسبب مشروع ـ عاونه على التخلص من رِبقة الدين، فالدين هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار، والإسلام لا يحبُّ للمسلم همًّا ولا ذلًّا. إنه يقيله من عثرته، وينتشله من وهدته، ولا يتركه يسقط فريسة الديون ويعلن إفلاسه.

QaradawiBooks.com

وهكذا يأخذ الإسلام بيد الغارم المجهود، ولا يكلفه بيع حوائجه الأصلية ليسدد ما عليه، ويعيش فارغًا من المقومات الأساسية للحياة، محرومًا من كلِّ أثاث ومتاع يليق بمثله. كلا، فقد كتب عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى ولاته: أن اقضوا عن الغارمين. فكتب إليه مَن يقول: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث. أي وهو مع ذلك غارم. فكتب عمر: إنه لا بدَّ للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، ومن أن يكون له الأثاث في بيته. نعم فاقضوا عنه فإنه غارم[1]!

ومن الغارمين فئة من أصحاب القلوب الكبيرة عرفها المجتمع العربي والإسلامي، كان الواحد من هؤلاء يتقدَّم لإصلاح ما بين أسرتين أو قبيلتين، ويلتزم دفع ما يقتضيه الصلح من ديات وغرامات، لتخمد نار الفتنة، وتسود السكينة والسلام. فكان من فضل الإسلام أن يُعان هؤلاء من الزكاة على ذلك الهدف النبيل.

ويروي لنا الإمامان أحمد ومسلم، عن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحملت حَمَالة، فأتيت رسول الله ﷺ، أسأله فيها فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**». ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حَمالة فحلَّت له المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك ـ أي يكف عن السؤال ـ ورجل أصابته جائحة ـ أي كارثة ـ اجتاحت ماله فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش** ـ أو قال: **سدادًا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة. فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من**

(١) رواه أبو عبيد في الأموال (١٧٥٣).

QaradawiBooks.com

عيش ـ أو قال: **سدادًا من عيش ـ فما سواهنَّ من المسألة، يا قبيصة، فسحتًا يأكلها صاحبها سحتًا**»[(١)].

وإنها لروعة من الإسلام أن يمدَّ بالمال كلَّ غارم لإصلاح ذات البين وإقرار السلام والوئام، وروعة منه أن يمدَّ بالمال والمعونة أصحاب الكوارث والجوائح، ويأخذ بيدهم لينهضوا، قبل أن تعرف الدنيا بقرون نظام التأمين على الأشياء والممتلكات ضد الحوادث والأخطار.

وروعة منه أن يفتح ذراعيه، بالمعونة للفقير الذي يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أنه قد أصابته فاقة، لا لكلِّ مَن يُظهر الفاقة ويدَّعي المسكنة.

وروعة ثم روعة أن يجعل الغاية من إعطاء هذا وذاك أن يصيب قوامًا من عيش أو سدادًا من عيش ـ أي ما يقوم بمعيشته ويسد خلته لا مجرد لقيمات يقيم بها صلبه.

والمصرف السابع: «في سبيل الله»، وسبيل الله هو الطريق الموصِّل إلى مرضاته، وأول ما يتبادر إلى الذهن منه هو الجهاد والقتال لكثرة اقترانه في القرآن والسنة بكلمة «في سبيل الله»، ويدخل فيه إعداد العدة وتجهيز المجاهدين، وإعطاؤهم منها وإن كانوا أغنياء، ما لم يكن لهم راتب من الدولة. والمراد بالجهاد هنا: الجهاد الإسلامي، الذي حدَّده النبي ﷺ بقوله: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»[(٢)].

ويرى بعض العلماء أن هذا المصرف يشمل كلَّ مصلحة عامة يتحقَّق

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٤٤)، وأحمد (٢٠٦٠١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

بها للمسلمين خير عام لملتهم أو جماعتهم، كعمارة المساجد، وبناء المدارس الإسلامية، ونحو ذلك.

وأرى أن يقتصر هذا المصرف على الجهاد الإسلامي، وما في معناه من كل عمل يُقصد به رفع راية الإسلام ونصرة دعوته، وتحكيم شريعته في الأرض وإعلاء نظامه على كلِّ نظام[(١)].

والصنف الثامن: «ابن السبيل»، وهو المنقطع عن ماله، وإن كان من أهل الغنى واليسار في بلده، فقد قدَّر الإسلام حاجته، وأكرم غربته، بفرضه له هذا السهم من الزكاة. ويدخل في ذلك اللاجئون المضطهدون من المسلمين الذين فرُّوا من ظلم الحكام الكفرة أو أشباه الكفرة.

هذه هي المصارف الثمانية التي حدَّدها القرآن للزكاة[(٢)]. وهي مصارف إسلامية محضة، فلا تُصرف الزكاة إلا للمسلمين المستحقين وفي المصالح العامة لملة الإسلام، وجماعة المسلمين.

كما أنها لا تؤخذ إلا من المسلمين، إذ هي عبادة وشعيرة، قبل أن تكون ضريبة. ومن أجل ذلك لم يفرضها الإسلام على غير المسلمين ممَّن يعيشون في كنفه ويستظلون بحكمه، فإن العبادات والشعائر لا يُكلَّف بها إلا المسلمون.

وبذلك نعلم أن أموال الزكاة لا تُضاف إلى «الميزانية العامة» للدولة فتذوب في غمارها، وتتسرَّب في مسارب نفقاتها المتشعِّبة الكثيرة، بل تبقى له ميزانيتها الخاصة لتُنفَق في مصارفها الخاصة. كما أوضحها القرآن.

(١) راجع ما كتبناه عن هذا المصرف في كتابنا: فقه الزكاة (٢/٦٣٥ ـ ٦٦٩).

(٢) فصلنا القول في أحكام هذه المصارف في الباب الرابع من كتابنا: فقه الزكاة (٢/٦٤٧)، فمَن أراد التوسع فليرجع إليه.

QaradawiBooks.com

الزكاة حق لا تفضُّل:

ومن هذا كله نعلم أن الزكاة ليست تفضلًا وإحسانًا من إنسان إلى آخر، وإنما هي «حق معلوم» كما قال الله تعالى.

حق الفقير:

هي حق الفقير بوصفه أخًا للغني في الدين والإنسانية، فقد جعل الإسلام المجتمع كالأسرة الواحدة، يكفل بعضهم بعضًا، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كلُّه. فمن حقِّ الفقير الذي لا يستطيع أن يعمل، أو يستطيع ولا يجد عملًا، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله، أو يجد ولكن حَلَّ به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة: من حقه أن يُعان، ويُشدَّ أزره ويؤخذ بيده. وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكو التخمة، وإلى جواره مَن طال حرمانه حتى أَنَّ من الجوع.

ولا يجوز للمؤمن أن يعيش في دائرة نفسه مُغفِلًا واجبَه نحو الآخرين من ضعفاء ومساكين، فهذا نقص في إيمانه، موجب لسخط الله في الدنيا والآخرة. وفي هذا يقصُّ علينا القرآن مشهدًا من مشاهد الآخرة بين أهل اليمين في الجنة وأهل الشمال في النار، فأصحاب اليمين، ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٠ ـ ٤٤]. فهنا كان ترك إطعام المسكين من موجبات الخلود في سقر.

وأروع من ذلك وأعجب أن القرآن لا يكتفي بإيجاب إطعام المسكين ـ ومثل إطعامه: كسوته، ورعاية ضروراته وحاجاته ـ بل يزيد على ذلك

QaradawiBooks.com

فيجعل في عنق كلِّ مؤمن حقًّا للمسكين أن يحض غيره على إطعامه ورعايته، ويجعل ترك هذا الحض من لوازم الكفر بالله، والتكذيب بيوم الدين. نقرأ في هذا قول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ ـ ٧]، فقهر اليتيم وإهمال الحثِّ على رعاية المسكين جُعلا دليلًا على أن القلب خِلوٌ من الإيمان بالآخرة والتصديق بالجزاء، وما كان لمثل هذا الشخص من صلاة فهي صلاة الساهين المرائين.

ويقول تعالى في شأن أصحاب الشمال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩]، ثم يصدر الله عليه الحكم الذي يستحقه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]، ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤].

ولم ترَ الدنيا كتابًا كالقرآن يجعل إهمال الحث على العناية بالمسكين من موجبات الجحيم، والعذاب الأليم.

حق الجماعة:

والزكاة ـ مع أنها حق الفقير ـ حق الجماعة أيضًا، فالإنسان لم يكسب المال بجهده وحده، بل شاركت فيه جهود وأفكار وأيدٍ كثيرة، بعضها عن قصد، وبعضها عن غير قصد، بعضها ساهم من قريب، وبعضها ساهم من بعيد، وكلُّها أسباب عاونت في وصول المال إلى ذي

QaradawiBooks.com

المال. فإذا نظرنا إلى التاجر مثلًا كيف جمع ماله وحقَّق كسبه، رأينا للمجتمع عليه فضلًا كبيرًا. فممَّن يشتري؟ ولمَن يبيع؟ ومع مَن يعمل؟ وبمَن يسير إذا لم يكن المجتمع؟ وهكذا الزارع والصانع وكل ذي مال. فمن حق المجتمع ممثلًا في الدولة التي تشرف عليه وترعى مصالحه، وتسدُّ خلات أفراده أن يكون لها نصيب من مال ذي المال. فلو لم يكن في المجتمع المسلم أفراد فقراء أو مساكين لوجب على المسلم أن يؤدي زكاته ولا بد؛ لتكون رصيدًا للجماعة، تنفق منه عند المقتضيات، ولتبذل منه «في سبيل الله» وهو مصرف عام دائم ما دام في الأرض إسلام.

حق الله:

والزكاة ـ قبل ذلك ـ حقُّ الله تعالى؛ فالله هو المالك الحقيقي لكل ما في الكون أرضه وسمائه، والمال في الحقيقة ماله؛ لأنه خالقه وواهبه وميسِّر سبله، ومانح الإنسان القدرة على اكتسابه.

إذا زرع الإنسان زرعًا فأنبت حبًّا، أو غرس غرسًا فآتى ثمرًا فكم يوازي عمل يده في الحرث والسقي والتعهُّد بجانب عمل يد الله الذي جعل الأرض ذلولًا، وأنزل الماء من السماء مطرًا، وأجراه في الأرض نهرًا، وهيأ للحبة في باطن التراب غذاءها حتى صارت شجرة مورقة مثمرة؟ ألا ما أقل عمل الإنسان وجهده بجانب رعاية الله!

ثم ما عمل الإنسان إذا لم يهبه الله الأدوات التي بها يعمل، والعقل الذي يفكِّر ويدبِّر؟

ولهذا يبيِّن القرآن فضل الله على عباده، ويردُّ الحق إلى نصابه، فيقول: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ

QaradawiBooks.com

حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۝ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٠].

ويقول في سورة أخرى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٨].

وفي سورة ثالثة يقول: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

نعم، ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾، وهم يأكلون من ثمار لم تعملها أيديهم وإنما عملتها يد الله؟ الله الذي أحيا الأرض الميتة وأخرج منها الحبَّ، وأنشأ الجنات، وفجَّر العيون.

وليس عمل يد الله في الزراعة فحسب، بل في كلِّ ناحية من الحياة: زراعة أو تجارة أو صناعة أو غيرها. ففي الصناعة مثلًا نجد المادة الخام من خلق الله لا من إنتاج الإنسان، ومن هنا امتنَّ الله على الناس بمادة الحديد، فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والتعبير بـ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ يعني أن الله خلقه بتدبير سماوي علوي لا دخل للإنسان فيه.

ونجد الاهتداء إلى الصناعات من إلهام الله وتعليمه للإنسان ما لم يكن يعلم، كما قال تعالى عن نبي الله داود: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والنتيجة من هذا أن المال رزق يسوقه الله للإنسان فضلًا منه ونعمة، ومهما ذكر الإنسان عمله وجهده فليذكر عمل القدرة الإلهية في الإيجاد

QaradawiBooks.com

والإمداد. فلا غرابة بعد هذا أن ينفق الإنسان ـ عبد الله ـ بعض ما رزقه الله، على إخوانه عباد الله، قيامًا للواجب المنعم بحقِّ الشكر على نعمائه؛ ومن أجل هذا يقول الله في كتابه: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ويقرر أن المال مال الله والإنسان ما هو إلا مستخلف فيه أو موظَّف مؤتمن على تنميته وإنفاقه والانتفاع والنفع به، يقول تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وهذا المعنى في الزكاة ـ أنها حق الله ـ هو الذي يميِّزها عن الضريبة في النظم المادية الأخرى. إنها ضريبة وعبادة معًا. ضريبة؛ لأنها حق محدَّد مقرَّر لا تهاون فيه، تتولَّى الدولة المسلمة جبايته وتوزيعه. وعبادة؛ لأن المسلم يؤديها طاعة لأمر الله، وشكرًا له، واعترافًا بفضله؛ ولهذا لا يكتفي الإسلام بالأداء الآلي لهذه الضريبة ما لم تصحبه نية القربة إلى الله، بل لا يرضى من المسلم أن يؤدِّيها كارهًا متبرمًا كأنما يدفع مغرمًا.

قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مَن فعلهن؛ فقد طَعِم طَعْم الإيمان: مَن عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ...**»[(١)].

وجعل من أسباب البلاء للأمة: «**أن تصير الأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا**»[(٢)].

(١) رواه أبو داود في الزكاة (١٥٨٢)، والطبراني في الصغير (٥٥٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤١٠)، عن عبد الله بن معاوية الغاضري.

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢٢١٠)، وقال: حديث غريب. والطبراني في الأوسط (٤٦٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٤٠٧)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

أهداف الزكاة:

لكلمة الزكاة في لغة العرب معنيان: معنى الطهارة والنظافة، ومعنى النماء والزيادة.

وإنما اختار الإسلام هذه الكلمة ليعبِّر بها عن الفريضة المالية المعلومة؛ لأن هذه اللفظة تكشف عما يقصد إليه الإسلام من وراء هذه الفريضة. فالزكاة فيها معنى الطهارة ومعنى النماء كلاهما.

هي طهارة لنفس الغني من الشحِّ البغيض، تلك الآفة النفسية الخطرة التي قد تدفع مَن اتصف بها إلى الدم فيسفكه، أو العرض فيبذله، أو الوطن فيبيعه، ولن يفلح فرد أو مجتمع سيطر الشحُّ عليه وملك ناصيته، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهي في الجانب الآخر طهارة لنفس الفقير من الحسد والضِغن على ذلك الغني الكانز لمال الله عن عباد الله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣]، ومن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان، كما أن من شأن الحرمان في جانب، والتنعُّم في جانب، أن يملأ قلوب المحرومين بالبغضاء والأضغان.

وهي طهارة للمجتمع كله ـ أغنيائه وفقرائه ـ من عوامل الهدم والتفرقة والصراع والفتن الهوج. ولعل هذا كله ما تهدي إليه الآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ثم هي طهارة للمال، فإن تعلُّق حقِّ الغير بالمال يجعله ملوَّثًا لا يطهر إلا بإخراجه منه. وفي مثل هذا المعنى يقول بعض السلف: الحجر المغصوب في الدار رهن بخرابها[1]. وكذلك الدرهم الذي استحقَّه الفقير

(١) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني (٨٠/١)، نشر دار الجيل، بيروت.

QaradawiBooks.com

في المال رهن بتلويثه كله؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ: «**إذا أديتَ زكاة مالك؛ فقد أذهبتَ عنك شرَّه**»(١).

وأكثر من ذلك ما رُوي أنه قال: «**حصِّنوا أموالكم بالزكاة**»(٢).

وما أحوج الأغنياء إلى هذا التحصين، وخاصة في عصرنا الذي عرف المبادئ الهدَّامة، والثورات الحمراء!

ثم هي ـ بعد معنى الطهارة ـ نماء وزيادة؛ نماء لشخصية الغني وكيانه المعنوي، فالإنسان الذي يسدي الخير، ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه ويده، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله عليه، يشعر بامتداد في نفسه، وانشراح واتساع في صدره، ويحسُّ بما يحسُّ به مَن انتصر في معركة، وهو فعلًا قد انتصر على ضعفه وأثرته وشيطان شحِّه وهواه. فهذا هو النمو النفسي، والزكاة المعنوية.

ولعل هذا ما نفهمه من عبارة الآية: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فعطف التزكية على التطهير قد يفيد هذا المعنى الذي ذكرناه، إذ كلُّ كلمة في القرآن لها معناها ودلالتها.

والزكاة أيضًا نماء لشخصية الفقير، حيث يحسُّ أنه ليس ضائعًا في المجتمع، ولا متروكًا لضعفه وفقره، ينخران فيه حتى يوديا به، ويعجلا بهلاكه. كلا، إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرته، ويحمل عنه أثقاله،

---

(١) رواه ابن خزيمة (٢٢٥٨)، والحاكم (٣٩٠/١)، وصححه على شرط مسلم، كلاهما في الزكاة، عن جابر مرفوعًا، قال الحافظ في الفتح (٢٧٢/٣): رجح أبو زرعة والبيهقي وغيرهما وقفه.

(٢) رواه أبو داود في المراسيل (١٠٥)، عن الحسن البصري، مرسلًا.

QaradawiBooks.com

ويمدُّ له يد المعونة بكلِّ ما يستطيع. وبعد ذلك هو لا يتناول الزكاة من فرد يشعر بالاستعلاء عليه، ويشعر هو بالهوان أمامه، بل يأخذ حقَّه من يد الدولة حرصًا على كرامته أن تُخدَش. ولو قُدِّر للأفراد أن يكونوا هم المعطين بأنفسهم، فالقرآن يحذِّرهم من المنِّ والأذى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

والزكاة بعد ذلك نماء للمال وبركة فيه، وربما استغرب ذلك بعض الناس؛ فالزكاة في الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه، فكيف تكون نماءً وزيادةً؟!

ولكن العارفين يعلمون أن هذا النقص الظاهري وراءه زيادة حقيقية: زيادة في مال المجموع، وزيادة في مال الغني نفسه، فإن هذا الجزء القليل الذي يدفعه يعود عليه أضعافه من حيث يدري أو لا يدري.

وقريب من هذا ما نراه في بعض الدول الغنية المتخمة تتبرع بأموال من عندها لبعض الدول الفقيرة، لا لله، ولكن لتخلق قوةً شرائيةً لمنتجاتها.

وإذا نظرنا نظرة نفسية، نرى أن الدينار في يد رجل تخفق له القلوب بالحبِّ، وتهتف له الألسنة بالدعاء، وتحوطه الأيدي بالحماية والرعاية، الدينار مع هذا الإنسان أشد قدرة، وأكثر حركة من بضعة دنانير مع غيره، ممن يعيش لنفسه، غريقًا في أنانيته، يتمنَّى الناس له الفشل والإخفاق.

ولعل هذا التفسير الاقتصادي للنماء هو بعض ما تشير إليه آيات القرآن: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]،

QaradawiBooks.com

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]، ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ولا تنسَ هنا عمل العناية الإلهية في هــذا الإخلاف والإرباء، بغير ما نعرف من الأســباب، والله يؤتي من فضله ما يشاء لمَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والزكاة بعد ذلك وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي الذي جاء به الإسلام، فإن الإسلام يأبى أن يوجد في مجتمعه مَن لا يجد القوت الذي يكفيه، والثــوب الذي يزينــه ويواريه، والمســكن الــذي يؤويه، فهذه ضروريات يجب أن تتوافر لكلِّ مَن يعيش في ظلِّ الإســلام. والمســلم مطالب بأن يحقق هذه الضرورات وما فوقها من جهده وكســبه، فإن لم يســتطع فالمجتمع يكفله ويضمنه، ولا يدعه فريســة الجــوع والعري والمسكنة.

فهكذا علَّم الإسلام المسلمين أن يكونوا كالجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه اشتكى كلُّه.

والزكاة مورد أساسي لهذه الكفالة الاجتماعية المعيشية التي فرضها الإسلام للعاجزين والمحرومين.

ثم هي وسيلة من وسائل الإسلام التي اتَّخذها لتقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء؛ فالإســلام ـ باعتبــاره دينًا، يعترف بالفطــرة ويهذِّبها ويسمو بها ولا يعلن الحرب لاســتئصالها أو مقاومتها ـ قد أقرَّ الملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع؛ استجابةً للدوافع الفطرية الأصيلة في الإنسان التي تتطلَّب التملُّك والمنافسة والادخار.

QaradawiBooks.com

وبالتالي يكون الإسلام قد اعترف بالتفاوت الفطري في الأرزاق بين الناس، إذ هو بلا شك ناشئ عن تفاوت فطري آخر في المواهب والملكات، والقُدَر والطاقات. ولكن هذا الاعتراف بالتفاوت الفطري في الرزق ليس معناه أن يَدَع الغني يزداد غنًى، والفقير يزداد فقرًا، فتتَّسع الشقَّة بين الفريقين، ويصبح الأغنياء «طبقة» كُتب لها أن تعيش في أبراج من العاج، ويصبح الفقراء «طبقة» كتب عليها أن تموت في أكواخ من البؤس والحرمان. بل تدخَّل الإسلام بتشريعاته القانونية، ووصاياه الروحية والخلقية؛ لتقريب المسافة بين هؤلاء وأولئك، فعمل على الحدِّ من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء.

ولسنا هنا في مقام الحديث عن وسائل الإسلام في هذا التقريب من تحريم للربا والاحتكار والسرف والترف، إلخ، وإنما أتحدَّث عن الزكاة، فهي وسيلة بارزة من هذه الوسائل: هي أخذ من الأغنياء، وإعطاء للفقراء.

وهي أمضى سلاح في محاربة الكنز وإخراج النقود من مخابئها في الصناديق أو الشقوق، لتشارك في ميدان العمل والتثمير، بدل أن تبقى قوَّة معطَّلة شلَّاء. ولقد شُبِّه مَن يحبس المال ويكنزه عن التداول بمَن يحبس جنديًّا في جيش الإسلام عن مزاولة عمله في ميدان الجهاد. وهذا حقٌّ، فالدينار المتداول المستثمَر جندي يعمل لخدمة الأمة ورخائها وسيادتها، والدينار المخزون المكنوز جندي قاعد أو محبوس.

ولهذا حرَّم الإسلام الكنز، وأعلن القرآن سخط الله على الكانزين الأشحَّاء: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا

QaradawiBooks.com

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

ولم يكتفِ الإسلام بهذا الوعيد للكانزين، لقد زاد على ذلك بوضع خطة عملية لمقاومة الكنز، تلك هي الزكاة. فأي إنسان يرضى أن ينتقص كل عام من دراهمه ودنانيره (٢,٥٪) بالمائة وهي بحالها لا تنمو؟ إن الزكاة لتوشك أن تلتهمها بعد سنوات قلائل ما لم يتدارك ماله فيُثمِّره وينمِّيه. وهذا ما جعل الرسول الكريم يأمر الأوصياء على أموال اليتامى أن يتَّجروا فيها حتى لا تأكلها الزكاة(١).

من شهادات الكُتَّاب الأجانب:

تلك هي الزكاة في الإسلام، وذلك بعض أهدافها وأسرارها. فلا غرو إن رأينا كثيرًا من الكتَّاب والباحثين الغربيين ينوِّهون بها، ويشيدون بفضل الإسلام في شرعيتها.

يقول ليودوروش: لقد وجدتُ في الإسلام حلَّ المشكلتين اللتين تشغلان العالم: الأولى: قول القرآن: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية. والثانية: فرض الزكاة على كل ذي مال(٢).

وينقل لنا صاحب «الإسلام والحضارة العربية» عن ماركس ـ غير كارل ماركس الشيوعي ـ قوله عن الزكاة: «وكانت هذه الضريبة فرضًا دينيًّا يتحتم على الجميع أداؤه، وفضلًا عن هذه الصفة الدينية، فالزكاة نظام اجتماعي

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٩٩٨)، والدارقطني في الزكاة (١٩٧١)، عن عبد الله بن عمرو. ورواه مالك (٥٨٨)، والبيهقي في الصغرى (١٢٦٨)، كلاهما في الزكاة، عن عمر قوله. قال الدارقطني في العلل (١٥٧/٢): حديث عمر أصح.

(٢) الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي صـ ٧٢، نشر مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.

QaradawiBooks.com

عام، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمدُّ به الفقراء وتعينهم. وذلك على طريقة نظامية قويمة، لا استبدادية تحكمية، ولا عرضية طارئة.

وهذا النظام البديع كان الإسلام أول مَن وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة، فضريبة الزكاة ـ التي كانت تجبر طبقات الْمُلَّاك والتُّجَّار والأغنياء على دفعها؛ لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها ـ هدمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة، ووحَّدت الأمة في دائرة اجتماعية عادلة. وبذلك برهن هذا النظام الإسلامي على أنه لا يقوم على أساس الأثرة البغيضة»[١].

وينقل عن ماسينيون المستشرق الشهير: «إن لدين الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدَّد في تحقيق فكرة المساواة، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كلُّ فرد لبيت المال، وهو يناهض الديون الربوية، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية. ويقف في نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري، وبذلك يحلُّ الإسلام مرة أخرى مكانًا وسطًا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية، ونظريات البلشفية الشيوعية»[٢].

التزام أداء الزكاة كافٍ لإعادة مجد الإسلام:

يقول الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره»: «إن الإسلام يمتاز على جميع الأديان والشرائع بفرض الزكاة فيه ـ كما يعترف بهذا حكماء جميع الأمم وعقلاؤها ـ ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لَما

(١) الإسلام والحضارة الغربية لكرد علي صـ ١٧٦، نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢.

(٢) المرجع نفسه صـ ٧٦، ٧٧.

QaradawiBooks.com

وُجِد فيهم ـ بعد أن كثرهم الله ووسَّع عليهم في الرزق ـ فقير مدقع، ولا ذو غرم مفجع. ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة، فجنَوا على دينهم وأمتهم، فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالًا في مصالحهم المالية والسياسية، حتى فقدوا مُلكهم وعزهم وشرفهم، وصاروا عالةً على أهل الملل الأخرى، حتى في تربية أبنائهم وبناتهم؛ فهم يلقونهم في مدارس دعاة النصرانية، أو دعاة الإلحاد، فيفسدون عليهم دينهم ودنياهم، ويقطعون روابطهم الملية والجنسية، ويعدونهم ليكونوا عبيدًا أذلَّة للأجانب عنهم. وإذا قيل لهم: لماذا لا تؤسسون لأنفسكم مدارس كمدارس هؤلاء الرهبان والمبشرين أو الملاحدة الإباحيين؟ قالوا: إننا لا نجد من المال ما يقوم بذلك. وإنما الحق أنهم لا يجدون من الدين والعقل وعلو الهمة والغيرة ما يمكِّنهم من ذلك، فهم يرون أبناء الملل الأخرى يبذلون للمدارس وللجمعيات الخيرية والسياسية ما لا يوجبه عليهم دينهم، وإنما أوجبته عليهم عقولهم وغَيرتهم الملية والقومية، ولا يغارون منهم، وإنما يرضون أن يكونوا عالة عليهم، تركوا دينهم فضاعت بإضاعتهم له دنياهم، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

فالواجب على دعاة الإصلاح فيهم أن يبدؤوا بإصلاح مَن بقي فيه بقية من الدين والشرف بتأليف جمعية لتنظيم جمع الزكاة منهم، وصرفها قبل كلِّ شيء في مصالح المرتبطين بهذه الجمعية دون غيرهم. ويجب أن يراعى في تنظيم هذه الجمعية أن لسهم «المؤلفة قلوبهم» مصرفًا في مقاومة الردة والإلحاد، وأن لسهم «في الرقاب» مصرفًا في تحرير الشعوب المستعمرة من الاستعباد، إذا لم يكن له مصرف تحرير الأفراد، وأن لسهم «سبيل الله» مصرفًا في السعي لإعادة حكم الإسلام، وهو أهم من الجهاد؛

QaradawiBooks.com

لحفظه في حال وجوده من عدوان الكفـــار، ومصرفًا آخر في الدعوة إليه والدفاع عنه بالألسنة والأقلام، إذا تعذر الدفاع عنه بالسيوف والأسنة.

ألا إن إيتاء جميع المسلمين أو أكثرهم للزكاة وصرفها بانتظام كافٍ لإعادة مجد الإسلام، بل لإعادة ما سلبه الأجانب من دار الإسلام، وإنقاذ المسلمين من رقِّ الكفار. وما هي إلا بذل العشر أو ربع العشر مما فضل عن حاجة الأغنياء. وإننا نرى الشـعوب التي سادت المسلمين ـ بعد أن كانوا سادتهم ـ يبذلون أكثر من ذلك في سبيل أمتهم وملَّتهم، وهو غير مفروض عليهم من ربِّهم»[(١)]!

زكاة الفطر:

وهناك نوع فريد من الزكاة شرعه الإسلام لا يتبع رأس المال كزكاة النقدين، ولا الدخل والغلة كزكاة الزروع والثمار، ولا يشترط فيه اليسار وملك النصاب كبقية أنواع الزكاة. إنها «زكاة الفطر» وسُمِّيت بهذا؛ لأنها تجب بالفطر من رمضـــان كلَّ عام، فهي دورية ســنوية، وهي معونة أو منحة عاجلة من غالب قوت أهل البلد، شُـرعت بمناسـبة الانتهاء من الصيـــام والدخول في العيد، شـكرًا لله على نعمة التوفيـق في الصيام، ونعمة الفرحة بالعيد، ومواســاةً من المسلم لإخوانه المحتاجين، وإغناءً لهم عن السؤال في يوم العيد.

ولأنها مشروعة بهذه المناسـبة حدَّد الإسـلام وقت أدائها بما قبل صلاة العيد، وفي هذا قال ابن عباس: فرض رسـول الله ﷺ، زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ـ الكلام الفاحش ـ وطعمة للمســاكين.

(١) تفسير المنار (١٠/٤٤٣، ٤٤٤).

QaradawiBooks.com

مَن أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومَن أدَّاها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات[(١)].

وكان ابن عمر يؤديها قبل العيد بيوم أو يومين[(٢)]. وقال الشافعي: يجوز تقديمها من أول الشهر[(٣)].

فرض الإسلام هذه الزكاة على كلِّ مسلم يملك مقدارها ـ وهو صاع من قمح أو شعير أو تمر أو نحوه[(٤)] ـ زائدًا عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته، وتجب على المسلم عن نفسه وعمَّن تلزمه نفقته من كلِّ مَن يلي أمورهم وينفق عليهم، كزوجته وأبنائه وخدمه. روى الشيخان، عن ابن عمر قال: فرض رسول الله ﷺ، زكاة الفطر من رمضان صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين»[(٥)].

وإنها لحكمة بالغة من الإسلام ألا يوجب هذه الزكاة على الموسر المالك للنصاب وحده، بل يوجبها على كلِّ مسلم تقريبًا، فقلَّما يوجد في المجتمع المسلم مَن لا يملك مقدار قدح وثلث من الحبوب فاضلًا

(١) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (٥٦٨/١)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الزكاة، والدارقطني في زكاة الفطر (٦١/٣)، وقال: ليس فيهم مجروح. وحسنه إسناده النووي في المجموع (١٢٦/٦)، عن ابن عباس.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٥١١).

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٦٤/٤)، نشر دار إحياء التراث العربي.

(٤) يرى أبو حنيفة وبعض الأئمة أن الواجب نصف صاع من القمح فقط، وهو يوازي سدس كيلة مصرية، وجوز إخراج القيمة نقدًا. وإنما كان الواجب طعامًا؛ لقلة النقود عندهم، ولعدم ثبات القدرة الشرائية للنقود.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٠٣)، ومسلم (٩٨٤)، كلاهما في الزكاة.

QaradawiBooks.com

عن قوت يومه وليلته. وأن هذه الحكمة لتتجلَّى في تعويد المسلم البذل وتدريبه على الإنفاق، ولو كان فقيرًا معسرًا، وإشعاره بكرامته وشخصيَّته حين يمدُّ يده معطيًا لا آخذًا؛ ولهذا كان من صفات المتَّقين الذين أعدَّ الله لهم جنة عرضها السماوات والأرض أنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وإذا تبينَّا هذه الحكمة الجليلة، لم نجد غرابة في أن يعطي هذه الزكاة مَن هو مستحقٌّ للزكاة، وهو لن يخسر؛ لأنه يعطي من ناحية، ويُعطَى من نواحٍ.

وفي هذا يقول النبي الكريم: «**صاع من برٍّ - أو قمح - على كلِّ امرئ: صغير أو كبير، حر أو عبد، ذكر أو أنثى، غني أو فقير. أما غنيكم فيزكِّيه الله، وأما فقيركم فيردُّ الله عليه أكثر مما أعطى**»(١).

في المال حق سوى الزكاة:

والزكاة ليست هي الحق الوحيد في مال المسلم، وإنما هي الحقُّ الدوري المحدَّد المرسوم، وفي المال حقوق أخرى تقتضيها الظروف، وتوجبها الحاجات وتُوكَل في الغالب إلى ضمير المسلم ومشاعره الزكية التي ربَّاها الإسلام، فليس لها قدر محدَّد ولا زمن معيَّن.

عن أنس بن مالك، أن رجلًا من بني تميم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل ومال وحاضرة، فأخبرني كيف أصنع، وكيف أنفق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تخرج الزكاة من مالك؛ فإنها**

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦٤)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الزكاة (١٦١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٦٨)، عن عبد الله بن ثعلبة.

QaradawiBooks.com

طهـرة تطهـرك، وتصل أقربـاءك، وتعـرف حـقَّ المسـكين والجار والسـائل»[١]، فجعل صلة الأقرباء مـن المال، ومعرفة حقِّ المسـكين والجار والسائل من الحقوق عليه بعد الزكاة.

وقال تعالى في بيـان حقيقة البرِّ وعناصره: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فجعل من عناصر البـرِّ: إيتاء المال ذوي القربـى ومَن بعدهم، مع الزكاة المقرونة بالصلاة.

الإنفاق المستحب:

وكلُّ ما ذكرناه إنما هو في الإنفـاق الواجب، ولكن دائرة الإنفاق تتَّسـع بعد ذلك لما تهفو إليه القلوب المؤمنة مـن التطوُّع بالخير، والتوسُّع في إسـداء المعروف. وقد رغَّب الإسـلام في ذلك ترغيبًا يشـرح صدر الكريم، ويدفـع البخيل إلى العطاء، فـالله تعالى يتقبَّل الصدقة بيمينـه، ويربيها لصاحبها كما يربـي أحدنا مهره حتى تصير التمرة مثل الجبل[٢]. هذا ما صوَّره لنا رسـول الله ﷺ. ويصور القرآن

(١) رواه أحمد (١٢٣٩٤)، وقال مخرجوه: رجاله ثقات رجال الشـيخين. والحاكم في التفسـير (٢/٣٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٣٣٢): رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح. عن أنس.

(٢) إشـارة إلى الحديث المتفق عليه: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا** =

QaradawiBooks.com

ذلك فيقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومن الترغيبات القرآنية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

ومن الأحاديث: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**»[(١)]. وروي عن عائشة، أنهم ذبحوا شاة فتصدَّقوا ببعضها، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**». قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: «**بقي كلها غير كتفها**»[(٢)]! وقال ﷺ: «**يقول العبد: مالي مالي. وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى ـ أي ادَّخره عنده الله ـ وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**»[(٣)].

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**». قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر**»[(٤)].

= **الطيب، وإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**». رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٤٢٤٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٠)، وصححه.

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٩)، وأحمد (٨٨١٣)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من أجل هذه النصوص وغيرها جادت نفوس المسلمين الأولين بما يحبون من المال، وفاضت أيديهم بالخير فيضًا، ولم يشبع نهمهم للقربات أداء الزكاة وما فوق الزكاة من الحقوق المالية، بل زادوا عليها متطوِّعين يبتغون ما عند الله، وما عنده خير وأبقى(١).

وبحسبنا أن نذكر هنا الإمام الليث بن سعد الذي كان يتصدَّق بكلِّ ما يجمعه من مال، ولا يَدَعه حتى يحول عليه حول معه. وقالوا: إن دخله السنوي كان ثمانين ألف دينار(٢).

وكذلك كان عبد الله بن جعفر الذي لم يكن يردُّ سائلًا يؤمُّه في حاجةٍ قط، ولما قيل له في ذلك، قال: إن الله عوَّدني عادة، وعوَّدتُ عباده عادة: عودني أن يعطيني، وعوَّدتُ عباده أن أعطيهم، وأخشى إذا قطعتُ عادتي عنهم أن يقطع عادته عني(٣).

* * *

(١) راجع: حياة الصحابة للكاندهلوي (٣٨٧/٢)، باب إنفاق الصحابة في سبيل الله، تحقيق د. بشار عواد، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٢٢/٧).

(٣) رواه البيهقي في الشُّعَب (١٠٨٨٤).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الصيـــام

تنوع العبادات في الإسلام:

نوَّع الإســلام في عباداته: فمنها ما يتمثَّل في القول، كالدعاء، وذكر الله، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وما يدور في هذا الفلك.

ومنها ما يتجلَّى في الفعل: بدنيًّا كالصلاة، أو ماليًّا كالزكاة، أو جامعًا بينهما كالحج، والجهاد في سبيل الله.

ومنهـا ما ليس قـولًا ولا فعلًا، ولكنـه كفٌّ وامتنـاع فقط. وذلك كالصوم، الذي هو امتناع عن الأكل والشـرب ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

الصوم عمل إيجابي في حقيقته وروحه:

وهذا الامتناع والترك، إن بدا سـلبيًّا في مظهره، فهو عمل إيجابي في حقيقته وروحه، إذ هو كفٌّ النفس عما تشـتهيه بنية القربة إلى الله تعالى؛ فهو بهذا عمل نفسـي إرادي له ثقله في ميـزان الحقِّ والخير والقبول عند الله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النية إذن هي الفيصل في كلِّ فعل وترك. وهل الدين إلا فعل وترك؟ فعل للمأمور به إيجابًا أو استحبابًا، وترك للمنهيِّ عنه تحريمًا أو كراهة، بل هل الفضائل إلا فعل لما ينبغي، وترك لما لا ينبغي؟

والصيام عبادة قديمة عرَفتها الأديان قبل الإسلام، وإن حرَّف الناس في كيفيته وبدَّلوا؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ولكن صيام الإسلام يمتاز عن كلِّ صيام سواه.

شهر الصيام المفروض:

وقد اختار الله لهذا الصيام في الإسلام شهرًا مباركًا كريمًا، له في نفوس المسلمين مكان كريم، فهو الشهر الذي نزل فيه أول فوج من آيات القرآن العزيز، حملها الروح الأمين إلى قلب الرسول الكريم: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١].

وجدير بشهر اصطفاه الله لينزل فيه أفضل كتبه إلى خيرة خلقه، أن يكون أهلًا ليفرض فيه تلك العبادة السنوية «الصيام»؛ قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

من أسرار الصيام:

لقد فرض الله علينا الصيام في رمضان، وما فرضه إلا لأسرار عليا، وحِكَم بالغة، نعرف منها ما نعرف، ونجهل منها ما نجهل، ويكشف

QaradawiBooks.com

الزمن عن بعضها ما يكشف، فعلينا أن نتأمَّل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش، وأن ندرك سرَّه تعالى في الصوم حتى نؤدِّيَه كما أراده الله، لا كما اشتهاه الناس.

الصوم تقوية للروح:

ولن نستطيع أن ندرك سرَّ هذا الصوم إلا إذا أدركنا سرَّ هذا الإنسان. فما الإنسان؟ وما حقيقته؟

هل هو الجثة القائمة، وهذا الهيكل المنتصب؟ هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب؟ إن كان الإنسان هو ذلك، فما أحقره، وما أصغره!

نعم، ليس الإنسان هو ذلك الهيكل المحسوس، إنما هو رُوح سماوي يسكن هذا الجسم الأرضي، وسرٌّ من الملأ الأعلى في غلاف من الطين!

ليست حقيقة الإنسان إلا هذه اللطيفة الربانية، والجوهرة الروحانية التي أودعها الله فيه، بها يعقل ويفكِّر، وبها يشعر ويتذوَّق، وبها يدبِّر مُلْك الأرض، ويتطلَّع إلى ملكوت السماء، وبها أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، لا لما فيه من حمأ مسنون، وطين معجون، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [صٓ: ٧١، ٧٢].

ذلكم هو الإنسان؛ رُوح علوي وجسد سفلي، فالجسد بيت، والرُّوح صاحبه وساكنه، والجسد مطيَّة، والرُّوح راكب مسافر، ولم يخلق البيت لنفسه، ولا المطية لذاتها، ولكن البيت لمصلحة الساكن، والمطية لمنفعة

QaradawiBooks.com

الراكب، فما أعجب هؤلاء الآدميين الذين أهملوا أنفسهم، وعنوا بمساكنهم، وجعلوا من ذواتهم خدَّامًا لمطاياهم؛ وأهملوا أرواحهم وعبدوا أجسادهم، فللجسد وحده يعملون، ولإشباع غرائزه الدنيا ينشطون، وحول بطونهم وفروجهم يدورون، نشيدهم الدائم قول القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام[1]

أولئك الذي وصفهم الله بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ذلكم هو الإنسان رُوح وجسد، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلي، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوي، فإذا أخضع الإنسان أشواق روحه لمطالب جسده، وحكَّم غريزته في عقله، استحال من ملاك رحيم إلى حيوان ذميم، وربما إلى شيطان رجيم، هذا الذي ناداه الشاعر المؤمن:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران؟!
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان[2]!

أما إذا عرف الإنسان قيمة نفسه، وأدرك سرَّ الله فيه، وحكَّم جانبه السماوي في جانبه الأرضي، وعني بالراكب قبل المطية، وبالساكن

(١) ذكره الراغب الأصبهاني مع اختلاف في بعض ألفاظه، ولم ينسبه. محاضرات الأدباء (٢٤٣/٢)، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت.

(٢) من شعر أبي الفتح البُستي، كما في ديوانه صـ ١٨٣، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، نشر مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

قبل الجدران، وغلَّب أشواق الروح على نوازع الجسد. فقد صار ملاكًا أو خيرًا من الملاك، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرَّر الإنسان من سلطان غرائزه، وينطلق من سجن جسده، ويتغلَّب على نزعات شهوته، ويتحكَّم في مظاهر حيوانيته، ويتشبَّه بالملائكة، فليس عجيبًا أن يرتقي رُوح الصائم ويقترب من الملأ الأعلى، ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح، ويدعو ربَّه فيستجيب له، ويناديه فيقول: لبيك عبدي لبيك. وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم**»(١).

صوموا تصحُّوا:

وإذا كان في الصيام فرصة أي فرصة لتقوية الروح، ففيه فرصة أي فرصة لتقوية البدن، فإن كثيرًا مما يصيب الناس من أمراض إنما هو ناشئ من بطونهم التي يتخمونها بكلِّ ما تشتهي غير مفرِّقين بين ما ينبغي وما لا ينبغي، وقد قال ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٨٠٤٣)، وقال مخرجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٧١٨٦)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام، فإن صح سماعه منه فالحديث صحيح، وإلا فمنقطع. والترمذي في الزهد (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٣٣١/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٢٨/٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥)، عن المقدام بن معديكرب.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا كانت البطن مستنقع البلايا، وكانت المعدة بيت الداء؛ فإن الحِمْية ـ أي الامتناع عن الأكل ـ رأس الدواء. وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلَّص الجسم من كثير من فضلاته الضارة، وقد نشرت إحدى المجلات أن ثلاثمائة قد برئوا من البول السكري بعلاج الصوم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**صوموا تصحوا**»(١).

الصوم تربية للإرادة:

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعفُّ وبجانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربُّه، ولا سلطان إلا ضميره، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرَّر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كلِّ يوم، وتسعة وعشرين يومًا أو ثلاثين في كلِّ عام. فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل، كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام إجباريًّا للمسلمين في رمضان، وتطوعًا في غير رمضان؟!

لقد كتب عالِم نفساني ألماني بحثًا عن تقوية الإرادة أثبت فيه أن أعظم وسيلة لذلك هي الصوم. أما الإسلام فقد سبق علماء النفس كما سبق من قبل أطباء الجسم، وحسبك أن تسمع نداء الرسول للشباب: «**يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومَن لم يستطيع، فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»(٢).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٣١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠٧٠): رجاله ثقات. عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح، عن عبد الله.

QaradawiBooks.com

ولأن رمضان يُعلِّم الصبر؛ نسبه الرسول ﷺ إليه، فقال: «**صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كلِّ شهر، يذهبن وحر الصدر**»[١]، وروي عنه في حديث آخر: «**لكلِّ شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر**»[٢]. وإنما كان الصوم نصف الصبر؛ لأن في الإنسان قوى ثلاثًا: قوة شهوية كالتي في البهائم، وقوة غضبية كالتي في السباع، وقوة روحية كالتي في الملائكة. فإذا تغلَّبت قوته الروحية على إحداهما كان ذلك نصف الصبر، وفي الصوم يتغلَّب المسلم على قوَّته الشهوانية من بطن وفرج، فكان الصوم حقًّا نصف الصبر.

إن الإسلام ليس دين استسلام وخمول، بل هو دين جهاد وكفاح متواصل، وأول عدَّة للجهاد هو الصبر والإرادة القوية، فإن مَن لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوًّا، ومَن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على عدوه، ومَن لم يصبر على جوع يوم هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير. والصوم ـ بما فيه من صبر وفطام للنفوس ـ من أبرز وسائل الإسلام في إعداد المؤمن الصابر المرابط المجاهد، الذي يتحمَّل الشظف والجوع والحرمان، ويرحِّب بالشدَّة والخشونة وقسوة العيش ما دام ذلك في سبيل الله.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٧٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه. وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٧٩٠)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ومعنى «وَحَر الصدر»: أي غِشُّه ووساوسه. وقيل: الحقد والغيظ. وقيل: العداوة. لسان العرب مادة (و. ح. ر).

(٢) رواه ابن ماجه في الصيام (١٧٤٥)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٦٣٢): إسناد الحديث من الطريقين معا ضعيف. فيه موسى بن عبيدة الربذي، ومدار الطريقين عليه وهو متفق على تضعيفه. وابن شاهين في الترغيب (٢٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩٩)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٣٨٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

تعريف بالنعمة:

ومن حكم الصوم: أنه يعرف المرء بمقدار نعم الله عليه؛ فالإنسان إذا تكرَّرت عليه النعم، قَلَّ شعوره بها. النعم لا تُعرف إلا بفقدانها، فالحلو لا تَعرف قيمته إلا إذا ذُقت المر، والنهار لا تَعرف قيمته إلا إذا جنَّ عليك الليل، وبضدِّها تتميز الأشياء.

ففي الصوم معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع والري، ولا يُعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش، ومرارة الجوع.

ومن أجل ذلك ورد أن النبي ﷺ قال: «**عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا. فإذا جعتُ تضرَّعت إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ شكرتُك وحمدتُك**»(١).

تذكير بحرمان المحرومين:

ومن أسرار الصيام الاجتماعية: أنه تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة بليغة، ولا لسان فصيح، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء؛ فإن الذي نبت في أحضان النعمة ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذُق مرارة العطش، لعله يظنُّ أن الناس كلَّهم مثله. وأنه ما دام يجد فالناس يجدون، وما دام يطعم لحم طير مما يشتهي وفاكهة مما يتخيَّر، فلن يحرم الناس الخبز والبقول! فلا غرو، أن جعل الله من الصوم مظهرًا للاشتراكية

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٩٠)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف جدًّا. والترمذي في الزهد (٢٣٤٧)، وحسنه، والطبراني (٢٠٧/٨)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٣٤٧): ضعيف جدًّا. عن أبي أمامة.

QaradawiBooks.com

الصحيحة، والمساواة الكاملة، وجعل الجوع ضريبة إجبارية، يدفعها الموسر والمعسر، ويؤدِّيها مَن يملك القناطير المقنطرة ومن لا يملك قوت يومه، حتى يشعر الغني أن هناك معدات خاوية، وبطونًا خالية، وأحشاء لا تجد ما يسدُّ الرمق، ويطفئ الحرق، فحري بإنسانية الإنسان، وإسلام المسلم، وإيمان المؤمن، أن يرق قلبه، وأن يعطي المحتاجين، وأن يمد يده إلى المساكين. فإن الله رحيم، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وصدق رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(١)، وقد روي أن يوسف عليه السلام كان يكثر الصيام وهو على خزائن الأرض، بيده المالية والتموين، فسئل في ذلك، فقال: أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقير(٢)!

العبودية الكاملة لله:

وفي الصوم قبل ذلك وبعده تمام التسليم لله، وكمال العبودية لرب الناس، ملك الناس، إله الناس. وهذه الحكمة هي القدر المشترك في كلِّ عبادة، والهدف الأسمى من كلِّ فريضة، ولن تكون العبادة عبادة، ولا العبد عبدًا إلا بها: يقول رب العباد: «أمرت ونهيت». ويقول العباد: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) رواه أحمد (٦٤٩٤)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في البر والصلة (١٥٩/٤)، وقال بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة. ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٢٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) إحياء علوم الدين (٨٥/٣).

QaradawiBooks.com

وما أظهر هذا التسليم والعبودية في الصوم خاصة، فالصائم يجوع ويعطش وأسباب الغذاء والري أمامه ميسَّرة لولا حب الله والرغبة في رضاه، وإيثار ما عنده. ولهذا نسب الله الصيام إلى حضرته وتولى جزاء الصائمين بنفسه فقال: «**كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَع طعامه من أجلي، ويَدَع شرابه من أجلي، ويَدَع لذَّته من أجلي، ويَدَع زوجته من أجلي**»(١).

ذلكم هو الصوم في الإسلام، لم يشرعه الله تعذيبًا للبشر ولا انتقامًا، كيف وقد ختم آية الصوم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإنما شرعه الله إيقاظًا للروح، وتصحيحًا للجسد، وتقوية للإرادة، وتعويدًا على الصبر، وتعريفًا بالنعمة، وتربية لمشاعر الرحمة، وتدريبًا على كمال التسليم لله ربِّ العالمين.

المسلمون والصيام:

تلك حِكَم يجب أن نرعاها حقَّ رعايتها، وأن نضعها نصب أعيننا في صومنا حتى يكون صومًا يؤدِّي مهمَّته ويفي بالغرض المقصود منه.

فليت شعري هل فَقِهَ المسلمون أسرار الصيام؟ وهل انتفعوا بشهر رمضان؟ أما أسلافنا فقد جنَوا ثماره، وتفيؤوا ظلاله، واستمدوا منه روح القوة وقوة الروح. كان نهارهم نشاطًا وإنتاجًا وإتقانًا، وكان ليلهم استغفارًا وتهجدًا وقرآنًا، وكان شهرهم كله تعلُّمًا وتعبُّدًا وإحسانًا، ألسنتهم صائمة فلا تلغو برفث أو جهل، وآذانهم صائمة فلا

(١) رواه ابن خزيمة في الصيام (١٨٩٧)، عن أبي هريرة، وأصل الحديث في الصحيحين: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصيام.

QaradawiBooks.com

تســمع لباطل أو لغو، وأعينهم صائمة فلا تنظر إلى حرام أو فحش، وقلوبهم صائمة فلا تعــزم على خطيئة أو إثــم، وأيديهم صائمة فلا تمتدُّ بسوء أو أذى.

أما مسلمو اليوم فمنهم مَن اتخذ رمضان موسمًا لطاعة الله، ومضاعفة الخيرات، صاموا نهاره فأحسنوا الصيام، وقاموا ليله فأحســنوا القيام، وشكروا نعمة الله عليهم، فلم ينسوا إخوانهم من الضعفاء والمحرومين. واقتدوا برســولهم الكريم الذي كان أجود ما يكون فــي رمضان ـ فهو أجرى بالخير من الريح المرسلة.

وبجوار هؤلاء المحســنين خلف ســوء، لم ينتفعــوا برمضان، ولم يستفيدوا بما فيه من صيام ولا قيام.

جعله الله للقلــب والروح فجعلوه للبطن والمعــدة، جعله الله للحلم والصبر فجعلــوه للغضب والطيش، جعله الله للســكينة والوقار فجعلوه شهر الســباب والشــجار، جعله الله ليغيروا فيه من صفات أنفسهم فما غيروا إلا مواعيد أكلهم، جعله الله تهذيبًا للغني الطاعم، ومواساة للبائس المحروم، فجعلوه معرضًا لفنون الأطعمة والأشــربة، تــزداد فيه تخمة الغني بقدر ما تزداد حسرة الفقير.

فلعل المســلمين يصومون الصيام الذي يعدهم لتقــوى الله كما أمر القرآن، حتى يخرجوا من رمضان مطهرين مغفوري الذنوب.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الحَجُّ

الحج هو الشعيرة الرابعة في الإسلام، وهو آخر ما فُرض من الشعائر والعبادات التي رسم الله حدودها ومعالمها. إذ كانت فرضيته في السنة التاسعة من الهجرة النبوية على أرجح الأقوال.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه «إلى البلد الأمين» الذي أقسم الله به في القرآن. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الإسلام رمزًا لتوحيد الله، ووحدة المؤمنين به، ففرض على المسلم أن يستقبله كلَّ يوم في صلواته: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ثم فرض عليه أن يتوجَّه إليه بشخصه ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة.

صلة المسلم بالبيت الحرام وبانيه:

إن هذا البيت العتيق هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله، وبانيه هو الخليل إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام، وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريَّتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخالصة وهما يشيدان هذا البناء العتيد: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ

QaradawiBooks.com

لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

إن إبراهيم الخليل قد عُرف في التاريخ بأنه عدو الشرك، ومحطِّم الأوثان، ورمز التوحيد، وأبو الملَّة الحنيفية، فملَّته هي الإسلام الخالص، وهو الذي سمانا المسلمين من قبل، فلا عجب أن يكون بينه وبين المؤمنين من هذه الأمة روابط روحية لا تضعف منها مسافة الزمن الطويل، روابط تجعلهم دائمًا ذاكرين لهذا الأب الجليل منقبته وفضله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

في ظل هذه المعاني والمشاعر والروابط التي تربط المسلمين بالبيت الحرام وبانيه الأول إبراهيم عليه السلام، فرض الله الحج على كل مستطيع وجعل تركه أو الاستخفاف به كفرًا بالله ومروقًا من الدين، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

أعمال الحج:

والحج يبدأ بالميقات ـ وهو مكان حدَّده الشرع ليحرم منه أو بحذائه أهل جهة معينة ـ والإحرام يتمثل في نية الحج والتجرد من الثياب المعتادة التي يزهى بها الناس ويختالون، والاقتصار على لبس ثياب

QaradawiBooks.com

بيضاء متواضعة لم تعمل فيها يـد الصنعة والتزويق. هي أقرب ما تكون إلى الثياب التي يُكَفَّن فيهـا الموتى من المؤمنين. وهـو تحقيق لمبدأ العودة إلى طهارة الطبيعة الذي دعا إليه «روسو» وغيره من الفلاسفة ولم يحققوه.

وبعد هذا: يرفع الحاج صوته بهذا الشـعار الذي هو النشـيد العام للحجـاج جميعًا طوال أيام الحـج ومواقفه: «لبيك اللهـم لبيك، لبيك لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وكأنه بهذا الشـعار يلبي هذا النداء الإلهي القديم، الذي أمر الله به إبراهيم الخليل عليه السلام أن يؤذِّن به في الناس: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

وأهم أعمال الحج بعد الإحرام: الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة في نهار التاسع من ذي الحجة.

ودون ذلك في الأهمية رمي الجمار، والمبيت بمنى، وذبح الهدي. فضلًا عن السنن والمستحبات الأخرى.

وقد كان كثير من هذه الأعمال في حج الجاهليين، توارثوه عن ملة إبراهيم، ولكنهم خلطوا حقًّا بباطل، وصالحًا بسـيئ، فحرَّفوا الحج عن وجهته، وملؤوا الكعبة ـ بيت التوحيـد ـ بالأنصاب والأوثان، واتخذوا هذه الأنصاب آلهة مع الله؛ يعبدونهم لتقربهم إلى الله زلفى، ونذروا لها، وذبحوا باسمها وقالوا هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا ـ آلهتنا ـ ثم إنهم

QaradawiBooks.com

اصطنعوا لهم في الحج تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، منها طوافهم حول البيت عرايا، زاعمين أنه لا يليق بهم أن يطوفوا ببيت الله بثياب ارتكبوا فيها الذنوب، وحرَّموا على أنفسهم بعض طيبات الطعام كالدسم وما وراء القوت.

فلما جاء الإسلام نقَّى الحج من ضلالات الجاهلية، وأدران الوثنية، وجعله كلَّه خالصًا لله، وحمل على هذا العري المُزري، وذلك التحريم للطيبات بغير إذن من الله.

وفي مثل هذا نزل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

الكعبة رمز التوحيد والوحدة:

إنه لا ضير على الإسلام أن يبقي الصالح من تقاليد العرب وشرائعهم التي ورثوها من دين إبراهيم. وهو بهذا يصل بين القديم والجديد في تاريخ الإيمان، ويقرِّر وحدة الدين عند الله.

يقول صاحب مجلة «الشهاب» رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة، والنظرة السامية في هذا التشريع الحكيم، هذه الفرصة، فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثرًا ببقية من وثنية العرب، وأن الكعبة والطواف من حولها، والحجر الأسود واستلامه، وما يحيط بذلك من معاني التقديس والتكريم، إن هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر. وهذا القول بعيد عن الصحة، عارٍ عن الصواب، فالمسلم الذي يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر، يعتقد اعتقادًا جازمًا أنها جميعًا أحجار لا تضر ولا

QaradawiBooks.com

تنفع، ولكنه إنما يقدس فيها هذا المعنى الرمزي البديع، معنى الأخوة الإنسانية الشاملة، والوحدة العالمية الجامعة، ويذكر في ذلك قول الله العلي الكبير: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

والرمزية هي اللغة الوحيدة لتمثيل المعاني الدقيقة، والمشاعر النبيلة، التي لا يمكن أن تصورها الألفاظ، أو تجلوها العبارات.

والذي يُعَظِّم علم وطنه يعلم أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها ماديًا، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معاني المجد والسمو التي يعتز بها وطنه، وأنها تصوِّر أدق المشاعر في وطنيته، فهو يُحَيِّي هذا العَلَم ويعظِّمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعاني التي تجمَّعت جميعًا وتمثَّلت فيه، والكعبة المشرفة علم الله المركوز في أرضه، ليمثل به للناس أوضح معاني أخوتهم، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم. وإنما كانت بناءً ليكونوا كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا. ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء ونقطة التميُّز في هذا البناء، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء، على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء: اللهم إيمانًا بك، لا بالحجر، وتصديقًا بكتابك، لا بالخرافة، ووفاءً بعهدك، وهو التوحيد الخالص، لا الشرك، واتباعًا لسنة نبيك ﷺ محطم الأصنام.

فأين هذه المعاني الرمزية العلوية، من تلك المظاهر الوثنية الخرافية؟»[1].

---

(١) مجلة الشهاب، العدد (٣) صـ ٥١، مقال للإمام الشهيد حسن البنا، وقد نشر في رسالة (السلام في الإسلام) صـ ١٩، ٢٠، نشر المطبعة العالمية، القاهرة.

QaradawiBooks.com

إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد، رَكَز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معاني الإنسانية العالمية، والأخوة بين البشر جميعًا، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

من أسرار المناسك:

وإذا فهمنا هذه اللغة الرمزية ـ وهي لغة تتميَّز بعالميتها وسَعَتها ـ سهل علينا أن نفهم كثيرًا من أسرار مناسك الحجِّ وأعماله.

«فما الإحرام في حقيقته ـ وهو أول المناسك ـ إلا التجرُّد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كلِّ ما سوى الله، وعلى التفكير في جلاله.

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرُّد، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرُّد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذي تُرى نعمه، ولا تُدرك ذاته.

وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردُّد بين علمي الرحمة التماسًا للمغفرة والرضوان.

وما الوقوف بعد السعي إلا بذل المُهَج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين.

وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربِّها، إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشرِّ، ونزعات النفس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

QaradawiBooks.com

وما الذبح ـ وهو الخاتمة في درج الترقِّي إلى مكانة الطهر والصفاء ـ إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتدَّ ساعدها في بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار»[1].

آثار الحج في النفس والحياة:

ولقد أكدنا في فصول هذا الكتاب أن المقصد الأول من العبادات هو الامتثال لله، والوفاء بحقِّه تعالى، ومع هذا لا ننكر أن وراء العبادات آثارًا طيبة ومنافع جمَّة، في حياة الفرد والجماعة.

والحج هو أكثر العبادات الإسلامية اشتمالًا على الأمور التعبدية ـ التي لا تُعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد ـ ولكن لعله أيضًا أوضح هذه العبادات أثرًا في حياة المسلمين أفرادًا وشعوبًا. وكيف لا، وقد قال الله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]؟

إن هذا التعليل القرآني لهذه الرحلة المباركة، التي يقطعها الناس ركبانًا ومشاة قادمين من كلِّ فج عميق، يفتح لنا بابًا رحبًا للتأمُّل في هذه المنافع المشهودة التي قدَّمها القرآن في الآية على ذكر اسم الله:

١ ـ الحج شحنة روحية وعاطفية:

فالحج شحنة روحية كبيرة، يتزود بها المسلم، فتملأ جوانحه خشية وتقى لله، وعزمًا على طاعته، وندمًا على معصيته، وتغذي فيه عاطفة الحب لله، ولرسول الله ﷺ، ولمن عَزَّرُوه ونصروه واتبعوا النور الذي

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت صـ ١٢٠، ١٢١.

QaradawiBooks.com

أُنزل معه، وتُوقظ فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كلِّ مكان، وتوقد في صدره شعلة الحماسة لدينه، والغيرة على حرماته.

إن الأرض المقدسة وما لها من ذكريات، وشعائر الحجِّ وما لها من أثر في النفس، وقوة الجماعة وما لها من إيحاء في الفكر والسلوك، كلُّ هذا يترك أثره واضحًا في أعماق المسلم، فيعود من رحلته أصفى قلبًا، وأطهر مسلكًا، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عودًا أمام مغريات الشرِّ. وكلما كان حجه مبرورًا خالصًا لله، كان أثره في حياته المستقبلة يقينًا لا ريب فيه، فإن هذه الشحنة الروحية العاطفية تهزُّ كيانه المعنوي هزًّا، بل تنشئه خلقًا آخر، وتعيده كأنما هو مولود جديد يستقبل الحياة وكله طهر ونقاء. ومن هنا قال الرسول ﷺ: «**مَن حجَّ فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(١).

٢ ـ الحج ثقافة وتدريب:

والحجُّ فيه توسيع لأفق المسلم الثقافي، ووصلٌ له بالعالم الكبير من حوله، وقد قالوا: السفر نصف العلم. وفي الأمثال السائرة أن حكيمًا قال: مَن يعش يرَ كثيرًا، فقال آخر: لكن مَن يسافر يرَ أكثر.

وفي هذا السفر للحج تدريب على ركوب المشقَّات، ومفارقة الأهل والوطن، والتضحية بالراحة والدعة في الحياة الرتيبة بين الآل والصحاب، ولم تشأ حكمة الله أن تجعل هذه الرحلة إلى بلد مثل: سويسرا، أو لبنان، أو غيرهما من البلاد الجميلة التي يتخذها الناس مصيفًا أو مشتى، ولكن شاء الله أن يكون الحج إلى واد غير ذي زرع لا يصلح مصطافًا ولا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

متربعًا، وذلك تربيةً للمسلم على احتمال الشدائد، والصبر على المكاره، ومواجهة الحياة كما فطرها الله بأزهارها وأشـواكها، بشـهدها وصابها، بحَرِّها وقَرِّها؛ فهو يلتقي مع الصوم في إعداد المسلم للجهاد.

وحياة الحاج أشبه بحياة الكشّاف في بساطتها وخشونتها، حياة تَنَقُّلٍ وارتحال، واعتماد علـى النفس، وبُعْدٍ عن التـرف والتكلُّف والتعقيد، الذي يناسب حياة الخيام في مِنَى وعرفات.

وقد تجلَّت هذه الحكمة حين جعل الله الحج دائرًا مع السنة القمرية، فأشهر الحج المعلومات تبدأ بشهر شـوَّال، وتنتهي بذي الحجة، وهي أشـهر ـ كما نعلم ـ تأتي أحيانًا فـي وقدة الصيف وأحيانًـا في زمهرير الشـتاء، ليكون المسلم على اسـتعداد لتحمُّل كل الأجواء، والاصطبار على كل ألوان الصعوبات.

٣ ـ المنافع التجارية:

والحج من الجانب المادي فرصة متاحة لتبادل المنافع التجارية على نطاق واسع بين المسلمين.

وقد كان بعض المسلمين في زمن الرسول ﷺ، يتحاشون التجارة في أيام الحج ويتحرَّجون من كلِّ عمل دنيوي يجلب لهم ربحًا أو يدرُّ عليهم رزقًا، خشية أن ينال ذلك من عبادتهم، أو يحطَّ من مثوبتهم عند الله ﷻ، فأجاز الله الكريم لهم ذلك، ما دامت النيـة خالصة، والمقصود الأصلي هو الحج، ولكل امرئ ما نوى.

روى البخاري، عن ابن عباس قال: كانت عُكَاظ ومَجَنَّة وذو المَجاز أسـواقًا في الجاهلية، فتأثَّموا ـ أي تحرجوا ـ أن يتجروا في الموسم ـ

QaradawiBooks.com

فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٨][1].

قال في «تفسير المنار»: «كان بعض المشركين وبعض المسلمين يتأثَّمون في أيام الحجِّ من كلِّ عمل حتى كانوا يقفلون حوانيتهم، فعلَّمهم الله تعالى أن الكسب طلب فضل من الله لا جناح فيه مع الإخلاص، وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة. ويُروى أن عمر قال في هذا المقام: وهل كنا نعيش إلا بالتجارة؟»[2].

٤ ـ المساواة والوحدة والسلام:

والحج تدريب عملي للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، فقد أراد الإسلام ألا تكون مبادئه وقيمه الاجتماعية مجرَّد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعباداته وشعائره ربطًا وثيقًا، حتى تخطَّ مجراها في عقل المسلم وقلبه فَهمًا وشعورًا، ثم تخطُّ مجراها في حياته سلوكًا وتطبيقًا.

وقد رأينا في صلاة الجماعة كيف تنمَّى معاني الأخوة والمساواة والحرية، وهنا في الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها، فالجميع قد اطَّرَحُوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار، واختلاف الطبقات، واختلاف القدرات، واختلاف الأذواق، ولبسوا جميعًا ذلك اللباس البسيط ـ الذي هو أشبه ما يكون بأكفان

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥٠)، عن ابن عباس.
(٢) تفسير المنار (١٨٥/٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الموتى ـ يلبسه الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير، وإنهم ليطوفون بالبيت جميعًا فلا تُفرّق بين من يملك القناطير المقنطرة، ومَن لا يملك قوت يومه، ويقفون في عرفات ألوفًا ألوفًا، فلا تحسُّ بفقر فقير، ولا غنى غني، ولا تحسُّ حين تراهم في ثيابهم البيض، وفي موقفهم المزدحم العظيم إلا أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر، يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

ولقد كانت قريش في الجاهلية ترى لنفسها فضلًا على سائر العرب، فتترفع عن الوقوف معهم في عرفات وتقف في مزدلفة، فأبطل الإسلام هذه العادة، وقال تعالى بعد أن ذكر بعض أعمال الحج: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، كأنه يقول: «بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج، وليس فيها امتياز أحد على أحد، ولا قبيل على قبيل، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة بقي شيء آخر، وهو أن تلك العبادة المميزة لا وجه لها، فعليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد»(١).

ولما كانوا في الجاهلية يتَّخذون من موسم الحجِّ مجالًا للتفاخر بالأنساب والآباء، وقف النبي ﷺ، يخطبهم في أواسط أيام التشريق ويعلنهم بمبدأ الإسلام العالمي: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبَلَّغْتُ؟**». قالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) تفسير المنار (١٨٧/٢، ١٨٨).

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عمن سمع خطبة النبي ﷺ.

QaradawiBooks.com

وفي الحج نرى معنى الوحدة جليًّا كالشمس:

وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القـــول. لا إقليمية ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، إنما هم جميعًا مسلمون، بربٍّ واحد يؤمنون، وببيت واحد يطوفون، ولكتاب واحد يقرؤون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون. فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غورًا؟

ومن المبادئ التي سبق الإسلام بالدعوة إليها: السلام.

والحج طريقة فذة لتدريب المســلم على الســلام، وإشــرابه روح السلام؛ فهو رحلة سلام إلى أرض سلام، في زمن سلام.

أرض الحج هي البلد الحــرام والبيت الحرام الــذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، والذي قال فيه ابن عمر: لو وجدت فيه ـ يعني حرم مكة ـ قاتِلَ عمر ما ندهته[١]. أي ما زجرته.

إنها منطقة أمان فريد في نوعه، شــمل الطير في الجو، والصيد في البر، والنبات في الأرض، فهذه المنطقة لا يُصاد صيدها ولا يُروَّع طيرها ولا حيوانها، ولا يُقطع شجرها ولا حشائشها!

ومعظم أعمال الحج تقع في شهرين ـ ذي القعدة وذي الحجة ـ من الأشــهر الحرم، التي جعلها الله هدنة إجبارية تُغمَــد فيها، وتُحقَن فيها، ويوقف القتال، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

---

(١) ذكره ابن حزم في المحلى (٢٦٢/٧) مسألة رقم (٨٩٨).

QaradawiBooks.com

والمسلم حين يحرم بالحجِّ يظلُّ فترةَ إحرامه في سلام حقيقي، مع مَن حوله وما حوله، فلا يجوز له أن يقطع نباتًا أو يعضِّد شجرة، كما لا يجوز له أن يذبح حيوانًا صاده غيره له، أو يرمي هو صيدًا في الحرم، أو خارجه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا﴾ [المائدة: ٩٦].

بل لا يجوز للمحرم أن يحلق شعر نفسه، أو يقصَّ ظفره، حتى يتحلَّل من إحرامه، فيقص ويحلق أو يقصِّر.

فهل رأت الدنيا تطبيقًا عمليًّا للسلام وتدريبًا عليه كهذا الذي صنعه الإسلام في رحلة الحج: رحلة السلام إلى أرض السلام، في زمن السلام؟!

٥ ـ الحج مؤتمر عالمي:

والحجُّ يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي إسلامي، مؤتمر لم يدعُ إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة، بل دعا إليه الله العلي الكبير الذي فرض إقامته كلَّ عام على المسلمين.

فهناك يجد المسلم إخوانًا له من قارات الدنيا الخمس، اختلفت أقاليمهم، واختلفت ألوانهم، واختلفت لغاتهم، وجمعتهم رابطة الإيمان والإسلام، ينشدون نشيدًا واحدًا: «لبيك اللهم لبيك».

إن هذا المؤتمر له أكثر من معنى، وأكثر من إيحاء، إنه يحيي في المسلم الأمل، ويطرد عوامل اليأس، ويبعث الهمة، ويشحذ العزم. إن التجمع يوحي دائمًا بالقوة، ويوقظ الآمال الغافية. والذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة.

QaradawiBooks.com

إن هذا المؤتمر أعظم مُذَكِّر للمسلم بحقِّ أخيه المسلم، وإن تباعدت الديار، وأعظم مذكِّر بأخوة الإسلام، ورابطة الإيمان. هذا المؤتمر هو «الفرن العالي» الذي تذوب في حرارته النزعات القومية والوطنية، وتختفي فيه كل الشعارات والجنسيات، إلا شعارًا واحدًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

في هذا المؤتمر يلتقي رجال العلم، ورجال الإصلاح، ورجال السياسة، فما أجدرهم - وقد التقوا على هدف واحد - أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط، وأحسن الوسائل، ليبلغوا الأهداف ويحقِّقوا الآمال.

ولقد نبَّهنا الرسول الكريم إلى قيمة هذا المؤتمر حين اتخذ منه منبرًا لإذاعة أهم القرارات والبلاغات التي تتَّصل بالسياسة العامة للمسلمين؛ ففي أول سنة حجَّ فيها المسلمون تحت إمارة أبي بكر، بعث النبي ﷺ، وراءه عليًّا ليعلن على الناس إلغاء المعاهدات التي كانت بينه وبين المشركين الناكثين، وألا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[1].

وفي السنة التالية التي حَجَّ فيها الرسول ﷺ، بنفسه أعلن فيها على الجمهور خطبة «البلاغ» أو «الوداع» التي لخَّص فيها أهم مبادئ الإسلام ودستور الإسلام.

ولقد عرف علماء الإسلام قيمة هذا المؤتمر، فاتخذوا منه فرصة لتبادل الآراء، وتعارف الأفكار، ورواية الأحاديث والأخبار.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

كما عرف الخلفاء قيمة هذا الموسم العالمي، فجعلوا منه ساحة لقاء بينهم وبين أبناء الشعب القادمين من كلِّ فج عميق، وبينهم وبين ولاتهم في الأقاليم، فمَن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية فليتقدَّم بها إلى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب. وهناك يواجه الشعب الوالي أمام الخليفة بلا تهيب ولا تحفُّظ، فيغاث الملهوف، وينصف المظلوم، ويردُّ الحقُّ إلى أهله، ولو كان هذا الحق عند الوالي أو الخليفة!

كتب عثمان بن عفان أمير المؤمنين وخليفتهم إلى جميع الأمصار الإسلامية كتابًا قال فيه: إني آخذ عمالي ـ أي ولاتي ـ بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولا لعمالي حق قِبَلَ الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقوامًا يُشتمون ويُضربون، فمَن ادعى شيئًا من ذلك فليوافِ الموسم، يأخذ حقَّه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا، إن الله يجزي المتصدقين[1].

ومما ينبغي أن نذكره هنا أن هذا المؤتمر لم يكن فرصة للمسلمين وحدهم للتظلُّم من ولاتهم وطلب حقوقهم، بل وجد فيه غير المسلمين ـ ممن يعيشون في ظل دولة الإسلام ـ هذا المعنى وتلك الفرصة. وكلنا يعلم قصة ابن القبطي الذي سابق ابن والي مصر وفاتحها عمرو بن العاص فسبق القبطي، فضربه ابن عمرو، فأنهى مظلمته إلى عمر، فاقتصَّه

(١) رواه الأسدي في الفتنة ووقعة الجمل (٥٠/١)، نشر دار النفائس، ط ٧، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، والطبري في تاريخه (٣٤٢/٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠٦/٣٩).

QaradawiBooks.com

منه في موسم الحج على مرأى ومسمع من ألوف الحجيج، ثم قال للوالي عمرو كلمته المشهورة أمام شهود المؤتمر الكبير: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[1]؟!

فلا عجب أن كانت هذه العبادة ـ «الحج» ـ قذًى في أعين الكثيرين من خصوم الإسلام فيشهرون أقلامهم لتشويهه أو الطعن فيه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

منذ سنوات كتب أحد المبشرين النصارى في تقرير له عن مدى جدوى التبشير في بلادنا الإسلامية، وخاصة في مصر، فكان مما قال فيه: «سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحي ما دام للإسلام هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي».

وإن هذه الأربعة لباقية بإذن الله ما بقي هذا الإنسان على تلك الكُرَة، وليمت مَن يشاء بغيظه!

على أن المسلمين ـ للأسف ـ لا يستفيدون من هذا المؤتمر العظيم كما ينبغي، ولعلهم قد بدؤوا يفيقون.

من شهادات المنصفين:

وفي الأجانب من شهد بفضل هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة، وأشاد بما لها من مآثر وآثار في النفس والحياة؛ من هؤلاء: الأستاذة الإيطالية الدكتورة «فاغليري» في كتابها الذي ترجم بعنوان: «دفاع عن الإسلام»،

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم صـ ١٩٥، نشر مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ، وحسن المحاضرة للسيوطي (٥٧٨/١)، نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

قالت فيه عن الحج: «على كل مسلم، إذا توافرت فيه بعض الشروط أن يقوم بالحج إلى مكة مرة واحدة في حياته على الأقل.

ومن طبيعة القوى العميقة المكنونة في هذه الشعيرة أن يعجز العقل البشري عن اعتناقها إلا في القليل النادر، ومع ذلك فإن ما يمكن استيعابه من تلك القوى، في سهولة ويسر، يتكشف عن حكمة كاملة، فليس في استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التي يجنيها الإسلام من اجتماع المسلمين السنوي في مكان واحد يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم. إن العرب، والفرس، والأفغان، والهنود، وأبناء شبه جزيرة الملايو، وأبناء المغرب، والسودان، وغيرهم، كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم؛ وهم إذ يلتقون في مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض إنما يُنشئون صلات جديدة من المحبَّة والأخوة.

مرة واحدة في حياة المسلم على الأقل تلغي الفروق كافة بين الفقير والغني، بين الشحاذ والأمير، إلغاءً تامًّا. ذلك أن كلَّ حاج مسلم يلبس ـ خلال أداء تلك الفريضة المقدسة ـ الثياب البسيطة نفسها، ويخلف وراءه حُلله الشخصية، ويتَّخذ لنفسه شعارًا واحدًا ليس غير، هو كلمة «الله أكبر»! والشعائر التي يتعين على الحجاج أداؤها، من مثل الطواف ببيت الله «الكعبة» توقظ في نفسه ذكرى الأنبياء والآباء العظام، الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة. إنها تعيد إلى الحياة أعمال إبراهيم، مؤسِّس الدين الخالص، وأعمال ابنه إسماعيل وزوجته هاجر، وهي توقظ في الحاج النزعة إلى تقليدهم في تعاطفهم وفي خضوعهم لمشيئة الله»[1].

(١) دفاع عن الإسلام للورا فيشيا فاغليري صـ ٧٠، ٧١، ترجمة منير البعلبكي، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المنهج الأمثل في تعليم العبادات

- تمهيد.
- فقه العبادة لا علم العبادة.
- الرجوع إلى عهد البساطة.
- التيسير لا التزمت والوسوسة.
- الرجوع إلى الكتاب والسنة لا التعصب لمذهب.
- العناية بالفرائض أولًا.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

تمهيـــد

إذا كانت عبادة الله هي أول الحقــوق علينا لله، كان تعلُّمها وتعليمها أول الواجبات علينا أيضًا.

وأولى العبادات بالمعرفة والفقه هي العبادات الشـعائرية التي حدَّد الشرع صورها وأوصافها وكيفيَّاتها، فلا يقبلها إلا إذا أُديت كما شرعها، وهي: الصـلاة، والصيام، والـزكاة، والحج. التي تحدثنا عن أسـرارها وآثارها في الحياة.

وهــذه الشــعائر الأربع هــي التي جعلها الرسـول الأعظـم ـ بعد الشهادتين ـ أركان الإسلام ومبانيه العظام.

وهي التي خصَّها الفقهاء باسم: «العبادات». في مقابلة ما أطلقوا عليه ـ في تقسيمهم الفقهي ـ اسـم: «المعاملات»؛ لأن الشارع ـ في الأولى ـ هو المنشئ والموجد لها، فقبل الشـرع لا عبادة. أما الثانية فالشرع فيها مصلح ومهذِّب؛ لأن الناس لا تخلو حياتهـم من التعامل والتبادل، فإذا جاء الشــرع أقرَّ الصالح من معاملاتهم، ونفى الفاسـد منها. ولهذا قرَّر المحققون من أئمة الإسلام: أن الأصل في العبادات الحظر إلا ما جاء به الشرع، أما العادات والمعاملات فالأصل فيها الإباحة، إلا ما منعه الشرع.

QaradawiBooks.com

هذه العبادات هي التي نتحدَّث هنا عن المنهج الأمثل الواجب اتباعه في تعليمها، وهو منهج مستمد من طبيعة ديننا، وروح شريعتنا.

فلقد مرَّت هذه العبادات من الناحية التعليمية بأطوار ومراحل، حتى بلغت من التفريع والتعقيد والتشديد مبلغًا لم يعد يتسع لمعرفته وقت الرجل العادي في عصرنا، ولو اتسع له وقته لم يتسع له فكره وقلبه.

وليس معنى هذا أننا نريد أن «نطوِّر» العبادات حتى تهضمها معدة عصرنا المترفة، وتلائم روحه الجديدة. كلا، فالعبادات لا تقبل التطور، ولا تتغير بتغير الزمن، ولا تخضع لاجتهاد أو قياس أو إجماع، ولا تلين في يد الزمن لين العجينة في يد الخبَّاز؛ حتى يشكِّلها حسبما يريد.

العبادات ثابتة ثبات الخلود، وكلُّ ما نريد تغييره هو منهج تعليمها، وكلُّ ما نريده أن نعود بهذا المنهج إلى ما كان عليه الحال في عهد رسول الله ﷺ، وأصحابه الراشدين الطاهرين.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

فقه العبادة لا علم العبادة

ولكي نسير على هدى، يجب علينا أن نعرف هدفنا، إن هدفنا من هذا التعليم والتفقيه أن نحبِّب ربَّ الناس إلى النـاس، حتى يعبدوه عبادة حبٍّ وشكر وإقبال، لا عبادة مراسم وقوالب وأشكال. أن نوجههم إلى روح العبادة لا صورة العبادة فحسب. وبعبارة أخرى: أن يكون همنا «فقه» العبادة لا «علم» العبادة. والفقه معنًى فوق العلم، والتفقيه أخص من التعليم؛ العلم يتعلق بالعقول والرؤوس، والفقه يتجاوز ذلك إلى القلوب والنفوس. والرسول ﷺ إنما ناط الخير بالفقه في الدين لا بمجرَّد العلم الظاهري الجاف به، قال: «**مَن يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين**»(١).

غير أن مفهوم «الفقه» هذ أصابه من التغيير ما جعل مُؤدَّاه مجرَّد العلم الجاف بتقصي التعريفات الظاهرة، والأحكام الخلافية، وكثير من الفروض والمسائل الدقيقة التي تعدُّ من الأغاليط أو من التنطُّع. وقد ذكر الإمام الغزالي ما بُدِّلَ من الألفاظ الإسلامية، وما حُرِّفَ من الأسامي المحمودة، ونُقِلَ بالأغراض الفاسدة إلى معانٍ غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول؛ وهي خمسة ألفاظ: أولها: الفقه. «فقد تصرَّفوا فيه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية.

QaradawiBooks.com

بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذ خصَّصوه بمعرفة الفروع الغريبة، والوقوف على دقائق عِلَلِها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلِّقة بها، فمَن كان أشد تعمقًا فيها، وأكثر اشتغالًا بها؛ يقال هو الأفقه. ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. يدلك عليه قوله عز وجل: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسَّلَم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرُّد له على الدوام يقسِّي القلب، وينزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وأراد به معاني الإيمان.

ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يُتَكَلَّم في عادة الاستعمال قديمًا وحديثًا، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]، فأحال قلة خوفهم من الله، واستعظامهم سطوة الخلق على قلَّة الفقه، فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم. وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟**». قالوا: بلى. قال: «**من لم يُقنِّط عباد الله من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى ما سواه**»(١). وقد سأل فرقد

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥١٠)، وقال عقبه: لا يأتي هذا الحديث مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وأكثرهم يوقفونه عن علي.

QaradawiBooks.com

السبخي الحسنَ عن شيء، فأجابه فقال: إن الفقهاء يخالفونك! فقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثكلتك أمك يا فريقد، وهل رأيت فقيهًا بعينك؟! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربِّه، الورع، الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم[1]. قال الغزالي: ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى. ولستُ أقول: إن اسم الفقه لم يكن متناولًا للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر»[2] اهـ.

هذا ما ذكره الإمام الغزالي، وبهذا يتَّضح لنا أن الذي نريده بفقه العبادة إنما هو الفقه كما كان في العصر الأول، هو الفقه الذي يرقِّق القلوب، ويطهِّر النفوس، ويذكِّر بالآخرة، ويضيء الطريق إلى الله.

فقه الصلاة مثلًا: هو إدراك سرِّها، والنفوذ إلى لُبِّها وروحها، وعلم الصلاة هو المعرفة الجافة بشرائطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها.

فقه الصلاة يتمثَّل في مثل ما روي عن حاتم الأصم، وقد سئل: كيف تقيم صلاتك؟ فقال: أتوضَّأ فأسبغ الوضوء، ثم آتي موضع الصلاة بسكينة ووقار، فأكبِّر تكبيرًا بتوقير، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعًا بتخشُّع، وأسجد سجودًا بتذلُّل، وأتمثَّل الجنة عن يميني، والنار عن شمالي، والصراط تحت قدميَّ، والكعبة بين حاجبي، وملك الموت على رأسي، وذنوبي محيطة بي، وعين الله ناظرة إليَّ، وأعتبرها آخر صلاة

(١) قوت القلوب (٢٦٣/١)، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ورواه ابن أبي شيبة (٣٦٣٣٦)، وفيه السائل: عمران القصير.

(٢) إحياء علوم الدين (٣٢/١، ٣٣).

QaradawiBooks.com

لي، وأُتبعها الإخلاص ما استطعتُ. ثم أسلم وأنا لا أدري: أيقبلها الله مني أم يردها عليَّ[1]؟!

وسبيلنا إلى ذلك ألا نعرض العبادات جافَّة جامدة كأنها نظريات الهندسة أو قوانين الكيمياء. وإنما نعرضها شفَّافة مشرقة، موصولة بكلمات الله ورسوله ﷺ، وسير الصالحين من المؤمنين، وأن نبيِّن ما اشتملت عليه من حِكَم وأسرار بقدر طاقتنا، من غير أن نغلو في تكلُّف الحِكَم، وتطلُّب الأسرار، ومن غير أن ننسى المقصد الأول من العبادات كلِّها وهو التذكير بحقِّ الربوبية على العبودية.

ولهذا نرى أن أخذ العبادات من كتب فقه الحديث أولى وأعون على هذه الغاية من كتب الفقه المذهبي الجافة، وبخاصة تلك التي تهتم بكثرة الصور والفروع، ولا تهتمُّ بالأدلَّة من الكتاب والسنة؛ فهذا الفقه الجاف لا يرطِّب قلبًا، ولا يغذي رُوحًا، ولا يثمر خشية.

* * *

(١) إحياء علوم الدين (١٥١/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الرجوع إلى عهد البساطة

وعلينا ثانيًا أن نعود بتعليم العبادات إلى عهد بساطتها الأولى، عهد الرسول ﷺ، وأصحابه، وأن نَدَع جانبًا هذا التطويل والتفريع والتعقيد الذي انتفخت به بطون كتبنا الفقهية، ما بين أركان وشروط، وفروض وواجبات، وسنن ومستحبات، ومبطلات ومكروهات، وتفريعات تلد تفريعات، حتى إن الحديث عن الطهارة ـ وهي إحدى مقدمات الصلاة ـ ليبلغ مئات الصفحات!

والعجب منا ـ أعني الوعاظ والمرشدين الدينيين ـ أننا نريد أن نعلِّم عامة المسلمين العبادات بهذه الصورة، التي تحتاج إلى تفرُّغ وتخصُّص، والتي لم يوجبها الله ولا رسوله. قد يجوز للعالِم المتخصِّص أن يدرس العبادات على هذا النحو، على أن يكون ذلك لنفسه، أما أن يُعلِّم ذلك لسائر الناس فهذا خطأ مبين.

إن الله تعالى يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فماذا كان يصنع الرسول ﷺ، في تعليم شعائر الدين وعباداته؟

لقد كان الرجل يجيء إليه من البادية ـ بعد أن يشرح الله صدره للإسلام ـ يريد أن يتعلَّم منه الدين، فيسأله بضعة أسئلة، ويتلقى منه أجوبتها بكلِّ بساطة ووضوح، ويحضر معه بعض الصلوات، فيأخذ

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عنه صورتها بالرؤية والقدوة لا بالاستظهار والتلقين. وهكذا علَّمهم عليه الصلاة والسلام: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[١]، ففي جلسة أو جلسات يعود الرجل إلى بيئته وقد عرف ما يجب على مثله، وما يَفْتح له باب الجنة إن عمل بمقتضاه.

ذلك هو تعليم العبادة في عهد الرسول ﷺ، وصحابته، لم يكونوا يحللون النصوص، ويُشَرِّحون الألفاظ، ويلتسمون التخريجات والتأويلات. إذا قال الله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، لم يخصِّصوا درسًا في تعريف ماهية الغسل، والفرق بينه وبين المسح، ولا في تحديد مساحة الوجه، وأنه ما بين منبت الشعر إلى أسفل الذقن طولًا، وما بين شحمتي الأذنين عرضًا، إلخ. أجل، لا يفعلون ذلك؛ لأن كل أحد يعرف ما هو الغسل، وما هو الوجه. كل إيضاح أو شرح في مثل هذه المعاني هو أول باب التعقيد.

«الله أكبر»، هل يجهل مسلم هذه الكلمة التي جعلها الإسلام فاتحة الأذان والإقامة والصلاة؟ ولكن كتب الفقه حين تتحدَّث عن «تكبيرة الإحرام»، وهي التكبيرة الأولى التي يدخل بها المسلم في الصلاة. تحيطها بمجموعة من الشروط الكثيرة، حتى ليخيل إليك أن نطق هذا اللفظ ـ الذي هو على لسان كلِّ مسلم ـ من العسر بمكان. وتالله، إن العسر ليس في كلمة التكبير، ولا في ألسنة مَن يتعلمون، ولكنه في روح مَن يُعلِّمون.

إنهم يُعلِّمون الناس من كتب وُضِعَتْ للمتخصصين المتفرغين لطلب العلم، لا لعامة الناس المزحومين بمشاغل الحياة ومطالبها. وبعض هذه

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٨)، عن مالك بن الحويرث.

QaradawiBooks.com

الكتب لا تخلو من تعقيد وتكلُّف، وبعضها لا يخلو من إضافات وابتداعات لم يأذن بها الله.

لقد كنتُ أدعو بعض المسلمين أو المسلمات في الريف إلى الصلاة فيعتذرون - ببراءة - أنهم لا يعرفون الصلاة، ولا شروطها، وما يجب لها. كأن هذه الصلاة شيء يحتاج إلى طول تعلُّم ومعاناة. والقوم في الحقيقة معذورون؛ فالذي يدرِّس لهم الوضوء يدرِّسه لهم في عدة أيام أو ليال ولا يكاد يفرغ منه: يعلمهم أن يقولوا في بدء الوضوء مثلًا: الحمد لله الذي جعل الماء طهورًا والإسلام نورًا. وأن يقولوا عند الاستنشاق: اللهم أرحني رائحة الجنة وأنت عني راض. وعند غسل الوجه كذا، وعند غسل كل عضو أو مسحه دعاءً خاصًّا يحفظه عن ظهر قلب. والعامي المسكين يصعب عليه حفظ هذه الأدعية - التي لم يرِد بها كتاب ولا سنة - ويظن أن الوضوء بغيرها لا يصحُّ، فيستثقل الوضوء، ويهرب من تبعات الصلاة، من جراء هذا التعقيد المبتدع المصنوع.

كيف يمكن أن نعلِّم الناس الصلاة من كتاب مثل: «الإقناع في حلِّ ألفاظ أبي شجاع» في فقه الشافعية، والذي يُدَرِّس على طريقته بعض الشيوخ في المساجد، وكيف تتسع صدور الناس وأوقاتهم ليعرفوا أن للصلاة - كما قال الكتاب - ثمانية عشر ركنًا، ثم نحدثهم عن ركن كالنية «واستحضارها» في زمن استغرق من الكتاب عدة صفحات مليئة مزدحمة، كأن النية أمر يحتاج إلى شرح، وكأن استحضارها أمر عسير! ثم نحدِّثهم عن تكبيرة الإحرام بأن لها خمسة عشر شرطًا إن اختلَّ واحد منها لم تنعقد الصلاة؟!

QaradawiBooks.com

وجمهـرة كتب الفقه على هــذا النمط إلا قليــلًا، ومعظم هـذا القليل مهجور.

أليس أفضل من هذا وأجدر بالقبول تعليم رســول الله ﷺ، الســهل البسيط الذي لا تقعُّر فيه ولا إعنات؟!

وحســبنا أن نســتمع في صفة الصلاة وكيفيتها إلــى ما روى أحمد والبخاري ومســلم، عن أبي هريرة قال: دخل رجل المسجد فصلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فسلم فردَّ عليه السلام، وقال: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**». فرجع ففعل ذلك ثلاث مرات. قــال فقال: والذي بعثك بالحق، ما أُحســن غير هذا، فعلمني! قال: «**إذا قمتَ إلــى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسَّــر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًــا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»(١). وهذا هو الحديث الذي يعرف باسم حديث المسيء في صلاته.

ولقد كان النبي ﷺ، وأصحابه أميل الناس إلى البســاطة واليســر، وأبعدهم عن التكلُّف والتعمُّق والتنطُّع، وقد قال تعالى يخاطب رسوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وقال أنس بــن مالك: كنا عند عمر رضي الله عنه، فســمعته يقول: نُهِينا عــن التكلُّف(٢).

ولقد غاب عــن عمر معنى «الأبِّ» في قولــه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، وأراد أن يسأل عن المدلول الدقيق لهذه اللفظة، ثم خشي أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة (٣٩٧)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٩٣).

QaradawiBooks.com

يكون هذا من التكلُّف المنهي عنه، وقال: مـــاذا على عمر إذا لم يعرف ما الأبُّ(١)؟

وقال ابن مســعود: مَن كان فيكم مستنًّا فليســتن بمَن قد مات، فإن الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة: أبرهــا قلوبًا، وأعمقها علمًــا، وأقلها تكلفًــا، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهــم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم(٢).

ولقد نبَّه الإمام الشاطبي(٣) على هذه الحقيقة الهامة، وهي: أن تعليم الشــريعة، وبيان أمور الدين، يجب أن يكون بما يليق بجمهور الناس، دون اللجوء إلى التعمُّقات الفلسفية العويصة. فإذا قيل: ما الملَك؟ قيل: خلق من خلــق الله يتصرف بأمــره. أو معنى الكوكب قيــل: هذا الذي نشاهده بالليل. «وعلى هذا وقع البيان في الشريعة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٤). ففسَّره بلازمه الظاهر لكلِّ أحد. وقد بيَّن عليه الصلاة والسلام الحج بفعله وقوله على ما يليق بالجمهور، وكذلك ســائر الأمور، وهي عادة العرب، والشريعة عربية. ولأن الأمة أمية ـ أي أمة فطرية ـ فلا يليق بها من البيان إلا الأميُّ، أي السهل.

وأما التعمُّق الذي لا يليق بالجمهور فلم يعتبره الشرع؛ لأن مسالكه صعبة المرام: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، كما إذا طُلب

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٢٩/٢٤)، وصححه ابن كثير في تفسيره (٣٢٥/٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٥/١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٧/٢).

(٣) الموافقات (٥٦/١)، المقدمة السادسة.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (١٤٧)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

معنى الملك. فأحيل على معنى أغمض منه: «ماهية مجردة عن المادة أصلًا». أو يقال: ما الكوكب؟ فيجاب بأنه «جسم بسيط كُرِّي، مكانه الطبيعي نفس الفلك ...» إلخ. وما أشبه ذلك من الأمور التي لا تعرفها العرب، ولا يوصل إليها إلا بعد قطع أزمنة في طلب تلك المعاني. ومعلوم أن الشارع لم يقصد إلى هذا ولا كلَّف به.

ومثل هذا يقال في الاستدلال، فالذي يليق منه بالجمهور ما كانت مقدمات الدليل فيه ضرورية أو قريبة من الضرورية، وهو الذي نبَّه القرآن على أمثاله، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال الشاطبي: «وعلى هذا النحو مضى السلف الصالح في بثِّ الشريعة للمؤالف والمخالف. ومَن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية، علم أنهم قصدوا أيْسَر الطرق وأقربها إلى عقول الطالبين، لكن من غير ترتيب متكلَّف ولا نظم مؤلَّف، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه إذا كان قريب المأخذ، سهل الملتمس»(١).

وإذا صدق هذا في أمور الشريعة كلِّها، فإن العبادات ـ بوجه خاص ـ أولى شيء بهذا التبسيط، وتجنُّب التكلُّف والتعقيد. إن كلَّ تعقيد في تعليم العبادات لا ينفر منها، ويصيبها بالجفاف والعقم فحسب، بل هو ضرر مؤكَّد على تعليم شرائع الإسلام وآدابه الأخرى، وفقًا للمبدأ المعروف: «كلُّ إسراف لا بد أن يكون بجانبه حق مُضيَّع».

---

(١) الموافقات (٥٨/١، ٥٩) بتصرف يسير.

QaradawiBooks.com

وإني لأذكر واقعة حدثت لي تبين هذا المعنى بجلاء: كان الشهر شهر رمضان، وكانت الليلة السابعة عشرة منه، أعني الليلة التي كانت صبيحتها غزوة بدر الكبرى، وقد دُعيت في إحدى القرى لألقي موعظة هناك في هذه الذكرى. وتقبَّل الجمهور كلمتي بقبول حسن، وعرفوا بعض ما كانوا يجهلون من تاريخ دينهم وسيرة نبيهم، ولكن رجلًا واحدًا هو الذي لم يعجبه هذا الموضوع كله، ذلك هو أحد عجائز الشيوخ الذين يعلِّمون الناس الدين في الريف، وهو الإمام لهذا المسجد الذي أخطب فيه. إن الرجل لم يكن يعرف هذا اللون من الأحاديث الدينية، إنه كغيره - ممَّن رأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني - يظل يُدرس للناس طيلة ليالي رمضان، آداب الاستنجاء، وفرائض الوضوء وسننه، ومستحباته، ونواقضه، وأعذاره، والمياه التي يجوز بها التطهير، والتي لا يجوز، إلى آخر ما نعرف في لغة الفقه، وينتهي الشهر الكريم، والمسكين لم يخرج بعد من دورة المياه!

قال الشيخ: حديثك عظيم يا أستاذ، ولكن أما كان الأنفع أن يتعلَّم الناس في هذه الليلة شيئًا من أمور دينهم؟

قلتُ له: وسيرة رسول الله وغزواته، أليست من أمور دينهم؟! لقد قال سعد بن أبي وقاص: كنا نروِّي أبناءنا مغازي رسول الله ﷺ، كما نُعلِّمهم السورة من القرآن[1]!

قال: أقصد أن يتعلموا كيفية الوضوء والغسل ويعرفوا شروط ذلك وواجباته وسننه، إلى غير ذلك مما لا تصحُّ الصلاة إلا به.

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١٥٩٠) بنحوه، من قول إسماعيل بن محمد بن سعد بلفظ: كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله...

QaradawiBooks.com

قلت: يا سيدي الشيخ، أنت تحفظ القرآن، فهل تستطيع أن تجيبني: في كم آية ذكر الله شؤون الوضوء والغسل وما بينهما من أمور الطهارة؟ وسكت الشيخ. فقلت: إنها آية واحدة جمعت ذلك كله[١]. قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ثم قلت: وفي كم سورة ذكر الله شأن الجهاد والقتال في سبيل الله؟

وسكت الشيخ. فقلت له: إن عندنا مجموعة من السور القرآنية توحي أسماؤها وحدها بموضوعها ـ وهو الجهاد ـ منها: «الأنفال» ـ أي غنائم الحرب ـ و«التوبة» ـ أي توبة المتخلفين عن الجهاد ـ و«الأحزاب»، و«القتال»، و«الفتح»، و«الحشر» ـ الجلاء ـ و«الصف»، و«الحديد»، و«العاديات» ـ الخيل التي تعدو في الحرب ـ و«النصر». وهذا غير السور الكثيرة التي ذُكرت فيها آيات شتى عن القتال والغزوات، كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، وغيرها. فكيف نهمل ما عني القرآن به هذه العناية الفائقة في هذه السور والآيات الغزيرة، ونعيش شهرًا أو أكثر ندور حول آية واحدة، كما يدور الثور في الساقية؟!

(١) هناك آية أخرى في سورة النساء، تناولت الموضوع أيضًا باختصار وإجمال ولم تفصله كآية المائدة، هذا كل ما في القرآن عن الطهارة.

QaradawiBooks.com

والحق أن القرآن يجب أن يكون ميزاننا في درجة الاهتمام بالشيء، وأن نعطي الأمر من العناية بقدر ما أعطاه القرآن، بلا وكس ولا شـطط: وهذا هو أعدل الموازين، ومَن أحسن من الله حكمًا؟

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

التيسير لا التزمت والوسوسة

وعلينا في تعليم العبادات أن نذكر هذه الكلمة النبوية المضيئة التي خاطب بها الرسول ﷺ، أصحابه حين ثاروا بأعرابي بال بالمسجد جهلًا منه وجفاء، فقال لهم: «**لا تقطعوا على الرجل بولته، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين**»[1]. وحين بعث أبا موسى ومعاذًا إلى اليمن أوصاهما هذه الوصية الجليلة: «**يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[2].

والتيسير أمر فوق التبسيط الذي ذكرناه. التبسيط إنما يكون في التعليم، والتيسير يتناول العمل والأداء.

إننا في عصر شغل الناس فيه بحياتهم الدنيا، وغلبت عليهم النزعة المادية البغيضة، وللشيطان في الناس سوق نافقة، وبضاعة رائجة، وعملاء مدربون.

وعلينا نحن معلمي الدين أن نشحذ أسلحتنا لجهاد الشيطان ومطاردته، وتنفير أتباعه من بضاعته، وإغرائهم ببضاعتنا، وجذبهم إلى

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.
(٢) سبق تخريجه صـ٢٤٤.

QaradawiBooks.com

سوقنا. ولن يكون ذلك أبدًا بالتعنُّت والتزمُّت، والإحراج والتشديد، والتعسير والتنفير. ولسنا نريد أن نبتكر لأبناء العصر دينًا سهلًا خالصًا سائغًا للشاربين. وإنما دين الله نفسه يسر لا عسر فيه، هو الذي قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا نفي عام لكلِّ حرج في الدين؛ فأي حرج حقيقي صادفناه فلنعلم أنه من صنع الناس لا من شرع الله.

إن هناك بعض المتدينين الطيبين مصابون بمرض نفسي اسمه: «الوسوسة»، فنراهم يشدِّدون على أنفسهم تشديدًا لم يشرعه الله في كتاب ولا سنة، ولم يرضَ به أحد من سلف هذه الأمة الصالحين الذين حملوا على الوسوسة وأصحابها، وقالوا: إنها خبل في العقل، ونقص في الدين.

وأي خبل في العقل، وأي نقص في الدين أجلى مما ذكره عنهم الإمام ابن قدامة الحنبلي (ت ٦٢٠هـ)(١)، في رسالته في «ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة». قال: «إن طائفة من الموسوسين قد تحقَّقت منهم طاعة الشيطان، حتى اتَّصفوا بوسوسته، ونسبوا إلى قبول قوله وطاعته، ورغبوا عن اتباع رسول الله ﷺ، وطريقه، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ، أو صلَّى كصلاته، أن وضوءه باطل، وصلاته غير صحيحة، ويرى أنه إذا فعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ، في

(١) كلمة «حنبلي» في أوساط العامة من المصريين توحي بالتزمت والتشدد والوسوسة، ولكن الدارسين يعلمون أن المذهب الحنبلي من أيسر المذاهب الفقهية، إن لم يكن أيسرها جميعًا، في العبادات والمعاملات، ويتبين ذلك في مؤلفات الإمام ابن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم. وقد رأيت ثلاثة من أعلام الحنابلة حملوا جميعًا على التنطع والوسوسة في كتبهم حملة عنيفة لا تكاد توجد في مذهب آخر، وهم: ابن قدامة في رسالته المذكورة، وابن القيم في إغاثة اللهفان، وابن الجوزي في تلبيس إبليس.

QaradawiBooks.com

مؤاكلة الصبيان وأكل طعام عامة المسلمين، أنه قد صار نجسًا يجب عليه تسبيع يده فيه، كما لو ولغ فيهما كلب أو بال عليهما هر!

ثم إنه بلغ في استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى شبيه بالجنون، وتقارب من مذهب السُّفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات، فإن علم الإنسان بحال نفسه من الأمور اليقينيات الضروريات. وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلًا يشاهده ببصره، ويكبِّر ويقرأ شيئًا بلسانه تسمعه أذناه، ويعلمه بقلبه، بل يعلمه غيره منه، ويتيقنه إذا رأى ذلك أو سمعه منه، وهذا يصدق الشيطان في إنكاره يقين نفسه، وجحده لما رأى ببصره، وسمعه بأذنه، ثم يشكُّ: هل فعل ذلك أم لا؟

وكذلك يشكِّكه في نيته وقصده، التي يعلمها من نفسه يقينًا، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله، ومع ذلك يقبل قول إبليس في أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها، مكابرة منه لعيانه، وجحدًا ليقين نفسه، حتى تراه متردِّدًا متحيرًا، كأنه يعالج شيئًا يجذبه، أو يجد شيئًا في باطنه يستخرجه؛ كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس، وقبولًا من وسوسته. ومَن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد، فقد بلغ النهاية في طاعته. ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه، ويطيعه في الإضرار بجسده، بالغوص في الماء البارد، وتارة بكثرة استعماله، وإطالة الفرك مبالغة، وربما فتح عينيه في الماء وغسل داخلها، حتى يضرَّ ببصره، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزئ به مَن يراه.

وربما شغله بوسوسته حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما فوَّت عليه ركعة أو أكثر، وربما فوَّت عليه الوقت.

QaradawiBooks.com

ومنهم مَن يحلف على نفسه: لأثبتن ولا زدت. ويكذب.

ومنهم من يتوسوس في إخراج الحروف حتى يكرِّر الحرف الواحد مرتين أو ثلاثًا، ورأيتُ منهم مَن يقول: (أكككبر). وقال لي إنسان: قد عجزت عن قول: «السلام عليكم». فقلتُ له: قل مثل ما قلتَ الآن وقد استرحت!

ونحو هذا أصنافهم كثيرة.

وقد بلغ الشيطان منهم إلى أن عذَّبهم في الدنيا، وأخرجهم عن اتباع نبيهم المصطفى، وأدخلهم في جملة المتنطعين، الغالين في الدين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أراد التخلُّص من هذه البلية فليستشعر صحة ما ذكرناه من الحقِّ في اتباع رسول الله ﷺ، في قوله وفعله. وليعزم على سلوك طريقته، عزيمة مَن لا يشك في أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، على الهدى المستقيم، وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته، ويتيقَّن أنه عدو لا يدعو إلى الخير، ولا يرشد إلى طائل: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ثم ليعلم أن رسول الله ﷺ، وأصحابه ما كان فيهم موسوس، ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادَّخرها الله تعالى عن رسوله وصحابته خير الخلق وأفضلهم. ولو أدرك رسول الله ﷺ الموسوسين لمقتهم، ولو أدركهم عمر لضربهم وعزَّرهم، ولو أدركهم أحد من الصحابة لنبذهم وكرههم»(١).

(١) ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة لابن قدامة صـ ٤ ـ ٧، نشر إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م.

QaradawiBooks.com

ومما نعاه الشيخ ابن قدامة على هؤلاء الموسوسين المتنطعين موقفهم في أشياء سهَّل الشرع فيها، وشدَّد هؤلاء فيها: «فمن ذلك المشي حافيًا، والصلاة من غير غسل القدمين، روى أبو داود بإسناده، عن امرأة من بني عبد الأشهل قالت قلت: يا رسول الله، إن لنا طريقًا إلى المسجد منتنة فكيف نفعل إذا مُطِرنا؟ قال: «**أليس بعدها طريق أطهر منها؟**». قلت: بلى. قال: «**فهذه بهذه**»(١). وهذا ما لم يطأ على شيء رطب يعلق بالأرجل.

ومن ذلك: الصلاة في الخفين والنعلين، كان النبي ﷺ وأصحابه يصلون في نعالهم، وقال ﷺ: «**إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر: فإن رأى على نعليه قذرًا فليمسحه وليصل فيهما**»(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وطئ أحدكم بنعليه الأذى، فإن التراب له طهور**». وفي لفظ: «**مَن وطئ الأذى بخفه، فطهورهما التراب**»(٣).

ومن ذلك: أن النبي ﷺ كان يصلي حيثما كان، وقال عليه الصلاة والسلام: «**جُعلت لي الأرض كلها مسجدًا وطهورًا، فحيثما أدركتك الصلاة فصلِّ**»(٤)،

---

(١) رواه أحمد (٢٧٤٥٢)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطهارة (٣٨٤)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٤١٠): إسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد (١١٨٧٧)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (٦٥٠)، وعبد بن حميد (٨٨٠)، وابن خزيمة (٧٨٦)، وابن حبان (٢١٨٥)، كلاهما في الصلاة، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) كلا الحديثين رواهما أبو داود (٣٨٦، ٣٨٥)، والحاكم (١٦٦/١)، وسكت عنهما الذهبي، كلاهما في الطهارة، وقال النووي في المجموع (٥٩٩/٢): رواه من طرق كلها ضعيفة، وقال ابن حجر في الدراية (٩١/١): في إسناد كل منهما مقال. وصححه الألباني في المشكاة (٥٠٣)، وقال الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

(٤) متفق عليه. رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

و«**كان يصلي في مرابض الغنم**»[(١)]، ويأمر بذلك[(٢)]. وقال: «**الأرض كلها مسجد، إلا المقبرة والحمام**»[(٣)]. وقال ابن عمر: كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يرشُّون شيئًا في ذلك[(٤)].

ومن ذلك: أن النبي ﷺ، صلَّى وهو حامل أُمامة بنت العاص بن الربيع. متفق عليه[(٥)]. وهي طفلة لا تخلو من النجاسة عند الموسوسين.

ومن ذلك: أن النبي ﷺ كان يلبس الثياب التي كان ينسجها المشركون ويصلي فيها، ولما قدم عمر رضي الله عنه الجابية ـ بالشام ـ استعار ثوبًا من نصراني فلبسه، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه[(٦)]، وتوضأ من جَرَّة نصرانية[(٧)]»[(٨)].

هذان طريقان واضحان: طريق أولئك المرضى الموسوسين، وطريق الرسول وأصحابه الطاهرين. فأيهما أقوَم قِيلًا وأهدى سبيلًا؟ وأيهما أحوط لديننا وأجدى على دنيانا إذا اتبعناه؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢٣٤)، ومسلم في المساجد (٥٢٤)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٩٨٢٥)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في الصلاة (٣٤٨)، وابن ماجه في الطهارة (٤٩٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١١٧٨٤)، وقال مخرجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وقال: فيه اضطراب. كلاهما في الصلاة، وابن ماجه في المساجد (٧٤٥)، والحاكم في الطهارة (٢٥١/١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) رواه البخاري في الوضوء (١٧٤)، عن ابن عمر.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٥١٦)، ومسلم في المساجد (٥٤٣)، عن أبي قتادة.

(٦) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٨٣١/٣).

(٧) علقه البخاري في صحيحه قبل الحديث (١٩٣)، رواه الشافعي في الأم (٢١/١)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م. وصححه النووي في خلاصة الأحكام (٨٢/١).

(٨) ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة صـ ١٦ ـ ١٨.

QaradawiBooks.com

لا شك أن طريق رسـول الله ﷺ، هو الطريق المستقيم الموصِّل إلى رضوان الله، وما عداه فهي سُـبُل مُتَشَـعِّبة ملتوية على كلِّ سـبيل منها شـيطان مضلٌّ يأمر بالسـوء والفحشـاء، وصدق الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وما أصدق ما قـال الخليفة الراشـد عمر بن عبد العزيز: سـنَّ لنا رسـول الله ﷺ، وولاة الأمر من بعده ـ الخلفاء الراشدون ـ سننًا؛ الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واسـتكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرهـا، ولا النظر فيما خالفها. مَـن اقتدى بها فهو مهتدٍ، ومَـن انتصر بها فهـو منصور، ومَـن خالفها واتبع غير سـبيل المؤمنين، ولَّاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا(١).

فهذا هـو مصير مَن انحرف عن هدي رسـول الله ﷺ ـ وهو اليسـر والتخفيف ـ «جهنم وساءت مصيرًا».

ولكن هذا الانحراف ثمنـه في الدنيا قبل الآخـرة، وأمامنا هذه القصة التالية عبرة ومثلًا: روى أبـو داود، وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله قـال: خرجنا في سـفر، فأصاب رجلًا منا حجرٌ فشـجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء! فاغتسـل، فمات. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ، أُخبر بذلك، فقال: «**قتلوه، قتلهم الله! ألّا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِيّ السؤال؛ إنما كان يكفيه أن**

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٥٩٦٩).

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية
غير مخصصة للطباعة

يتيمَّم، ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده»(١).

فليت شعري، إذا كان قد حكم على هؤلاء بأنهم: «**قتلوه، قتلهم الله!**»، مع جهلهم بالرخصة. فكيف يكون حكمه على الذين يعرفون الرخصة، ويعرفون محبة الله لإتيانها، ثم يشدِّدون على عباد الله؟ تُرى كم يقتل هؤلاء بتزمتهم وتشديدهم من الأنفس وهم لا يشعرون؟!

* * *

(١) رواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (٧٢٩)، كلاهما في الطهارة، ونقل عن شيخه فيه أبي بكر ابن أبي داود قوله: هذه سنة تفرد بها أهل مكة، وحملها أهلُ الجزيرة. لم يروه عن عطاء عن جابر غيرُ الزُّبير بن خريق، وليس بالقوي. وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء عن ابن عباس، وهو الصواب. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، دون قوله: «إنما كان يكفيه ...».

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الرجوع إلى الكتاب والسُّنّة لا التعصب لمذهب

ومن التزمُّت الذي ابتلينا به في التعليم والإفتاء هو إلزام الناس التعبد بمذهب واحد في كلِّ مسائل العبادة والمعاملة. وقد يكون المذهب في مسألة بعينها ضعيف الدليل، بعيدًا عن السداد، محرجًا لعباد الله. وكأن اتباع مذهب معين فرض نطق به الوحي أو نزل به الروح الأمين.

وإن أي مذهب من المذاهب ليس إلا مجموعة من المسائل اجتهد فيها مجتهد لم يَدَّعِ لنفسه العصمة، فإذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر. ولم يحتكر إمام مجتهد الصواب لنفسه، ولم يزعم للناس أن ما ذهب إليه شرع يجب أن يُتَّبَع، ودين يجب أن يُقلد.

قال الإمام مالك: كل إنسان يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ[(١)].

وقال الإمام الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. وقال أيضًا: إذا صحَّ الحديث فاضربوا بقولي عُرض الحائط[(٢)]، بل نُسِبَ هذا القول إلى كلّ إمام من الأئمة الأربعة المشهورين، وما كان لهم أن يقولوا غير هذا.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٢/١٨)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢١١/٢٠).

نسخة تجريبية

وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال(١).

ويقول الإمام أحمد: عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحَّته، ثم يذهبون إلى رأي سفيان ـ يعني: مغفلين مقتضى حديث الرسول ـ والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣](٢).

ولست أريد أن يتنقَّل المسلم بين المذاهب كالطائر بين الأشجار، يأخذ من كلِّ مذهب ما يوافق هواه، من غير اعتماد على أصل ولا حجَّة. كلا، إنما أريد أن يتَّبع المسلم الدليل، وأن يخضع للحكم الذي قويت حجَّته، واطمأنَّ إليه قلبه، ووافق قواعد الشريعة، وروح الإسلام، وهذا ما كان عليه السلف قبل انتشار المذاهب وأتباعها، وقبل أن يطمَّ سيل التقليد.

فلماذا إذن نُلزم الناس بما لم يلزمهم الله به، ونكلِّفهم اتباع مذهب واحد وإمام معين في كلِّ مسائل الدين، لا يجوز له أن يحيد عنه، وفي هذا من الحرج والعسر ما نفاه الله عن الدين؟

أمثلة للتيسير في بعض المذاهب:

إن واجب العلماء أن ييسروا على الناس، وخاصة في هذا العصر الذي رَقَّ فيه الدين وقَلَّ التدين.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٩٩٠/٣)، تحقيق د. بشار عواد، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.

(٢) الفروع لابن مفلح (١٠٧/١١)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

QaradawiBooks.com

ما أُكل لحمه فروثه وبوله طاهر:

ومن أمثلة ذلك: أن معظم المسلمين في ريف مصر يتعبَّدون على مذهب الإمام الشافعي، ونحن نجد أن مذهب الشافعي في مسائل الطهارة والنجاسة من أقسى المذاهب وأشدها على الناس، وبخاصة أهل الريف.

فبينما يقول المذهب المالكي: كل ما أُكل لحمه فبوله وروثه طاهر، يجعل المذهب الشافعي كل ذلك نجسًا. والدليل في مذهب مالك أقوى وأرجح وأوفق بروح الإسلام وحاجة الناس.

ويقول ابن القيم: إنه يُعفي عن يسير أرواث البغال والحمير والسباع في إحدى الروايتين عن أحمد، اختارها شيخنا، لمشقة الاحتراز.

وقال الوليد بن مسلم: قلت للأوزاعي: فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه، كالبغل والحمار والفرس؟ فقال: قد كانوا يبتلون بذلك في مغازيهم فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب.

ومن ذلك: نصَّ أحمد على أن الوذْي يُعفي عن يسيره كالمذْي، وكذلك يعفي عن يسير القيء.

وقال شيخنا: لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المِدَّة والقيح والصديد. قال: لم يقم دليل على نجاسته. وذهب بعض أهل العلم إلى طهارته[1].

الماء لا ينجس إلا بالتغير:

ومن ذلك أن الذي دلَّت عليه السنة وآثار الصحابة أن الماء وإن كان يسيرًا لا ينجس إلا إذا أدَّت النجاسة إلى تغيير طعمه أو لونه أو ريحه.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/١٣٥ ـ ١٥١).

QaradawiBooks.com

وهذا قول أهل المدينة وجمهور السلف، وأكثر أهل الحديث. وبه أفتى عطاء، وسعيد بن المسيب، وجابر بن زيد، والأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، وعبد الرحمٰن بن مهدي، واختاره ابن المنذر، وبه قال أهل الظاهر، ونصَّ عليه أحمد في إحدى روايتيه، واختاره جماعة من أئمة الحنابلة منهم: ابن عقيل، وابن تيمية، وابن القيم(١).

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن، عن أبي سعيد، قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بضاعة؟ ـ وهي بئر تُلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ـ فقال: «**الماء طهور لا ينجسه شيء**». قال الترمذي: حديث حسن، وقال الإمام أحمد: حديث بضاعة صحيح(٢).

وروى ابن ماجه، عن أبي أمامة مرفوعًا: «**لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه أو طعمه أو لونه**»(٣)، وهذا الاستثناء لم يصح من جهة السند، ولكن الفقهاء أجمعوا عليه.

وقد لاحظ الإمام الغزالي شدة الإمام الشافعي في مسائل «النجاسة» فقال في كتاب الطهارة من «الإحياء» مستدركًا على مذهب الشافعي ﵁: «وكنتُ أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك ﵁، في أن الماء وإن قَلَّ لا ينجس إلا بالتغيير، إذ الحاجة ماسة إليه، ومثار الوساوس اشتراط

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٥٦/١).

(٢) رواه أحمد (٨٧٣٥)، وقال مخرجوه: صحيح. ورواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥٩)، ثلاثتهم في الطهارة، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه في الطهارة (٥٢١)، والطبراني (١٠٤/٨)، وضعف إسناده ابن الملقن في خلاصة البدر المُنير (٨/١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٧٦/١): فيه رشدين وهو ضعيف واختلف عليه مع ضعفه. وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٦٤٤).

QaradawiBooks.com

القلتين، ولأجله شق على الناس ذلك، وهو لعمري سبب المشقة، ويعرفه مَن يجربه ويتأمَّله»، وقد قوّى الغزالي ـ وهو شافعي ـ ما ذهب إليه مالك بسبعة أدلة، تراجع في كتاب الطهارة من «الإحياء» لمَن شاء[1].

لمس المتوضئ للمرأة:

ومن ذلك أن الشافعي يذهب إلى أن لمس المرأة ـ ولو زوجة بغير شهوة ـ ينقض الوضوء مستدلًّا بآية: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]، وفي هذا حرج على الناس في الريف أيضًا. والمتأمل في الآية يجد أن مذهب الحنفية أقوى وأوضح:

١ ـ فقد قال ابن عباس، وهو ترجمان القرآن: إن اللمس والملامسة والمس في القرآن يعني: «الجماع»[2]. وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠].

٢ ـ بتفسير الملامسة هنا بالجماع تكون الآية قد اشتملت على الحدث الأصغر المَكْنيّ عنه بقوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ [المائدة: ٦]، والحدث الأكبر المَكْنيّ عنه بقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]، ويكون التيمم بنصِّ الآية مغنيًا عن الوضوء وعن الغسل عند فقد الماء، ولو فسِّرت الملامسة بالمعنى الظاهر منها ما أفادت الآية ذلك.

٣ ـ وردت عدة أحاديث تقوِّي تفسير ابن عباس للآية: فقد أخرج البزار بسند جيد، وإسحاق بن راهويه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قبَّلها

(١) إحياء علوم الدين (١٢٩/١).
(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣٨٩/٨).

QaradawiBooks.com

وهو صائم، وقال: «**القبلة لا تنقض الوضوء، ولا تفطر الصائم**»(١). قال عبد الحق في هذا الحديث: لا أعلم له علة توجب تركه(٢).

وروى مسلم، والترمذي، عنها: أنها فقدت رسول الله ﷺ، ذات ليلة من الفراش، فالتمسته، فوجدته في المسجد يصلي، فوضعت يديها على بطن قدميه وهما منصوبتان(٣).

وروى عنها أحمد، وأصحاب السنن بسندٍ رجاله ثقات: أن النبي ﷺ، قبَّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ(٤).

وروى الشيخان، عنها قالت: **كنت أنام بين يدي النبي** ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي(٥). وفي لفظ: فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي(٦). وتأويل مثل هذا الحديث بأن الغمز أو وضع اليد على بطن القدم كان فوق حائل خروج عن مقتضى الظاهر بدون دليل.

المسح على الجوربين:

ومن ذلك: المسح على الجوربين. فأكثر المرشدين الدينيين لا يتسع صدرهم للترخيص في المسح عليهما في الوضوء بدل غسل الرجلين،

---

(١) رواه ابن راهويه في مسنده (٦٧٣)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٩٩).

(٢) ذكره الزيلعي في نصب الراية (٧٤/١)، تحقيق محمد عوامة، نشر مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٥٦٥٥)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والترمذي في أبواب الدعوات (٣٤٩٣).

(٤) رواه أحمد (٢٥٧٦٦)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود (١٧٩)، والترمذي (٨٦) وضعفه ونقل تضعيف يحيى القطان والبخاري. والنسائي (١٧٠)، وقال: ليس في هذا الباب حديث أحسن من هذا الحديث وإن كان مرسلًا، وابن ماجه (٥٠٢)، أربعتهم في الطهارة، عن عائشة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٢)، ومسلم (٥١٢)، كلاهما في الصلاة.

(٦) رواه البخاري في الصلاة (٥١٩).

QaradawiBooks.com

مع ما روي من أن بضعة عشر صحابيًّا أفتوا بجوازه، منهم: عمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وأبو أمامة، وسهل بن سعد، وعمرو بن حريث، وغيرهم رضي الله عنهم.

وهذه رخصة تشتدُّ حاجة الناس إليها في عصرنا، الذي يشقُّ فيه غسل القدمين، وخلع الجوربين في غير المنزل، كما أن غسلهما مدعاة لكسل بعض الناس عن الوضوء في برد الشتاء العضوض.

الصلاة بالثوب النجس غير متعمِّد:

ومن التيسير الذي لم يرتح إليه كثير من المتمذهبين: ما أفتى به من الصحابة عبد الله بن عمر. ومن التابعين: عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن المسيب، وطاوس، وسالم، ومجاهد، والشعبي، وإبراهيم النخعي، والزهري. وممن بعدهم: يحيى بن سعيد الأنصاري، والحكم، والأوزاعي، ومالك، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، وأحمد في أصح الروايتين، وغيرهم: أن الرجل إذا رأى على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة، ولم يكن عالمًا بها، أو كان يعلمها ولكنه نسيها، أو لم ينسها ولكنه عجز عن إزالتها: أن صلاته صحيحة ولا إعادة عليه[1].

الحقن كلها لا تفطر:

وكثيرًا ما وُجه إليَّ في شهر رمضان سؤال يقول: هل تُفطر الحقن الشرجية، وكذلك استعمال المراهم وما شابههما في فتحة الشرج لأجل البواسير ونحوها؟

(١) إغاثة اللهفان في مكايد الشيطان لابن القيم (١٥٢/١).

QaradawiBooks.com

والمشهور عند عامة الناس: أن الحقن الشرجية تفطر، وأن إدخال شـيء مقدار «عقلة إصبع» في الدبر يفطر. ولكنـي اخترتُ غير هذا المذهب في جوابي عن السؤال فقلت فيه: لا يجهل أحد معنى الصوم البسيط وهو: الامتناع عن الأكل والشرب والمباشرة للنساء. وهي أمور نص عليها القرآن، ولا يجهل أحد كذلك معنى هذه الممنوعات، فقد كان يفهمها بداة الأعراب في عهد النبوة، ولم يحتاجوا في فهم معنى الأكل والشـرب إلى حدود وتعريفات. ولا يجهل أحد كذلك الحكمة الأولى للصوم، وهي إظهار العبودية لله تعالى بترك شـهوات الجسد، طلبًا لمرضاته سـبحانه، كما قال في الحديث القدسي: «**كلُّ عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**»(١).

وإذا تبين ذلك رأينا أن تعاطي الحقن بأنواعها، واسـتعمال المراهم ونحوهـا، ليس أكلًا ولا شـربًا في لغة ولا في عـرف، ولا تنافي قصد الشارع وحكمته من الصيام، ولا موضع للتشديد في أمر لم يجعل الله فيه من حرج. قال الله تعالـى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن حزم: لا ينقض الصوم حقنة(٢). ولا سـعوط ـ نشوق ـ ولا تقطير في أذن أو في إحليل أو في أنف، ولا استنشاق وإن بلغ الحلق، ولا مضمضة دخلت الحلق من غير تعمد، ولا كحل وإن بلغ إلى الحلق نهارًا أو ليلًا، بعقاقيـر أو بغيرها ولا غبار طحـن، أو غربلة دقيق، أو

---

(١) سبق تخريجه صـ٣٤٨.

(٢) يعنون بها: الحقنة الشرجية، إذ الحقن العرقية والجلدية لم تكن عرفت في عهدهم.

QaradawiBooks.com

حناء، أو عطر، أو حنظل، أو أي شـيء كان، ولا ذبـاب دخل الحلق بغلبة ... إلخ[١].

هذا ما ذهب إليه فقيه ظاهري يُحكِّم حرفية النصوص في كلِّ حكم، وقد استدلَّ لما ذهب إليه، فقال: «إنما نهانا الله فـي الصوم عن الأكل والشـرب والجماع، وتعمد القيء والمعاصي. وما علمنا أكلًا ولا شربًا يكون على دبر أو إحليل، أو أذن أو عين أو أنف، أو من جرح في البطن أو الرأس، ومـا نهينا قط عـن أن نوصل إلـى الجـوف ـ بغير الأكل والشرب ـ ما لم يحرم علينا إيصاله»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الكحل والحقنة والتقطير ووصول الدواء إلى الجوف عن طريق جراحة في الرأس أو البطن، إلخ: «الأظهر أنه لا يفطر شيء من ذلك، فإن الصيام من دين الإسلام الذي يحتاج إلى معرفته الخاص والعام، فلو كانت هذه الأمور مما حرَّمها الله ورسوله في الصيام، ويفسد الصوم بها، لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه، ولو ذُكر لعلمه الصحابة وبلَّغوه الأمة، كما بلَّغوا سـائر شرعه، فلما لم ينقل أحد من أهل العلم عن النبي ﷺ، فـي ذلك حديثًا صحيحًا ولا ضعيفًا، ولا مسندًا ولا مرسلًا، عُلم أنه لم يذكر شيء من ذلك»[٣].

مَن تسحر بعد الفجر خطأ:

والمشهور من المذاهب المتداولة فيمن تسحر يظنُّ نفسه في الليل، ثم تبين أن سحوره أو جزءًا منه كان بعد الفجر، أو أفطر يظنُّ الشمس

(١) المحلى بالآثار (٢٠٣/٦) مسألة (٧٥٣).
(٢) المصدر السابق (٢١٤/٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٣٤/٢٥).

QaradawiBooks.com

غربت ثم تبين أنها طالعة: أن صوم هذا أو ذاك قد بطل، وعليه إمساك بقية يومه، ولا إثم عليه، إذ كان مخطئًا لا متعمدًا، وعليه قضاء يوم مكان يوم.

ولكن أبا محمد بن حزم يرى أن الصوم صحيح في الحالين؛ لأنه لم يتعمَّد إبطال صومه، حيث ظن أنه في غير صيام، فهو والناسي سواء، كلاهما ظنَّ أنه في غير صيام، ولا فرق. قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال الرسول ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[(١)].

قال: وهذا قول جمهور السلف. وروى بسنده، أن الناس أفطروا في زمن عمر بن الخطاب، وأخرجت القداح من بيت حفصة فشربوا، ثم طلعت الشمس من سحاب، فكأن ذلك شقَّ على الناس، فقالوا: نقضي هذا اليوم. فقال عمر: ولم؟ والله، ما تجانفنا لإثم[(٢)]!

وعن مجاهد قال: مَن أكل بعد طلوع الفجر، وهو يظنُّ أنه لم يطلع؛ فليس عليه قضاء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وروي مثل ذلك عن الحكم بن عتيبة، والحسن البصري، وجابر بن زيد، وعطاء بن رباح، وعروة بن الزبير، وهو قول داود الظاهري[(٣)].

(١) رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٥)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٢١٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني في الأوسط (٢١٣٧)، والحاكم في الطلاق (١٩٨/٢): وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤)، عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن حزم في المحلى (٢٢٣/٦).

(٣) المحلى (٢٢٤/٦).

QaradawiBooks.com

ودليل ابن حزم قــوي واضح. وإن كان أقوى وأنصع بالنســبة لمَن تســحر بعد الفجر، إذ القرآن أباح المباشرة والأكل والشرب حتى يتبين الفجر للمكلف، ومَن تسحر يظن أنه في الليل لم يتبين له الفجر قطعًا.

ولذلك نرى أن على الصائـم أن يتحرى ويجتهد وسـعه، وخاصة لمعرفة غروب الشمس ودخول الليل، فإذا اطمأن إلى مغيبها وأفطر، ثم تبيـن أنها لم تزل فما أظن الحـرج إلا مرفوعًا عنه حينئـذ. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولــذا قال عمر: والله، ما تجانفنا لإثم. ونظير هذا إذا تحرى في التوجُّه إلــى القبلة، ثم تبين أنه صلَّى إلى جهة أخرى؛ فصلاته صحيحة مقبولة، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العناية بالفرائض أولًا

ومن الواجب على معلِّمي الدين أن يشدُّوا الناس إلى الفريضة أولًا. فنحن في عصر كثرت فيه مشاغل الناس، ورَقَّ فيه دين الكثيرين، فليكن همنا الأول وبغيتنا الأولى من المسلم: «أداء الفرائض واجتناب الكبائر».

وليس من الحكمة ولا الموعظة أن نصوِّب سهام التقريع والتعنيف إلى مَن يُقصِّر في نوافل العبادات. وهل نحن أغير على دين الله من رسول الله ﷺ؟ وقد كان يرضى من الناس أن يؤدُّوا ما افُترض عليهم بلا زيادة ولا نقصان.

وقد روى البخاري قصة ذلك الأعرابي الذي جاء يسأل النبي ﷺ عما عليه من شرائع الإسلام فقال له: «**خمس صلوات**». قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع. وصيام شهر رمضان**». فقال: هل عليَّ غيرها؟ فقال: «**لا، إلا أن تطوع**». وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع**». فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام فأدبر الرجل وهو يقول: والله، لا أزيد ولا أنقص مما فرضه الله عليَّ شيئًا. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**»(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨)، ومسلم في الإيمان (١١)، عن طلحة بن عبيد الله.

QaradawiBooks.com

وروى مسلم، عن أنس قال: نُهينا أن نسأل رسول الله عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك! قال: «**صدق**». قال: فمَن خلق السماء؟ قال: «**الله**». قال: مَن خلق الأرض؟ قال: «**الله**». قال: فمَن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «**الله**». قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «**نعم**».

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا! قال: «**صدق**». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**». قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا! قال: «**صدق**». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**». قال: وزعم رسولك أن علينا صوم رمضان في سنتنا! قال: «**صدق**». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**». قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت مَن استطاع إليه سبيلًا! قال: «**صدق**». ثم ولى الرجل قائلًا: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: «**لئن صدق؛ ليدخلن الجنة**»(١).

هذا ما كان من خاتم النبيين وسيد الداعين إلى الله على بصيرة، ولكن كثيرًا من المتدينين لا يرضون من غيرهم إلا أن يؤدُّوا السنن والنوافل والمستحبات، وإلا برقوا ورعدوا وأرغوا وأزبدوا.

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢)، وأحمد (١٢٤٥٧).

QaradawiBooks.com

ولقد شاهدت أحد هؤلاء مرَّة ينهر شابًّا أنيقًا رقيقًا وقف في الصف ليقيم الصلاة، وكان ذنبه عند ذلك الرجل أنه يصلي ورأسه مكشوفة، وشعره مرجَّل! فقلت للرجل: هل اشترط أحد من الأئمة غطاء الرأس في الصلاة؟ قال: لا. قلت: فهذه الصلاة صحيحة باتفاق؟ قال: نعم. قلت: فعلام إذن الغضب والعنف مع شاب كهذا؟ أمثاله يذهبون إلى السينما وهو يذهب إلى المسجد، أيهما أفضل عندك: أن يذهب هذا إلى السينما أم يصلي ورأسه مكشوفة؟

إن المنهج السديد أن نوجه أكبر عنايتنا للفرائض قبل النوافل، وأن نُشدِّد في الأصول، ونُسَهِّل في الفروع، فإن التشدُّد والتزمُّت في جزئيات فرعية مختلف فيها يخشى أن تجعل الناس يتسرَّبون من الأمور المتفق عليها، بل يتفلتون من الدين كله.

إن علينا ألا نشدِّد في الفروع والجزئيات، والناس يديرون ظهورهم للأصول والكليات. علينا أن نجمع الناس على الفرائض الأصلية، فإذا استجاب المسلم لأداء الفريضة وتذوق حلاوة العبادة، ومرن عليها، فإن ذلك سيدفعه إلى النافلة دفعًا تلقائيًّا؛ ليجبر بها ما عسى ينقصه من إحسان الفريضة، ويترقَّى بها في سلم العبودية لله، حتى يفوز بمحبة الله وما أرفعها درجة. وفي الحديث القدسي: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه**»[1].

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ومن التناقض الذي نراه عند بعض المسلمين أنهم يكثرون من النوافل في عبادة ما، على حين يُقصِّرون في الواجبات والفرائض في ناحية أخرى. فقد نجد مَن يتنفل في الصلوات ويحرص على ختامها، وعلى الذكر والتسبيح والتهليل والتكبير، ومع هذا يبخل بالزكاة وهو موسر، ويتوانى عن الحج وهو قادر.

وقد نجد مَن يحرص على الحج سبع مرات، بل قد يحرص على الاعتمار والزيارة كلَّ عام وخاصة في شهر رجب «الرجبية»، أو شهر رمضان، ومع ذلك قد يكون عاقًّا لوالديه، أو جافيًا لقريبه، أو شحيحًا على جيرانه وأهل قريته، أو ظالمًا لمَن يعامله من الناس.

وواجبنا مع هؤلاء الناس ومَن شابههم أن نعلِّمهم هذا المبدأ الإسلامي الجليل: «إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة».

وكيف يقبل الله الحجة الثانية أو الرابعة ـ وهي النافلة ـ ممن يدع قريبه أو جاره يئنُّ من الحاجة، ويشكو الجوع والفاقة ولا يقدم له عونًا، ونبي الإسلام يقول: «**ما آمن بي مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم**»[1].

إن بعض المشاريع الإسلامية الجليلة النافعة تتعطَّل، بل قد تموت في مهدها، لفقدان من يموِّلها، على حين يوجد كل عام عشرات الآلاف من المسلمين يحجون الحجة الرابعة أو السابعة. فليتهم صرفوا ما ينفقون

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٥٤/١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٥): رجاله ثقات. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

في حج النافلة على تلك المشـروعات التي يُعَد كثير منها فرض كفاية على المسلمين؛ إذا لم يقم به بعضهم أثموا جميعًا.

إن المسلم الفقيه في دينه هو الذي يعرف كيف يوازن بين الأعمال: أيها يقدم وأيها يؤخر. فلا يضيع فريضة بنافلة، ولا يحرص على مندوب يوقعه في مكروه أو حرام.

ومن النظـرات الفقهية العميقـة ما قرأته للإمـام الغزالي، وهو يتحدث عن الآداب الدقيقة، والأعمال الباطنة التي ينبغي أن يراعيها الحاج؛ فكان الأدب الثاني: «ألا يعاون أعداء الله سـبحانه بتسـليم المكس ـ وهو إتـاوة مالية تفـرض بغير حق ـ وهـم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق، فإن تسـليم المال إليهم إعانة على الظلم، وتيسير لأسـبابه عليهم، فهو كالإعانة بالنفس، فليتلطف في حيلة للخلاص، فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء ـ ولا بأس بما قاله ـ إنَّ تـرك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانـة الظلمة، فإن هذه بدعـة أُحدثت، وفي الانقياد لها ما يجعلها سُـنة مطردة، وفيه ذلٌّ وصَغَار على المسلمين ببذل جزية، ولا معنى لقـول القائل: إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر. فإنه لو قعد في البيت، أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء ... فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطرار»[1].

ولقد أرشد نبي الإسلام أمته إلى أن العمل الذي يعود بالخير والنفع على المجتمع ـ إذا صحت فيه النية ـ قد يفضل نوافل العبادات بدرجات

(١) الإحياء (٢٦٢/١).

QaradawiBooks.com

كثيرة، وذلك مثل: إصلاح ذات البين، الذي جعله النبي أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة. ومثل: اشـتغال الوالي العادل بأمور الشعب ومصالح الأمة، ففي الحديث الشـريف: «**ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة**»(١).

ولا يذهبن الوهم بأحد أن شـيئًا من هذه الأعمـال الخيرة ـ مهما اتسـعت رقعة نفعه ـ أفضل من أداء ما افترض الله مـن العبادات. كلا، فالفرائض هي الأسـاس الذي ترتكـز عليه الأعمال كلُّهـا، والحديث القدسي الذي ذكرناه قريبًا ينبهنا على هذا، فيقول: «**ما تقرّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه**»(٢).

أعتقـد أننا بهذا المنهج الـذي ذكرنا مبادئه فـي تعليم العبادات، نستطيع أن نأخذ بأيدي الناس إلى الله، وأن نحبِّب إليهم عبادته تعالى، وأن نقاوم موجة المادية الطاغية التي تريد أن تشـغل الإنسـان بلقمة الخبز عن حياة الروح.

❊ ❊ ❊

(١) رواه الطبراني (١١/٣٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٣٧٩)، وحسَّن إسناده العراقي في تخريج الإحياء صـ ٢٠٥، وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٨٩)، عن ابن عباس.

(٢) سبق تخريجه صـ٤٠٩.

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾	٢، ٣	٢٧٦، ٢٨٠
﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٤	٢٧٧، ٢٨٠
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	١٣، ٤٣، ٤٨، ١٠١، ١٠٧، ١٠٩، ١١٩، ١٢١، ١٢٥، ١٣٢، ١٨٢، ٢٧٧، ٢٨٠
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾	٦، ٧	٢٧٧، ٢٨٠
سورة البقرة		
﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ...﴾	٢، ٣	٢٧٠، ٢٩٩، ٣٢٣
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ...﴾	٢١، ٢٢	٧٢، ١٤٩، ١٦٠
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾	٢٨	١٨٤
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾	٢٩	١٨٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾	٣٠	٣١، ١٨٦
﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ...﴾	٤٥، ٤٦	٢٨٠
﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾	٧٩	١١٦
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ...﴾	٨٣	٣٠٠
﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ...﴾	١١٠	٢٩٩
﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ...﴾	١١١، ١١٢	٩٤
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ...﴾	١١٢	٢١٧، ٢١٩
﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾	١١٥	٩٥، ١٩٩، ٢٧٠، ٤٠٥
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾	١٢٥	٣٥٦
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ ...﴾	١٢٧ ـ ١٢٩	٣٥١
﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾	١٤٤	٣٥١
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ...﴾	١٥٣	٢٨٠
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾	١٦٥	٦٥
﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ...﴾	١٧٣	٢٥٢
﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ...﴾	١٧٧	١٦٩، ١٧١، ٢٠٨، ٣٣٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾	١٧٨	٧٤
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ...﴾	١٨٠	٧٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ...﴾	١٨٣	٧٤، ١٦٠، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٦٣، ٣٤٠
﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ...﴾	١٨٥	٢٤٤، ٢٥٧، ٣٤٠، ٣٤٨، ٤٠٢
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾	١٨٦	٢٠٣
﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾	١٨٧	٤٠٤
﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ ﴾	١٨٩	٢٠٣
﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾	١٩٨	٩١، ٣٦٠
﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾	١٩٩	٣٦١
﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ...﴾	٢٠٠ ـ ٢٠٢	٢٣٦
﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ...﴾	٢١٦	٧٤
﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾	٢١٩	٢٠٣، ٣٠٤
﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾	٢٣٧	٣٩٩
﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ...﴾	٢٣٨، ٢٣٩	٢٧٠
﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗا ﴾	٢٣٩	٢٥٤
﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾	٢٥٤	٣٢٣
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ...﴾	٢٥٥	٢٠٢
﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾	٢٦١	٣٣٦
﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ ...﴾	٢٦٣ ـ ٢٦٥	٢١٢، ٣٢٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية

QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ... ﴾	٢٦٨	٣٢٧
﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾	٢٧٣	٣١٠
﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾	٢٧٦	٣٢٧
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴾	٢٧٧	٢٩٩
﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾	٢٨٥	٧٥، ٢٦٦، ٣٤٧
﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾	٢٨٦	٢٤١
سورة آل عمران		
﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ... ﴾	١٦	١٥٢
﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ ... ﴾	٣١	٥٦، ٦١، ٢١٩
﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ... ﴾	٦٤	١٨٢
﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا ... ﴾	٦٧، ٦٨	٣٥٢
﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ... ﴾	٩٦، ٩٧	٣٥٢
﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾	٩٧	٣٦٢
﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ... ﴾	٩٧	١٣٠، ٢٦٦
﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ... ﴾	١١٠	٢٦١
﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾	١٣٤	٣٣٤
﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ... ﴾	١٤٢	١٤٥
﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ... ﴾	١٩٠ ـ ١٩٥	١٠٣، ١٥٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النساء		
﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ ...﴾	٢٠	٢٩١
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾	٢٨	٢٤٤
﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾	٢٩	٢٥٤
﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ...﴾	٣٦	٩٨، ١٨٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ...﴾	٤٣	١٠٦، ٢٧٣
﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾	٤٣	٢٥٣
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ...﴾	٤٨	١٨٣
﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾	١٠٢	٢٥٥
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ...﴾	١١٦	١٨٣
﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ ...﴾	١٢٣، ١٢٤	٢٠٥
﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾	١٢٥	٢١٧
﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾	١٧٢، ١٧٣	٣٧، ١٦٤
سورة المائدة		
﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾	٣	٢٢٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ...﴾	٦	٢٤٤، ٢٥٣، ٢٧٧، ٣٧٨، ٣٨٤، ٣٩٩
﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ...﴾	١٢	٣٠٠

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ...﴾	١٨	٢٠٤
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ...﴾	٣٥	٢٦٢
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠	١٧٢
﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	٥٤	٥٧، ٦١، ٦٥
﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ...﴾	٧٧	٢٤٦
﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ...﴾	٧٨، ٧٩	٢٦٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾	٩٥	٣٦٣
﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾	٩٦	٣٦٣
﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾	٩٧	٣٥٥، ٣٦٢
﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ...﴾	١١٦، ١١٧	٣٧
﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾	١١٨	٢٠٤
سورة الأنعام		
﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾	١٨	٢٠١
﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾	٩٨	١٠
﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾	١٣٧ ـ ١٤٠	٢٢٢
﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾	١٤١	٣٠١
﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ...﴾	١٥٣	٣٩٣
﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾	١٦١ ـ ١٦٤	١٠٤، ١٧٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ...﴾	٢٣	١٠٥
﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ...﴾	٣١، ٣٢	٢٧٨، ٣٥٤
﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾	٥٩	١٥، ٣٥
﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾	٦٥	١٠
﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾	١٢٧	١٤١
﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾	١٤٦	١٦٤
﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾	١٥٧	٢٤٣
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾	١٧٢، ١٧٣	٣٥
﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾	١٧٩	١٠، ٣٧٤
﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾	١٨٨	٢٠٥
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ...﴾	١٩٤	١٨٨
﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ...﴾	٢٠٥	١٠٤
سورة التوبة		
﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾	٥	٣٠٢
﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾	١١	٣٠٢
﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ...﴾	٢٤	٤٨، ٦٢، ٦٥
﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾	٣١	٨٠، ٨١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...﴾	٣٤، ٣٥	٣٢٨
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ...﴾	٥٨	٣٠٩
﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ...﴾	٦٠	٣٠٩
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...﴾	٧١	٢٦١
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾	٧٢	١٥٦
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾	١٠٣	٢٦٤، ٣٠٥، ٣٢٤، ٣٢٥
﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ...﴾	١٠٨	٢٧٨، ٢٩٥
﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ...﴾	١١٢	٢٦١، ٢٨٨
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ ...﴾	١٢٠، ١٢١	٢٦٢
﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ...﴾	١٢٢	١٠، ٣٧٤
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ...﴾	١٢٨	٢٤٣
سورة يونس		
﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ...﴾	٢٢	١٣١
﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ...﴾	٣١، ٣٢	١٤٨
﴿أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ...﴾	٨٧	٢٧٠
سورة هود		
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾	٧	١٤٤، ٢١٨
﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ...﴾	٨٤	٩٨

QaradawiBooks.com

الآيــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾	٨٥	٩٨
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ...﴾	١١٤	٢٧٥
سورة يوسف		
﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ﴾	٣١	١٣٥
سورة الرعد		
﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ...﴾	١٥، ١٦	٤٩
﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ...﴾	١٩ ـ ٢٢	١٦٩
سورة إبراهيم		
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ...﴾	٣٢ ـ ٣٤	١٤٩
﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ...﴾	٤٠	٢٦٩
سورة الحجر		
﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾	٢٩	٢٧٦
﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ...﴾	٩٧ ـ ٩٩	١٣٦
﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾	٩٩	٣٧
سورة النحل		
﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾	١٧	٣٨٢
﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ...﴾	٣٦	١٠، ٣٦، ١٨٣
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾	٥٣	١٨٥
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾	٩٠	٩٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإسراء		
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ...﴾	١٨	٢٣٦
﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ...﴾	٤٤	١٦٥
﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ...﴾	٥٦، ٥٧	١٨٧
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ...﴾	٥٧	٥٨، ١٥٢
﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾	٦٤	١١٧
﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾	٦٧	٢٢
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾	٧٠	١٨٦
﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ...﴾	٧٩	١٦٢
﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾	٨١	١٨٠
سورة الكهف		
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ...﴾	٧	١٤٤
﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ...﴾	٢٨	٢٣٤
﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ...﴾	١١٠	٢١٧، ٢١٩
سورة مريم		
﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾	٩	١٨٤
﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾	٢٠	٣٩٩
﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾	٣١	٢٧٠، ٣٠٠
﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾	٥٥	٢٦٩، ٣٠٠

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾	٥٩	٢٧٠
﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ...﴾	٩٣ ـ ٩٥	١٨٧
سورة طه		
﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ...﴾	١٣، ١٤	٢٦٩
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾	١٤	١٦١، ٢٧٢
سورة الأنبياء		
﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ...﴾	١٩، ٢٠	١٦٥، ١٨٧
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ ...﴾	٢٥	١٠، ٣٦، ١٨٣
﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ...﴾	٢٦ ـ ٢٨	١٨٧، ٢٠٤
﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ...﴾	٧٣	٢٦٣، ٢٩٩
﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ...﴾	٨٠	٣٢٢
﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾	٩٢	٣٦
سورة الحج		
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ...﴾	١١	١٦٣
﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ...﴾	٢٦، ٢٧	٢٦٣، ٣٥٣
﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ...﴾	٢٧، ٢٨	٢٥٢، ٣٥٧
﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ...﴾	٣٠ ـ ٣١	١٨٦
﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾	٣٢	٢٠٨
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ...﴾	٣٤	٢٠٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾	٣٧	٢٠٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ...﴾	٧٣، ٧٤	١٨٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ...﴾	٧٧، ٧٨	٢٤٤، ٢٦٢
﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾	٧٨	٣٨١، ٣٨٨
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ...﴾	١ ـ ٩	١٦٨، ٢٧٠، ٢٨٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ...﴾	٥١، ٥٢	٣٦
﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ...﴾	٨٤ ـ ٨٩	١٤٨
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ...﴾	١١٥، ١١٦	٢٨
سورة النور		
﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ...﴾	٣٣	٣١٥، ٣٢٣
﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ...﴾	٣٧	٩٠، ٢٣٥
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ...﴾	٥١	٧٦
﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ...﴾	٦٣	٢٢٧، ٣٩٦
سورة الفرقان		
﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ...﴾	٤٣، ٤٤	١٩٤، ٣٤٢
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ...﴾	٦٣ ـ ٧٦	٦، ١٧٠
﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ...﴾	٦٥، ٦٦	١٥٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشعراء		
﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ...﴾	٧٨ ـ ٨٢	٢٠٢
﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ...﴾	٨٢ ـ ٨٧	١٥٣
﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾	٨٨، ٨٩	٢٠٨
سورة النمل		
﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾	٢٤	١٧٨
﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ...﴾	٤٠	١٣٠
سورة العنكبوت		
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ ...﴾	٤٥	١٦٢، ٢١٠، ٢٧٠، ٢٨٢
﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِىَ ٱلۡحَيَوَانُ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾	٦٤	١٤٣
سورة الروم		
﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ...﴾	٣٠	٢١
﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾	٣٩	٣٢٧
سورة لقمان		
﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ ...﴾	١٢	١٣٠، ٢٦٦
﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ...﴾	١٧	٢٧٠
﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ...﴾	٢٠	١٨٤
﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾	٣٢	٢٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحزاب		
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ...﴾	٥	٤٠٤
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾	٢١	٣٧٧
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ...﴾	٣٦	٧٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ...﴾	٤١، ٤٢	١٠٤
﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ...﴾	٧٢	١٣٤، ١٤٤
سورة سبأ		
﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾	٣٩	٣٢٦
﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾	٤١	١٧٨
سورة يسٓ		
﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ...﴾	٣٣ ـ ٣٥	٣٢٢
﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ ...﴾	٦٠، ٦١	٣٥
﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾	٧٩	٣٨٢
سورة صٓ		
﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾	٢٧، ٢٨	٢٨
﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	٢٩	١٠٣
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ...﴾	٧١ ـ ٧٤	١٨٦، ٣٤١
﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾	٨٦	٣٨٠

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزمر		
﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾	٢	٢٠٧
﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾	٨	٢٢
﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾	١١	٢٠٧
﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾	١٤	٢٠٧
﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ... ﴾	٢٩	١٣٩
﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾	٧٣	٢٨
سورة غافر		
﴿ فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾	١٤	٢٠٨
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ... ﴾	٢٧	١٤٠
﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾	٣٥	١٤٠
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾	٦٠	١٦٤
سورة فصلت		
﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ ... ﴾	٦، ٧	٣٠١
﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ... ﴾	٣٧	١٨٧
﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ ... ﴾	٣٨	١٦٥
سورة الشورى		
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ... ﴾	٢٨	٢٨٠
﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴾	٣٨	٣٠١
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾	١١	٢٠٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية

QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزخرف		
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴾	٩	٢٥
سورة الدخان		
﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ... ﴾	٣٨ ـ ٤٠	٢٩
سورة الجاثية		
﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾	١٣	١٨٦
﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴾	٢١، ٢٢	٢٨
﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾	٢٣	١٩٤
سورة الحجرات		
﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ... ﴾	٧، ٨	٢٤٨
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾	١٠	٢٩٢، ٣٢٩، ٣٦٤
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾	١٥	١٧١
سورة قٓ		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ... ﴾	١٦	٢٠٣
﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ... ﴾	٣١ ـ ٣٤	٢٠٩
﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾	٣٣	٥٧
سورة الذاريات		
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ... ﴾	١٦ ـ ١٩	١٦٨
﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾	١٩	٣٠١

غير مرجعة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	٢٠، ٢١	١٠٣
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...﴾	٥٦ ـ ٥٨	٦، ١٠، ٣٢، ٩٣، ١٦٠
سورة الطور		
﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ...﴾	٣٥، ٣٦	٢٥
سورة القمر		
﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾	١	٢٤٠
سورة الواقعة		
﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ...﴾	٦٣ ـ ٧٠	٣٢١
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾	٨٥	٢٠٣
سورة الحديد		
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾	٤	٢٠٢
﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾	٧	٣٢٣
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾	١١	٣٣٦
﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾	٢٥	٣٢٢
﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ...﴾	٢٧	٢٤٦
سورة الحشر		
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾	٩	٢٩٢
﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	٩	٣٢٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾	١٣	٣٧٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ...﴾	١٨، ١٩	٢٣٤
﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾	١٩	٣٣١
سورة الجمعة		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ...﴾	٩، ١٠	٢٣٥، ٢٨٤
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾	١٠	٩١، ٢٨٦
سورة المنافقون		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ...﴾	٩	٩٠
سورة التغابن		
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾	٣	١٨٦
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾	١٦	٤٠٥
سورة الطلاق		
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ...﴾	١٢	٣٢، ١٥٩
سورة التحريم		
﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾	٦	١٨٧
سورة الملك		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...﴾	١، ٢	١٤٤
﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾	١٥	٢٥٢

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	١٦٧
﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾	١٩، ٢٠	٣٠١
سورة الحاقة		
﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ... ﴾	٢٥ ـ ٢٩	٣٢٠
﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ... ﴾	٣٠ ـ ٣٢	٣٢٠
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾	٣٣، ٣٤	٣٠١، ٣٢٠
سورة المعارج		
﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ... ﴾	١٩ ـ ٣٤	١٦٨، ٢٨٢
﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾	٢٤، ٢٥	٣٠١
سورة الجن		
﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾	١٨	٢٩٠
سورة المزمل		
﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ... ﴾	٢٠	٩١، ٢٥٧
﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾	٢٠	٣٠١
سورة المدثر		
﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ... ﴾	٤٠ ـ ٤٤	٣١٩
﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾	٤٣، ٤٤	٣٠١
﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾	٤٦، ٤٧	٣٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القيامة		
﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾	٣٦	٢٨
سورة الإنسان		
﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾	٢	١٤٤
﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾	٨	١٧٢
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ...﴾	٩، ١٠	١٧٢
سورة عبس		
﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ...﴾	٢٤ ـ ٢٨	٣٢٢
﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾	٣١	٣٨٠
سورة الأعلى		
﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ...﴾	١ ـ ٥	١٤٨، ٢٤٠
﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾	٢، ٣	١١
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾	١٤، ١٥	٢١٠
سورة الغاشية		
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾	٢١، ٢٢	٢٠٥
سورة الفجر		
﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾	٢٩	٤١

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البلد		
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾	٤	٢٥٢
﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾	١١ ـ ١٨	٣٠١
سورة الشمس		
﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾	١	٢٤٠
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾	٩، ١٠	٢١٠
سورة الضحى		
﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾	٩، ١٠	٣٠١
سورة التين		
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	٤	١٨٦
سورة العلق		
﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾	١	٣٤٠
﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾	٥	١٨٦
سورة البينة		
﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ...﴾	٤، ٥	٣٠٠
﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾	٥	١٠٤، ٢٠٧
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾	٧	٣٤٣
سورة الهمزة		
﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾	٢، ٣	٣٢٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الماعون		
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ...﴾	١ ـ ٧	٢٨٢، ٣٠١، ٣٢٠
﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	٤، ٧	٢٧٠، ٢٨٢
سورة النصر		
﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ...﴾	١ ـ ٣	١٣٧
سورة الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ...﴾	١ ـ ٤	٢٠٢

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده	١٨٨، ١٩٤
أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي	٦٥
احفظِ الله يحفظك	١٣٥
إذا أديتَ زكاة مالك؛ فقد أذهبتَ عنك	٣٢٥
إذا تواجه المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار	١٠٩
إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر: فإن رأى على نعليه قذرًا فليمسحه	٣٩١
إذا قمتَ إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن	٣٨٠
إذا وطئ أحدكم بنعليه الأذى، فإن التراب له طهور	٣٩١
أرأيتم لو أن نهرًا على باب أحدكم، يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرات	٢٧٤
ارْبَعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا	٢٠٣
ارجع فصل، فإنك لم تصل	٣٨٠
أرحنا بها يا بلال	١٣٦، ١٦٢، ٢٧٣
الأرض كلها مسجد، إلا المقبرة والحمام	٣٩٢
استعد للبلاء	٦٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
استعيذوا بالله من النار	١٥٤
أصدق الأسماء حارث وهمام	١٤٠
أَعْلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم	٣٠٥
أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدف	٢٨٩
أعنِّي على نفسك بكثرة السجود	١٥٤
أفتَّان أنت؟ أفتَّان أنت؟! لا تطوِّل بهم، اقرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾	٢٤٠
أفتَّان أنت يا معاذ؟	٢٤٠، ٢٤٩
أفلح إن صدق	٤٠٧
اقرأ القرآن في كلِّ شهر	٢٣٨
اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه	١٠٥
أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها. ثم قال: يا قبيصة	٣١٦
ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟	٨٤
ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه	٢٠٩
ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟	٣٧٤
ألا مشمِّر للجنة؟ فإنها ـ وربِّ الكعبة ـ نور يتلألأ، وريحانة تهتزُّ	١٥٥
ألا هلك المتنطعون، ألا هلك المتنطعون، ألا هلك المتنطعون	٢٤٥
ألا يخشى إذا ركع أحدكم أو سجد قبل الإمام أن يمسخ الله رأسه	٢٨٥
الذي يركع ويسجد قبل الإمام إنما ناصيته بيد شيطان	٢٨٦
اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من يحبُّك، وحبَّ ما يقربني إلى حبِّك	٦٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد	١٩٠، ١٩٤
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة	٢٩٥
ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقرأ القرآن كل ليلة؟	٢٣٨
أليس بعدها طريق أطهر منها؟	٣٩١
أما بعد، فإنه لم يخف عليَّ شأنكم، ولكن خشيتُ أن تُفرض عليكم	٢٤٨
إن الله تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه	٤٠٤
إن الله طيِّب يحبُّ الطيب، نظيف يحبُّ النظافة	٢٧٧
إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني!	٨٤ ـ ٨٥
إن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء	٩٠
إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم	٢٠٩
إن الله وملائكته يصلُّون على معلمي الناس الخير	١٢٢
إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كلِّ مائة سنة مَن يُجَدِّد لها دينها	٢٢٥
إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه	٩٠
إن الله يستخرج به من البخيل، وإنه لا يُغني من قدر الله شيئًا	٢٤٩
أن تصير الأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا	٣٢٣
إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا	٧، ٢٤٥
إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه، فلا ينصرف عنه	٢٧٧
إن الرهبانية لم تكتب علينا	٢٣٧
إن شئتُما أعطيتكما، ولا حظَّ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب	٣١٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إن صلاتهم ستنهاهم	١٦١
إن العالِم ليستغفر له مَن في السماوات ومَن في الأرض	١٢٢
إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله	٩٠
إن لله ملكًا ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم	٢٧٤
إن المصلي يناجي ربه	١٦٢
إن منكم منفِّرين، فأيُّكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز ـ أي: ليخفف ـ	٢٤٩
إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق	٢٤٩
أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما	٦٥
أنا محمد عبد الله ورسوله	١٨٩
أنا ومعاذ حولها ندندن	١٥٤
أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له	٢٣٩
انظروا إلى هذا الرجل الذي نَوَّرَ الله قلبه	٦٦
إنكم دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم	٢٥٧
إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى	٢١٤
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	١٦٧
إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع، وترفع يديك تقول: اللهم اللهم	٢٧٣
إنما فُرِضَت الصلاة، وأُمر بالحج، وأُشعِرَت المناسك	٢٧٢
إنه سبحانه إذا تجلَّى لهم، ورأوا وجهه عيانًا	١٥٦
إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله	١٨٨

غير مرخصة للطباعة

نسخة إلكترونية

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي	٢٥٠
أوثق عرا الإيمان: الحبُّ في الله، والبغض في الله	٦١
أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ـ أو العبد الصالح ـ	١٩٠
إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو	٢٤٥
أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟	٣٣٦
الإيمان بالله	٨٦
ب	
بُعثتُ بالحنيفية السمحة	٢٤٣
بقي كلها غير كتفها	٣٣٦
بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم	٨١
بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة	٢٧١
بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخَّره فشكر الله له، فغفر له	٨٥
ت	
التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء	٩١
تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون	٢٧٥
تخرج الزكاة من مالك؛ فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك	٣٣٤
تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة	١٠٤
تنظَّفوا فإن الإسلام نظيف	٢٧٧
تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم	٣٠٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ث	
ثلاث مَن فعلهن؛ فقد طَعِم طَعْم الإيمان: مَن عبد الله وحده	٣٢٣
ثلاث مَن كن فيه، وجد حلاوة الإيمان: مَن كان الله ورسوله أحب إليه	٦١
ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا	٢٩٢
ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل	٣٤٣
ج	
جُعلت قرَّة عيني في الصلاة	١٣٦
جُعلت لي الأرض كلها مسجدًا وطهورًا، فحيثما أدركتك الصلاة فصلِّ	٣٩١
ح	
حصِّنوا أموالكم بالزكاة	٣٢٥
حُلُّوه، ليُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد	٢٤٩
خ	
خذوا عني مناسككم	٢١٨
الخلق كلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله	١٢١
خمس صلوات	٤٠٧
د	
دعهم يا عمر	٢٨٦
ذ	
ذهب المفطرون اليوم بالأجر	٢٥٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ر	
الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض	٣٤٧
رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه	٢١١
ربنا ولك الحمد	١١٠
س	
السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب	٢٧٨
السيد الله تبارك وتعالى	١٨٩
ص	
صاع من برٍّ ـ أو قمح ـ على كلِّ امرئ: صغير أو كبير، حر أو عبد	٣٣٤
صدق سلمان	٢٥٠
صدقة تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته	٢٥٣
صلوا كما رأيتموني أصلي	٢١٨، ٣٧٨
صوم ثلاثة أيام من الشهر صوم الشهر كله	٢٣٨
صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كلِّ شهر، يذهبن وحر الصدر	٣٤٥
صوموا تصحوا	٣٤٤
ع	
عبادي، إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة	٣٢
عرضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها	٨٥

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب	٣٤٦
على كلِّ ميسم من الإنسان صلاة كل يوم	٨٧
عليكم من الأعمال بما تطيقون، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا	٢٤٨
العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمَن تركها فقد كفر	٢٧١
ف	
فمَن رغب عن سنتي فليس مني	٢٣٩
فوالله، ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه	١٥٦
في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصلٍ، فعليه أن يتصدَّق عن كلِّ مفصل منها صدقة	٨٧
في كلِّ كبد رطبة ـ أي فيها حياة ـ أجر	٨٩
ق	
قال رجل: لأتصدقنَّ بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق	٢١٢، ٢١٣
القبلة لا تنقض الوضوء، ولا تفطر الصائم	٤٠٠
قتلوه، قتلهم الله! ألَّا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِيِّ السؤال	٣٩٣، ٣٩٤
قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين، ولعبدي ما سأل	٢٧٦
قولوا: إن شاء الله	١٥٥
ك	
كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة	٢٨٠
كان يصلي في مرابض الغنم	٣٩٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفرُّ إذا لاقى	٢٥١
الكبر بطر الحق وغمط الناس	٣٨١
كل سلامى عليه صدقة كل يوم، يعين الرجل في دابته يحامله عليها	٧
كل سُلامى من الناس عليه صدقة	٨٧
كلُّ عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به	٣٤٨، ٤٠٢
كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة	٢١٨
كنت أنام بين يدي النبي ﷺ	٤٠٠
ل	
لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين	٨٤
لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا	١٩٠
لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سوي	٣١٢
لا تحلفوا بآبائكم	١٩٢
لا تستطيعونه	٢٦٢
لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشدِّد عليكم	٢٤٦، ٢٤٧
لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم	١٨٨
لا تقطعوا على الرجل بولته، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين	٣٨٧
لا تنام الليل! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله	٢٤٩
لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما	٦٥
لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ـ	٦٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا، يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك	٦٢
لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله	١٠٥
لا يقل أحدكم لمملوكه: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي	٤٢
لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه أو طعمه أو لونه	٣٩٨
لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النِّعَم	١٢٢
لتلبسها أختها من جلبابها	٢٨٥
لعن الله مَن ذبح لغير الله	١٩٢
لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد	١٩٠
لغدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها	٢٦٢
لكلِّ شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر	٣٤٥
لو تأخَّر الشهر لزدتكم	٢٤٥
لو مُدَّ لنا في الشهر لواصلتُ وصالًا يَدَع المتعمِّقون تعمُّقهم	٢٤٥
ليس المسكين الذي تردُّه التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان	٣١٠
ليس المسكين الذي يطوف على الناس، تردُّه اللقمة واللقمتان	٣١٠
ليس من البر أن تصوموا في السفر، وعليكم بالرخصة التي رَخَّصَ الله	٢٥٦
لئن صدق؛ ليدخلن الجنة	٤٠٨
لينتهين قوم عن وَدْعهم ـ أي تركهم ـ الجمعات	٢٨٤
ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة	٤١٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
م	
الماء طهور لا ينجسه شيء	٣٩٨
ما أعددتَ لها	٦٦
ما آمن بي مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم	٤١٠
ما بال صاحبكم؟	٢٥٦
ما بقي منها؟	٣٣٦
ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه	٤٠٩، ٤١٢
ما خُيِّرَ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا	٢٤٥
ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكيلات	٣٤٣
ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان	٩١
ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان	٣٣٦
المرء مع من أحب	٦٦
مرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق، فقال: والله، لأنحين هذا	٨٥
مَن أحبَّ لله وأبغض لله؛ فقد استكمل الإيمان	٦١
مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه؛ فهو رد	٩٩، ٢١٨
مَن أخلص لله أربعين صباحًا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه	١٦٣
مَن ترك ثلاث جمع تهاونًا بها؛ طبع الله على قلبه	٢٨٤
من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب	٣٣٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
مَن حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة	٢٧١
مَن حجَّ فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه	٣٥٨
مَن حلف بغير الله فقد أشرك	١٩٢
مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن اتَّبعه	١٢٢
مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة	١٠٤
مَن صلَّى الصبح لم يزل في ذمة الله	١٦٢
مَن عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس	٨٤
مَن عاد مريضًا ناداه منادٍ من السماء: طبت، وطاب ممشاك	٨٤
مَن عُرض عليه ريحان فلا يردُّه؛ فإنه طيب الريح، خفيف المحمل	١١٥
مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد	٢١٨
مَن فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله	٢٧١
مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله	٣١٧
مَن كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله	١٩٢
مَن لقي الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثُلمة	٢٦٢
مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه	٧، ٢١١
مَن مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار	١٨٣
مَن يُرد الله به خيرًا يُفقّهُهُ في الدين	١٠، ٣٧٣
ن	
نهى عن طعام المتباريَيْن	١١٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
هـ	
هَمَّ الرسول ﷺ أن يحرق على قوم بيوتهم	٢٨٢
و	
والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده	٦٢
وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة	١٦٢
وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا	١٩٩
وفي بُضْعِ أحدكم صدقة	٩٢
وكلُّ بدعة ضلالة	٩٩
ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم	٢٨٥
ومَن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومَن لقيه يشرك به شيئًا	١٨٣
وهو أحب الصيام إلى الله	٢٣٨
ي	
يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد	٣٦١
يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان	١٨٩
يا سلمان، ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟	٢٧٥
يا عمرو، صليتَ بأصحابك وأنت جنب؟	٢٥٤
يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟	١٤٧
يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج؛ فإنه أغض للبصر	٣٤٤
يأتي على الناس زمان يُقال للرجل فيه: ما أظرفه! ما أعقله! ما أجلده!	١٦٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا	٢٤٤، ٣٨٧
يصلي وهو يلتفت إلى الشعب	٢٥٥
يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد	٢٨١
يقول العبد: مالي مالي. وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى	٣٣٦

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٦

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٧

• **مـقـدمـــة** ٩

• **العبادة مهمَّة الإنسان الأولى في الوجود** ١٥

❖ مهمة الإنسان في هذا الوجود ١٧

❖ الأسئلـة الخالـدة ١٩

❖ مـن أيـــن؟ ٢١

❖ إلـى أيـن المسيـر؟ ٢٧

❖ لمـاذا خُلـق الإنسـان؟ ٣١

❖ النداء الأول في كل رسالة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ٣٥

❖ الجميع مأمورون بالعبادة ٣٧

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

• **حقيقة العبادة في الإسلام** **٣٩**

❖ **معنى العبادة في اللغة** **٤١**

❖ **العبادة في الشرع خضوع وحب** **٤٧**

❖ **خطأ صنفين من الناس في فهم حقيقة العبادة** **٥٥**

❖ **مزاعـم المستشرقيـن** **٦٣**

• **مجالات العبادة في الإسلام** **٦٩**

❖ **مجالات العبادة كما بيَّنها الإسلام** **٧١**

شمول العبادة للدين كله ٧٢

العبادة تسع الحياةَ كلها ٧٤

العبادة انقياد لمنهج الله وشرعه ٧٥

❖ **مَن اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته** **٧٩**

❖ **الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة** **٨٣**

عمل الإنسان في معاشه عبادة بشروط ٨٩

حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة ٩٢

❖ **صحِّح وجهتَك؛ تكن كل حياتك عبادة** **٩٣**

آثار هذا الشمول في النفس والحياة ٩٤

سؤالان وجوابهما ٩٨

❖ **شمول العبادة لكيان الإنسان كله** **١٠٣**

QaradawiBooks.com

❖ **مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن** **١٠٧**
حظ القلب من العبودية لله ١٠٧
حظ اللسان من العبودية لله ١١٠
حظ الجوارح والحواس من العبودية لله ١١١
حظ السمع ١١١
حظ النظر ١١٢
حاسة الذَّوق وحظها من العبودية لله ١١٣
حاسة الشم ١١٤
حاسة اللمس ١١٥
البطش باليد والرجل ١١٦
حتى الركوب على الدابة ١١٧
❖ **أيُّ العبادات أفضل؟** **١١٩**
القائلون بأن أفضل العبادات أشقُّها على النفس ١١٩
القائلون بأنه الزهد والتجرُّد ١٢٠
• القائلون بأن أفضل العبادات ما كان منه نفع الغير ١٢١
القائلون بأن لكلِّ وقت عبادته الفضلى ١٢٣
• **غاية العبادة في الإسلام أو لماذا نعبد الله؟** **١٢٧**
❖ **لماذا نعبد الله؟** **١٢٩**
❖ **العبادة غذاء للروح** **١٣١**
❖ **العبودية لله سبيل الحرية** **١٣٩**

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان ١٤٣
❖ العبادة حق الله على عباده ١٤٧
❖ العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب ١٥١
❖ هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس؟ ١٥٩
صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقَّة وليس علة لها ١٥٩
مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة ١٦١
استكبار عن عبادة الله ١٦٤
❖ صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق ١٦٧
❖ عبادة المؤمن لون من الأخلاق وأخلاقه لون من العبادة ١٧١
• الإصلاح الإسلامي في مجال العبادة ١٧٣
❖ تمهيـــد ١٧٥
❖ لا يُعبد إلا الله ١٧٧
دعوة الإسلام إلى عبادة الله وحده ١٨١
سد الذرائع المفضية إلى الشرك ١٨٨
لا تتخذوا القبور مساجد ١٨٩
لا حلف إلا بالله ١٩٢
لا ذبح ولا نذر إلا لله ١٩٢
أوثان جديدة يجب الحذر منها ١٩٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **تحرير العبادة من رق الكهنوت** **١٩٧**
رجال الكهنوت في العصور الوسطى ١٩٧
تحرير العبادة من قيود المكان ١٩٩
تحرير الضمير من قيود الوساطة في العبادة ٢٠٠
أولاهما: الله فوق عباده **٢٠١**
والحقيقة الثانية: الله مع عباده **٢٠٢**
لا مكان للوسطاء في الإسلام ٢٠٤
❖ **إخلاص القلوب أساس القبول** **٢٠٧**
العبادة المقبولة عند الله ٢٠٩
بركة النية الصالحة ٢١٢
إنما الأعمال بالنيات ٢١٣
❖ **لا يُعبَدُ الله إلَّا بما شَرَع** **٢١٧**
حكمة تشديد الإسلام في منع البدع ٢٢٠
كيف أفسد الابتداع الأديان كلَّها؟ ٢٢٠
مجال الابتداع ليس هو الدين ٢٢٢
أثر تحريم البدع في الإسلام ٢٢٣
❖ **التوازن بين الروحية والمادية** **٢٢٩**
غلو اليهودية في أمر الدنيا ٢٢٩
إهمال المسيحية لأمر الدنيا ٢٣٠
عتو الرهبانية وقسوتها على الطبيعة البشرية ٢٣١
التوازن سمة الإسلام ٢٣٣

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حق الله وحق الحياة ٢٣٤
حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ٢٣٥
لا تغلوا في دينكم ٢٣٧
سقي النخيل أم تطويل الصلاة ٢٣٩
❖ اليُسرُ ورفعُ الحرجِ **٢٤١**
بُعثتُ بالحنيفية السمحة ٢٤٣
الحكمة في تيسير العبادة ورفع الحرج عن الأمة ٢٤٧
رُخص وتخفيفات ٢٥١
من رخص الصلاة ٢٥٣
من رخص الجهاد ٢٥٤
رخص الصيام ٢٥٦
• عبادات الإسلام وشعائره الكبرى **٢٥٩**
• أسرارها وأثرها في الحياة **٢٥٩**
❖ تمهيـــد **٢٦١**
المراد بعبادات الإسلام ٢٦١
عبادات قديمة جديدة ٢٦٣
أسرار العبادات وآثارها ٢٦٥
❖ الصــلاة **٢٦٩**
منزلة الصلاة في الإسلام ٢٦٩
• الصلاة المطلوبة ٢٧٢
سرُّ تكرار الصلاة في اليوم ٢٧٣

QaradawiBooks.com

الصلاة نظافة وتجمُّل ٢٧٧
الصلاة رياضة بدنية ٢٧٩
الصلاة قوة روحية ونفسية ٢٧٩
الصلاة قوة خُلُقية ٢٨٢
صلاة الجماعة ومزاياها ٢٨٢
الصلاة تربية عسكرية ٢٨٥
المسجد ورسالته في الحياة ٢٨٦
المسجد جامعة شعبية ٢٨٧
المسجد برلمان دائم ٢٨٨
المسجد مؤتمر ٢٨٩
المسجد معهد للتربية العلمية ٢٩٠
الحرية ٢٩٠
الإخاء ٢٩١
المساواة ٢٩٣
مسجد الرسول في المدينة ٢٩٥

❖ **الـزكـاة ٢٩٩**

الزكاة في الديانات السابقة ٢٩٩
في العهد المكي ٣٠٠
الزكاة الإسلامية نظام مبتكر ٣٠٢
الزكاة تجبيها الدولة ٣٠٥
بيت المال ملك الأمة ٣٠٦
فيم تصرف الزكاة؟ وإلى من؟ ٣٠٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الزكاة حق لا تفضُّل ٣١٩
حق الفقير ٣١٩
حق الجماعة ٣٢٠
حق الله ٣٢١
أهداف الزكاة ٣٢٤
من شهادات الكُتَّاب الأجانب ٣٢٩
التزام أداء الزكاة كافٍ لإعادة مجد الإسلام ٣٣٠
زكاة الفطر ٣٣٢
في المال حق سوى الزكاة ٣٣٤
الإنفاق المستحب ٣٣٥

❖ **الصيــام ٣٣٩**

تنوع العبادات في الإسلام ٣٣٩
الصوم عمل إيجابي في حقيقته وروحه ٣٣٩
شهر الصيام المفروض ٣٤٠
من أسرار الصيام ٣٤٠
الصوم تقوية للروح ٣٤١
صوموا تصحُّوا ٣٤٣
الصوم تربية للإرادة ٣٤٤
تعريف بالنعمة ٣٤٦
تذكير بحرمان المحرومين ٣٤٦
العبودية الكاملة لله ٣٤٧
المسلمون والصيام ٣٤٨

QaradawiBooks.com

❖ **الحَجُّ** **٣٥١**
صلة المسلم بالبيت الحرام وبانيه ٣٥١
أعمال الحج ٣٥٢
الكعبة رمز التوحيد والوحدة ٣٥٤
من أسرار المناسك ٣٥٦
آثار الحج في النفس والحياة ٣٥٧
١ ـ الحج شحنة روحية وعاطفية ٣٥٧
٢ ـ الحج ثقافة وتدريب ٣٥٨
٣ ـ المنافع التجارية ٣٥٩
٤ ـ المساواة والوحدة والسلام ٣٦٠
وفي الحج نرى معنى الوحدة جليًّا كالشمس ٣٦٢
٥ ـ الحج مؤتمر عالمي ٣٦٣
من شهادات المنصفين ٣٦٦

• **المنهج الأمثل في تعليم العبادات** **٣٦٩**

❖ **تمهيد** **٣٧١**

❖ **فقه العبادة لا علم العبادة** **٣٧٣**

❖ **الرجوع إلى عهد البساطة** **٣٧٧**

❖ **التيسير لا التزمت والوسوسة** **٣٨٧**

❖ **الرجوع إلى الكتاب والسُّنّة لا التعصب لمذهب** **٣٩٥**
أمثلة للتيسير في بعض المذاهب ٣٩٦

QaradawiBooks.com

ما أُكل لحمه فروثه وبوله طاهر ٣٩٧
الماء لا ينجس إلا بالتغير ٣٩٧
لمس المتوضئ للمرأة ٣٩٩
المسح على الجوربين ٤٠٠
الصلاة بالثوب النجس غير متعمِّد ٤٠١
الحقن كلها لا تفطر ٤٠١
مَن تسحر بعد الفجر خطأ ٤٠٣

❖ **العناية بالفرائض أولًا** ٤٠٧

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** ٤١٥
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ٤٣٧
- **فهرس الموضوعات** ٤٥١

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com